جامعة القاهرة
كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الثانى عشر
يناير ١٩٩٤

محتوى العــدد

٢ - عرض الكتب :

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصرى بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة .
- تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .
- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سبق أن نشرت أو معروضة للنشر فى مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم .
- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسها بحق القبول أو رفض الأبحاث أيا كان قرار هيئة التحيكم .
- النشر فى المؤرخ المصرى متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصرى تعبر عن وجهة نظر أصحابها .

المؤرخ المصرى

العدد الثانى عشر — يناير ١٩٩٤

المراسلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور / سيد أحمد الناصرى رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان - جيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

يصدر هذا العدد (الثانى عشر) من مجلة المؤرخ المصرى فى وقت تتصاعد فيه دخان القنابل والحرائق من اليمن الشقيق مما يجعل سحابة من الحزن والقنوط تخيم فى سماء الأمة العربية.

وبالرغم من ذلك فإن هناك شعاع من نور يبدد هذا الحزن ويعيد الثقة بالنفس ففى البحرين وعلى مدى ثلاثة أيام (من التاسع من أبريل حتى الحادىعشرمنه) أقامت كلية الآداب ندوة دعت إليها نخبة منتقاة من رواد الفكر والتنوير من كافة أنحاء الوطن العربى لكى يتبادلوا الرأى والرأى الآخر ويتحاوروا بحرية تحت مظلة المحبة والأخوة والاحترام المتبادل فقد شارك هؤلاء الرواد بأكثرمن ثلاثين بحثا تناولت موضوعا واحدا من زوايا مختلفة وهو اشكالية المنهج فى العلوم الاجتماعية وواقع الوطن العربى.

وبالرغم من أن أغلب البحوث كانت من نصيب علم الاجتماع إلا أن البحوث الخاصة باشكالية مناهج التاريخ - الذى هو سيد العلوم الاجتماعية بلا منازع - رغم قلتها - كانت جادة ومتنوعة وجريئة فى اقتحام معاقل قضايا المناهج فى التاريخ.

إن هذا التجمع الكبير الممثل لكافة أقطار الوطن العربى من الخليج إلى المحيط لم ينجح فقط فى لم شمل الباحثين العرب فى ملتقى أخذ وعطاء وتعارف، بل ساعد الفكر العربى المعاصر لكى يتحسس لنفسه طريقا مستقلا عن المناهج الأوروبية التى لاتزال قيودا تحد من انطلاقنا وتخلق فجوة بين المثقفين وواقع مجتمعاتهم، ويجعلنا نقف عاجزين عن المساهمة الفعلية فى إعادة الفكر العربى إلى هويته العريقة التى تقوده لاستعادة مكانته فىعالم يلهث فيه المجتمع للوصول إلى ركب السبق وتبوء مكانة الريادة فى العلم والمعرفة.

إن هذا الدور الرائد الذى تقوده هذه الجامعة الفتية بتشجيع من أجهزة الدولة ودعم المؤسسات التجارية والشعبية لدليل على حرص دولة البحرين لكى تلعب

دورا رائدا لتصبح واحة للفكر وجزيرة للتسامح وتبادل الرأى واحترام الرأى الآخر، ولهذا لم يكن غريبا أن يحرص صاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رغم مشغولياته الكثيرة - من أن يجد بعض الوقت لاستقبال أعضاء الندوة والتحدث إليهم والاستماع إلى آرائهم فى جو من الألفة والترحيب ولم ينس سموه أن يشير إلى دور مصر الرائد فى حمل رسالة التنوير ومساهمتها فى النهضة التعليمية فى البحرين.

إن "المؤرخ المصرى" لتهنىء من أعماق قلبها جامعة البحرين وقيادتها العلمية وعلى رأسها سعادة الأستاذ الدكتور على محمد فخرو وزير التربية والتعليم ورئيس مجلس أمناء الجامعة، والأستاذ إبراهيم الهاشمى رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور هلال الشايبى عميد كلية الآداب ورئيس الندوة والأستاذ الدكتور/ باقر النجار رئيس قسم الدراسات العامة ومنسق عام الندوة، كما لاتنسى المؤرخ المصرى أن تقدم التهنئة لمجموعة العلماء المنظمين لهذه الندوة وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور/ على نصر منصور أستاذ التاريخ الإسلامى والأستاذ الدكتور تمام همام أستاذ التاريخ الحديث.

هيئة التحرير

البحوث والدراسات

وقفة فوق أطلال باكخياس

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

أستاذ ورئيس قسم التاريخ ورئيس تحرير المجلة

وكما يفخر الأنجليز بمثلث مدن لندن وكمبردج واكسفورد كان فى مقدور ابن الفيوم فى العصر اليونانى الرومانى أن يفخر بمثلث مدن كرانيس (كوم أوشيم) وباكخياس (أم الأثل) وفيلادلفيا (جرزة). لأنها كانت ـ تكون مثلثا متكاملا، كحصون للحضارة والثقافة فى شمال الفيوم تلك الواحة الأغريقية المصرية فى قلب الصحراء الغربية.

وإذا كان نصيب فيلادلفيا (جرزه) وكوم أوشيم (كرانيس) من البحث والتنقيب طيبا إلى حد ما، إلا أن الثالثه: "باكخياس" بقيت مغمورة يعرف العالم الأوروبى إسمها ولايعرف مكانها، ومن ثم كان من واجبنا تقديم هذه المدينة إلى المهتمين وغير المهتمين بالدراسات البردية.

تقع باكخياس (أم الأثل) على بعد سبعة كيلو مترات تقريبا من ناحية الشمال الشرقى لمركز طاميه، ويفصل بينها وبين طريق القاهرة الفيوم الصحراوى بضع كيلو مترات من ناحية الشرق. ويمكن الدخول إلى المدينة من عند الكيلو ٤٢ من هذا الطريق إذا إتجهنا جنوبا وإجتزنا الصخور الوعرة التى تنتشر فى هذه المنطقة .

المدينة الجميلة ـ أو التى كانت منذ أكثر من ألفين عام مضت ـ من أجمل مدن الفيوم وأكثرها رونقاً – وارقاها علما ومعرفة – تقع فوق مرتفعين المرتفع الشمالى الذى يتدرج بأنحدار تدريجى من ناحية الجنوب إلى الشمال، وينحدر بحدة من ناحية الشمال إلى الجنوب مما يجعل المدينة محصنة

تحصينا طبيعيا من ناحية الشمال، بحيث لايمكن دخولها إلا من إتجاه واحد فقط هو الجنوب، نفس الشيء نجده فى الاكروبول الذى أقيمت عليه مدينة أثينا فى بلاد اليونان.

أما حقول المدينة أو زمامها الزراعى فيقع أيضا فى الجنوب حيث يوجد مركز طاميه الآن، وأقرب الأراض الزراعية إلى الكوم الأثرى ضيعة صغيرة كان يمتلكها حتى عام ١٩٧٥م أحد تجار جلود من مدينة القاهرة.

كانت باكخياس رأس المثلث الحضارى فى شمال الفيوم (لو تخيلناه هكذا) حيث تقع كرانيس فى الجنوب الغربى وفيلادلفيا (جرزة) فى الجنوب الشرقى. والمدن الثلاث تقع كلها فى إقليم هيراكليديس أحد الأقاليم الادارية الثلاث التى كان إقليم الفيوم ينقسم إليها ابان العصرين البطلمى والرومانى.

وقد حاولت أن ابحث لماذا سميت المدينة القديمة بذلك الأسم، ورأيت أن إسمها إشتق من إسم باخوس، رب النبيذ والكروم والحدائق، التى كانت تشتهر بها الفيوم قديما كما هى حديثا. ومن ثم يكون معنى اسمها مدينة باخوس أو نبيذية. إن الزائر لأطلال باكخيس - ولا أظن أن هناك زائرا - ليدهش إذ أنه سيجد المدينة بمنازلها، ومعبدها، تقف أطلالا نصف غارقة فى الرمال وكأنها تستجير بالعلماء تطلب العون من أذى لصوص الآثار وتجار العاديات وجهل الفلاحين الذين يقطعون احجار منازلها ومبانيها ليحرقوها وليعملوا منها الجير، بل أن بعض منازل القرية الحديثة مقامه من أحجار المدينة القديمة. ولما كانت المدينة تقف بعيدة عن العمران الحديث ـ بعكس كرانيس ـ التى يمر قربها الطريق الصحراوى ـ فإن العبث بها أصبح أقل مما حدث بكرانيس وذلك لأن على العابث أن يسيرعلى قدميه صعودا ما يقرب من أربعة كيلومترات منذ أن يترك حدود الأرض الزراعية لزمام طاميه. كما أنها بعيدة عن الطريق الصحراوى ولهذا فإن فرص العثور على آثار فى هذه

المنطقة أحسن بكثير من كوم أوشيم، ولكن الباحث سوف يواجه صعوبات كثيرة مثل الاقامة والحصول على مياه الشرب ووسائل المعيشة والعمران.

أننا لانستطيع أن نصف بدقة المدينة وأثارها مادمنا لم ننقب فيها، ولم نكشف عن معالمها، ومادامت الرمال تغطيها، غير أن النظرة العامة للأثرى الخبير تبين أن باكخياس كانت أصغر حجما ومكانا من كرانيس، ولكن من ناحية العمارة والمساكن فهى لاتختلف عنها، ولاعن أى مدينة مصرية اغريقية فى إقليم الفيوم، مثلا - كان المعبد - كما كان المسجد فى العصر الإسلامى - هو مركز المدينة التجارى والاجتماعى، ويتوسط المدينة بحيث تؤدى كل طرقها إليه من كل جانب، وتلتقى عنده، ومن حول المعبد تتشابك منازل السكان فى شكل عناقيد العنب على جانبى الطرق، لكن نلاحظ أن هناك "سيمترية" أى نظام عمرانى توازنى - فى منازل باخياس، بينما لانجد مثل هذه الظاهرة فى منازل كرانيس. وأستطيع أن أتبين ثلاث شوارع كانت تفصل بين المنازل وتؤدىإلىالمعبد الكبير،أما الطريق الرابع فكان يؤدى عبر بوابه مقدسه إلى ساحة واسعة، فارغة من المبانى ومن الواضح أنها كانت سوق المدينةالعامة "الأجورا" وهى مكان تجمع المواطنين للتسوق وللاحتفالات أو التشاور، وهى أهم المعالم الحضارية للمدينة الأغريقية القديمة.

كان لباكخياس كما كان لباقى المدن المصرية الأغريقية معبدا واحداً رئيسياً ، وكان هذا المعبد مقاما للرب المصرىالأغريقى سوب - كانوب - كونيوس Sob Kanob - Konneus. والأسم مركب من اسم الرب المصرى سوبك رب التمساح الذى تشتهر به الفيوم منذ أيام الفراعنة، بل كان رمزا وشعارا لها يأتى السائحون من أعماق الأرض للتفرج عليه ومشاهدته وهو يتحرك بحرية فى البحيرة المقدسة فى عاصمة اقليم الفيوم كروكوديلو بوليس، بل وينتظرون ساعات ليشاهدوا الكهنة المصريين، وهو يقدمون له الغذاء فى

الساعات المحــددة، ولدينـا أدلـة كافيـة أن مشـاهدة هـذا المنظـر كـان مـن أهـم المعالم السياحية القديمة فى اقليم الفيوم؛ أما الأسم الثانى الذى يتركب منه اسـم المدينة فهو اسم أنوبيس وهو رب العالم الأخر المصرى، والذى كـانت رأسـه هى رأس ابن أوى، وهو الرب الذى أحبته كليوبترا الملكـة البطلميـة، وادعـت أنها تنخرط من لنسله، ولهذا عندما حلت بها الكارثة تغنى الشعراء والرومـان شامتين بأنتصار آلهتهم القوية، على آلهه النيل وخصوا بالذكر أنوبيس الذى لم يصفوه بالرب ـ بل بالكلب النباح Lactrix !

كان معبد سوب ـ كانوب ـ كونيوس أكثر تواضعا من معبد بيتوسوخوس (رب التمساح) الكبير الذى كان يتوسط كرانيس االقديمة، لأنه لم يكن مبنيا من الحجر مثل الأخير، بل من الطـوب الأحمـر الكبـير الحجـم، ولـم يستخدم فيـه الحجر بتاتا إلا فى عتبة المعبد التـى إنهـارت، فـإغلقت المعبـد كليـة، وأصبـح كحجره سرية مطمورة؛ وحوائط المعبد لاتزال باقية بحالـة شـبه جيدة، ويبلـغ إرتفاعها ضعف قامه الرجل المتوسط الطول، والمعبـد فـى هندسـته لايختلـف عن هندسة معابد هذا العصر؛ فهو كمعبد كوم أوشيم يتجه بابـه نحـو الشـرق، ولكن حجراته لاتنفتح على رواق أو ردهه داخليه محاذيه للحوائط الخارجيـه للمعبد، بل تنفتح على البهو الأوسط، وأحيانا على بعضها البعض. كما نلاحـظ أن بعض الحجرات ـ مثل بيوت مصر فى العصر اليونانى االرومانى ـ لم يكن لها بوابات تفتح على الخارج، بل يصل إليها الداخل عن طريـق سـلم خشـبى متحرك ينزل من سقف الحجرة. وقد لوحظ هذا الأتجاه فى العمارة فـى بيـوت كرانيس المستوطنة الأغريقية على الفرع الغربى للنيل وفى كوم أوشيم وفـى فيلادلفيـا (جـرزة) فـى الفيـوم. حتـى أن الحجـرات تبـدو كقاعـات غـائرة فـى الأرض، يفصل بينها عطفات من الطرق المسدودة.

إن عمر معبد باكخياس لابد وأن يكون من عمر المدينة ذاتها؛ وباكخياس تردد إسمها فى الوثائق البردية الأغريقية الفيومية منذ القرن الثالث قبل الميلاد؛ فقد عثرت البعثة البريطانية عام ١٨٨٥ على بعض الوثائق البردية. داخل المعبد يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وعلى أى حال نستطيع أن نقول أن باكخياس هى توأم كرانيس، وهى من عمرها، ومعبدها من عمر معبد كرانيس. أى منذ مطلع القرن الثالث قبل الميلاد.

وعندما تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص، وتهافتت القبائل العربية المهاجرة على واحة الفيوم، يبدو أن بعض هذه القبائل العربية المهاجرة إلى الفيوم أثرت الأقامة فى بهو المعبد الكبير (Prosekos) ، لكن الحجرات الجانبية تركت على حالها بدليل أننا عثرنا على الوثائق البردية ملقاة على أراضيها دون عبث بها. غير أن المعبد لم يسلم من عبث السباخين، ولصوص الآثار، وهواة التنقيب من غير الأثريين المتخصصين، وتجار العاديات، واوراق البردى. وقد روى لى بعض المزارعين القاطنين بالقرب من المنطقة الأثرية أن هذا المكان كان ولايزال مصدراً للأوراق البردية التى تباع بطرق غير شرعية لتجار العاديات.

إن اهم ثلاثة أشياء يبحث عنها الأثرى فى المدن القديمة هى: المعبد، والمنزل ثم المقبرة، وهى أشياء مترابطة فى أثار مصر فى العصرين الأغريقى والرومانى. فالمعبد هو بيت الآله، أما المنزل فهو بيت الأحياء؛ أما المقبرة فهى بيت الأموات. والعلاقة الأثرية بين هذه الأشياء الثلاثة متكاملة.

كانت منازل باكخياس القديمة كما يبدو للدارس لها على الطبيعة تغطى المرتفع الشمالى فى شكل أحياء سكنية متداخلة، تزداد كثافة عند قمة المرتفع الشمالى الغربى والشمالى الشرقى؛ وعلى حد تقدير علماء الآثار فإن عدد منازل باخياس القديمة لم يكن يقل عن ثمانمائة منزل. كان يقطنها ما بين

ثلاثة أو أربعة آلاف نسمة؛ إذن، فقد كانت المدينة أصغر بكثير من كرانيس، ولكن الأثرى يشعر من الأنطباع العام لتخطيط المدينة، ونوعية البناء أنها كانت تفوق كوم أوشيم رخاءً، ربما لوقوع المدينة على طرف طريق القوافل القديم الذى كان يربط ما بين ممفيس (ميت رهينة) ـ العاصمة الثانية لمصر البطلمية والرومانية وبين عاصمة واحة الفيوم؛ ومن ثم كانت القوافل تتوقف عندها، لتتزود بالماء والطعام، وتبيع وتشترى.

منازل باكخياس، لاتختلف عن نفس طرز المنازل التى عثرنا عليها فى كرانيس، ولاتختلف عنها لافى الحجم، أو الشكل، أو طريقة البناء، بل هى لاتختلف عن منازل الفلاحين المصريين اليوم، فهى منازل بسيطة مبنية من الطين أو اللبن، وقلما استخدمت فيها الحجارة ولذا فهى لاتشجع الأثرى على الأهتمام بتسجيل مقاييسها، لأنها ليست بذات نمط مغر من المعمار، ولاتحتوى على رسومات فنية على حوائطها. لكن منازل الحى الجنوبى من المرتفع الشمالى كانت لفلاحين فقراء وغالبا ما كانوا أميين، وهذا يجعل الأمل فى الحصول على الوثائق البردية فى منازلهم ضئيلاً، وفى أقصى الجنوب من المرتفع حظائر تربيه الخنازير التى لابد وأن كانت باكخياس تشتهر بتربيتها ، وذلك واضح من عظامها، و"يميز الأثرى عظام الخنازير من شدة لونها البوسفورى الأبيض" والكثيرة، والمنتشرة، كذلك كان هناك أثار لحوانيت لبعض الصناعات الريفية مثل الأوانى الفخارية، والمسارج وأدوات الغزل، والحدادة الريفية، كلها تقع جنوب المعبد، وحول جنوبه من الغرب.

أما منازل الأغنياء، فقد كانت تقع فى أقصى شمال المدينة، وخاصة من ناحية الشمال الغربى، وقد نهب السباخون معظمها ونبشوها؛ كما قام أحد اليونانيين الذى كان يسكن سنورس فى أواخر القرن التاسع عشر بالتنقيب فيها ونهبها بعلم السلطات الانجليزية، الذين لم يتنبه علماؤهم إلى أهمية المكان إلا

فى عام ١٨٩٠، عندما وصلت بعثه هيئة البحث عن الآثار المصرية E.E.F(١) ، والتى كان يترأسها كل من برنارد جرنفل، وأرثر هنت، ودافيد هوجارث، وجرافتون ملن؛ غير أن هذه البعثة البريطانية كان همها الأول "النبش" وليس التنقيب؛ وهى تبحث أولا عن الوثائق البردية دون إهتمام بالأثار، كما أنها كانت على عجل، تريد نبش أكبر مساحة للعثور على أكبر كميه من أوراق البردى والعودة بها إلى لندن.

ونهبت البعثة. ومضت؛ ومنذ ذلك التاريخ بقيت باكخياس مهجورة، منسيه من العلماء المصريين، والأجانب على السواء. ونظراً لبعد المدينة القديمة، وندرة الوعى الأثرى، والتاريخ القومى عندنا فقد راح الفلاحون ينبشون منازلها، ويقتلعون أحجارها لصناعة الجير، وفى بعض الأحيان يقتلعون طوبها الأحمر لكى يقيموا منها مبانيهم وأكواخهم.

من الملاحظ أن بيوت باكخياس كانت مقامة فوق الربوة الشمالية فى شكل خلايا مغلقة، لها سلم يهبط إلى داخلها من الخارج، ولها حجرات ذات أقبيه ومسقوفة بتعريش من البوص وغصون الأشجار القديمة، وأفلاق النخيل، ومعظمها سقط سقفه، فهدم المنزل تماما، وتحتاج إلى مجهود كبير للتنقيب فيها. وإذا اتفقنا أن شكل المنازل يشابه منازل كوم اوشيم، فإن وحدات المسكن كانت تتكون بالتقريب من ما بين ثلاثة وست حجرات ، موزعة عشوائيا دون هندسة محددة ؛ ويتوسطها ردهة يهبط إليها السلم القادم من

(1) Egyptian Exploration Fund .

(٢) اقصد إلى جانب المدن الاغريقية الثلاث مثل نقراطيس والأسكندرية وبطلمية، كذلك فى بعض المدن المصرية الكبرى ذات الأحياء الأغريقية مثل هوموبوليس ماجنا.

العطفة (dromos) وهذا الطراز من المنازل بعيد عن العمارة الأغريقية الراقية التى قد نجدها فى المدن ، فليس هناك واجهات ذات أعمدة مزخرفة، ومرمرية ولا أبهيه كبرى (megaron) ولانقوش، ولا أعمال نحت تزين واجهتها، وبيوت الثراء لاتختلف فى جوهرها عن بيوت الأغنياء، إلا فى مساحة الحجرات وعددها ونوعية الطوب المستخدم فى البناء، وكذلك فى دقة انتصاب الحوائط. وهناك منازل أشبه بالجحور مما يـ عل الإنسان يشك عما إذا كانت تستخدم كمساكن، وربما كانت هذه مخازن لتخزين الغلال؛ بدليل أن من بعض هذه الحجرات - التى لايمكن أن يمر بخاطر الأثرى أنها سكنى إنسان أخرج "هنت" منها تحويشه نقدية بلغ بعضها أربعة آلاف قطعة من فئة الأربع دراخمات، وهو مبلغ باهظ بالنسبة للقيمة الشرائية فى ذلك العصر. وعموما فأن منازل باكخياس أقرب إلى النمط الذى نجده فى القرى المصرية القديمة.

هكذا رأينا المعبد والمنازل فماذا ياترى عن جبانة المدنية ؟

عندما يقف الزائر فوق طرف الربوة الشمالية، ويشيح بنظره شمالاً ناحية الطريق الصحراوى، فإنه سوف يرقب بقايا مقابر قديمة مبعثرة على مسافة كيلو مترين ونصف كيلو متر تقريبا. ومقابر المدينة القديمة تتجمع حول صخرة بعضها منحوت فيها، بعضها له شكل دائرى أو مزبع، وبعضها عبارة عن مقصورات (Kammergrab) ، ولها سقوف على شكل قبو والقبور منحوته على غير انتظام أو نمط معين، ولكن يختلف بعضها عن بعض حسب الدرجة الاجتماعية. أيضا يوجد قبور جماعية عبارة عن عيون اسطوانية منحوته فى قلب الصخرة (Loculi)، تماما مثل قبور منطقة الأنفوشى وكوم الدكة بمدينة الأسكندرية، مع الفارق الكبير من بين ترف العاصمه وفقر القرية. ووضع الجبانات بعيدا عن المدينة جعلها عرضة للنهب والنبش.

خاصة أنها قريبة من الطريق الصحرواى. وهناك بعض المقابر الخاصة ببعض الأسر الموسرة، وهى ذات مساحة مستطيلة، مبنيه من الطوب اللبن، بداخلها ترقد الموتى فوق مصاطب، ومن حولها كافة أنواع الأشياء المستخدمة فى حياتها الدنيوية، ومن داخل هذه المقابر عثر على روائع الأدب الأغريقى القديم، التى كان هؤلاء الموتى يقرأونها فى حياتهم، مثل خطب ديموستين الأثينى ضد فيليب ملك مقدونيا، والتى تعتبر من روائع المطالعة الأغريقية. وفى مقابر الأغنياء عثرت البعثة البريطانية على لوحات زيتية، تصور وجه الميت أحيانا مصورة على ورق البردى المقوى، أو على الخشب، وكانت هذه الصورة تلصق فوق المومياء المحنطة، وقد اشتهر هذا النوع من الفن فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وطوال القرن الثانى، وكانت هوارة هى مركز صناعتها. كما عثر فى انطينوبوليس (الشيخ عبادة محافظة المنيا) على بعض منها، ولكن هذا النوع من الفن الذى يمثل نهضة الفن الأغريقى المصرى فى عصر هادريان، ارتبط اسمه بالفيوم وأصبح عالميا يعرف بأسم "صور موميات الفيوم" ، وكتبت عنه كتب كامله. وقد حاول بعض الدارسين تحديد أسلوب هذا الاتجاه الفنى، والبحث عن شخصية بعض الرسامين المصريين القدامى ولو برموز. إن لوحات الفيوم المصورة لتملأ متاحف أوروبا خاصة متحف اللوفر فى باريس، والمتحف البريطانى بلندن، وبعض متاحف ألمانيا.

وأخيرا نتساءل ماذا قدمت أطلال باكخياس الغارقة فى الرمال للتراث الأوروبى الذى يقرأوه طلاب الأداب الأغريقية اليوم فى جامعات سويسرا، وبريطانيا، والمانيا، وإيطاليا؟ أخرجت باكخياس جزءا من الكتاب الثامن من إلياذه هوميروس، وجزءاً أخر من خطبه ديموستين المعروفة بأسم الفيليبية الثالثة، وماذا عن الوثائق الخاصة أو الشخصية التى تعكس احساسات الناس،

وقلقهم ومشاغلهم، وتعطينا المقدرة على تفهم مشاكلهم، ومصادر أرزاقهم وعلاقاتهم بالسلطة الحاكمة! من باكخياس خرجت مجموعة كبيرة من الوثائق الشخصية، مثل إيصالات تسديد الضرائب، ومثل تلك الضريبة الذى سددها "أصحاب الطواحين والعاملون فى صناعة تمليح السمك"؛ وقد سددوا دفعه من الحصة المقررة عليهم شهريا وهى ٥٠٠ دراخما برونزية، وكذلك ايصالات أخرى، سدد بها بمقتضاها كهنة المعبد الضرائب المفروضة عليهم. وعدد آخر من إيصالات تسديد حيازة القمح. لكن الوثيقة التى لفتت نظرى من باكخياس هى نص منسوخ من خطاب منسوب للأمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م) موجه إلى ولى العهد انطونينوس التقى (١٣٨ - ١٦١م) وقد عثر على هذه النسخة من الرسالة المنسوبة لهذا الأمبراطور المحبوب مدونة على ظهر قائمة ضرائب وحسابات، ربما خطها كاتب أو معلم على الورق المستعمل رخيص الثمن.

أما موضوع رسالة الأمبراطور إلى ولى عهده فهو شيق، لأن الخطاب يجيش بالعاطفة والفلسفة عندما يتحدث الامبراطور عن نفسه بلهجة الفيلسوف الأبيقورى الزاهد فى الحكم، والذى يترقب الموت برضا، ويوصى بالعرش لولى عهده أنطونينوس الذى لقب فيما بعد بالتقى نظراً لتمسكه بكل الواجبات الأخلاقية ازاء أبيه الراحل هادريان تقول الرسالة: "لقد مات أبى وهو فى سن الأربعين، بعد أن قضى حياته كرجل عادى، لقد بلغت سناً يجاوز سن أبى بمقدار مرة ونصف، وهو نفس السن الذى بلغته أمى عندما ماتت". ونحن بالفعل نعلم أن الأمبراطور هادريان مات وهو فى الثانية والستين من عمره بعد حياة حافلة بالعمل والحركة والأصلاح. وانتهت هذه الحياة بمرض طويل ومرير، كان أنطونينوس ولى العهد يرعاه خلالها ويقوم على خدمته، ويتولى عنه مسؤلية السلطة والحكم. إنه لمن المدهش أن يهتم ابن هذه المدينة

الصغيرة فى الفيوم بشئون الأمبراطورية فــى رومـا. ويحفـظ عـن ظهـر قلـب قطعـة مـن الانشـاء العـاطفى الفلسـفى عـن المـوت. إن العلمـاء يعتقـدون أن موضـوع الرسالة مـا هـو إلا موضـوع إنشـاء كتبـه أحـد تلاميـذ هـذه المدينـة، متخيلا نفسه الامبراطور هادريان. ونجح لأنه عاش فى الجو النفسى الحقيقى الذى أحاط بنهاية الأمبراطور وهو على فراش الموت.

ومن الوثائق التاريخية الهامة التى أخرجتها باكخياس الترجمة الأغريقية لقرار أصدرة امبراطور رومـانى (ربمـا الكسـندر سـيفيروس ٢٢٢ - ٢٣٥م) يختص بسك الدينار الذهبى الملكى التذكارى Aurium Coroniarum، ابتهاجـا باعتلائه للعرش وتقليدا لمن سبقوه، وتعهد فيه برد الأمـوال التـى جمعـت مـن الأهالى من أجل سك هذا الدينار التذكارى سـواء فـى عهـده أو فـى عهـد مـن سبقوه، ونلاحـظ أن النـص يعكـس صـورة رضـا مـن جـانب النـاس عـن هـذا الامـبراطور الشـرقى الأصـل، لأن والدتـه سـورية مـن حمـص، ومـن أسـرة أعضاؤها كهنة لرب فينيقى هو "الجبل" كما أن الأمبراطور الذى لم يكن سوى صورة تحركه أمه الحازمه المصلحة يتحدث بلهجـة المصلـح الادارى العـاقل فى هذه النسخة من القرار. إذا صح اعتبـار صـاحب القـرار هـو الأمـبراطور الكسندر سيفيروس.

وإذا ما تركنا الوثائق الـذى يبتهـج لهـا المـؤرخ البـاحث عـن القـرارات الرسمية أو شبه الرسمية، فماذا عن وثائق عامة الناس التى تسـجل عواطفهـم وتشرح خبايا نفوسهم وتعطى لعلم التاريخ عمقا نفسيا صـادقـا عـن النـاس فـى ذلك العصر، الوثائق الفردية كثيرة، ونأمل أن نعثر علـى الكثـير منهـا، ولكـن الذى أثارنى هو تلك القصاصة البردية التى عثر عليها موضـوعه داخل إحدى حجرات المعبد، والقصاصه مكتوبه بلغة أغريقية ركيكـة ممـا يعكـس مسـتوى الكاتب التعليمى فى هذه القرية، وموضوع القصاصة سؤال لانعـرف هل هـو

نحن الآن فى مطلع القرن العشرين، وبريطانيا - كما ذكرت هى "سيدة البحار" التى لا تغيب الشمس عن أراضى إمبراطوريتها. وكانت هى القوة المهيمنة فى المنطقة العربية، وعلى وجه التحديد فى المنطقة الممتدة من الخليج شرقا، إلى قناة السويس ومصر غربا، ومن سواحل المتوسط شمالا إلى قلب أفريقيا وأطراف شبه الجزيرة العربية عند باب المندب ومضيق هرمز جنوبا .

وكان إحكام القبضة على هذه المنطقة هو الوسيلة لحماية المصالح الإستعمارية البريطانية المتمثلة فى حماية طرق مواصلاتها إلى الشرق وإلى الهند - درّة التاج البريطانى - على وجه الخصوص، وفتح الأسواق أمام المنتجات البريطانية، أو الحصول على المواد الخام (القطن ثم النفط) .

والملفت للنظر أن الإحتلال العسكرى المباشر لهذا الجزء أو ذاك من تلك المنطقة لم يكن هدفا فى حد ذاته فمن الحقائق التاريخية التى أثبتتها تجارب مرحلة السيطرة الإستعمارية أن "رأس المال أو المصلحة الإستعمارية بشكل عام يبدأ فى التغلغل ثم تأتى البندقية فى أعقابه لحمايته" وبعبارة أخرى فقد تراوح النهج الإستعمارى البريطانى فى التعامل مع المنطقة العربية بين الإحتلال العسكرى المباشر، كما حدث فى مصر والسودان وعدن على سبيل المثال، أو التواجد السياسى المؤثر استنادا إلى تحركات لبعض قطع الأسطول الحربى، مع الإكتفاء ببعض المحطات أوالمواقع الإستراتيجية التى لابد منها لتأمين الغاية المنشودة .

وكان النهج الأخير هو السائد فى تعامل بريطانيا مع منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية. فالموقع الإستراتيجى لهذه البقعة هو وحده - آنذاك - الذى كان يمثل حجر الزاوية فى النظرة البريطانية. وسوف نلاحظ ذلك بكل وضوح فى عزوف السياسة البريطانية عن التورط فى شئون الداخل، أى فيما

وراء الشريط الساحلى للخليج،ثم فى تخليها - بدرجة أو أخرى - عن هذا العزوف وفقاً لما تمليه تقلبات الظروف أو ظهور بوادر أخطار تهدد المصالح البريطانية .

والخلافة العثمانية فى هذه الحقبة كانت لا تزال تمارس دورها، رغم ما أصابها من وهن، ورغم أنها أصبحت جديرة حقا بتسمية "الرجل المريض" وكان لتأثيرها الدينى، كدولة للخلافة الإسلامية، وتواجدها المباشر والعسكرى فى بعض أنحاء المنطقة العربية، دوره الواضح فى تشكيل السياسة البريطانية فى ذلك الحين والتى كانت تسعى، بلا جدال، إلى حصر وتقليص النفوذ العثمانى، ولكن مع الإبقاء على "شعرة معاوية" تربط لندن بدولة الخلافة خشية أن تنحاز إلى الغريم الصاعد - ألمانيا - فى الصدام الوشيك معها، والذى بدأت بوادره تلوح فى الأفق منذ أن شبت عن الطوق، وراحت تسعى إلى ضم المستعمرات وإعادة رسم خريطة العالم وفقا لتوزان القوى الجديدة فى أوروبا وعلى الصعيد العالمى بشكل عام .

ومع تزايد ترنّح الدولة العثمانية، هبّ الغرماء لإقتسام الشركة، ويسجل تاريخ تلك الحقبة توقيع اتفاقية سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا، والتى أطلقت بمقتضاها يد فرنسا فى الشام وفى المغرب العربى، مقابل إطلاق يد بريطانيا فى مصر وشبه الجزيرة العربية والخليج والعراق .

ورغم كل محاولات بريطانيا من أجل تجنب الصدام المباشر مع دولة الخلافة، إلا أن دولة الخلافة انحازت فى خاتمة المطاف،إلى المعسكر المضاد عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، وهنا لم تعد هناك حاجة إلى "شعرة معاوية" واندفعت بريطانيا تدعم مواقعها وتحقق أهدافها فى المنطقة دون النظر لأى شئ سوى مصالحها .

نشأة الدولة السعودية الثالثة :

فى خضم هذه التيارات العارمة المتلاطمة كانت نشأة الدولة السعودية الثالثة وبين هذه الأعاصير الجارفة كان علىعبد العزيز آل سعود أن يشق طريقه .

ولنتتبع الآن مسار الدولة الوليدة وردّ الفعل إزاءها من جانب بريطانيا والدولة العثمانية على وجه الخصوص ، وسائر القوى الدولية أو المحلية بشكل عام، وما انتهجه قائدها ومؤسسها خلال ذلك من سياسات وما اتخذه من مواقف وسوف تتركز هذه الدراسة حول هذا الجانب على وجه التحديد ولكن مع الاستطراد أحيانا لمواقف بعض القوىالثانوية الأخرى وما انتهجه عبد العزيز بن سعود إزاءها من سياسات وعلى النحو الذى يخدم الهدف الأساسى للبحث.

عبد العزيز بن سعود وبريطانيا :

فى شهر يناير ١٩٠٢ قام ابن سعود مدعوماً بالسلاح والإمدادات من مبارك شيخ الكويت ومتخذا من أراضى الكويت منطلقا للوثوب لهجوم مفاجىء نجح فيه فى الاستيلاء على الرياض، وتمكن من تثبيت حكمه فيها رغم مخاطر المغامرة وبدأ يتطلع إلى التوسع شرقاً. ويبدو أنه فاتح المقيم السياسى فى الخليج فى أواخر عام ١٩٠٣(١). فى مدى إمكانية الحصول على حماية بريطانيا فى حالة غزوه للاحساء.

وفى ذلك الوقت اقترحت حكومة الهند "إيفاد مسئول أوربى"(٢) إلى الرياض من أجل تقصى الحقائق، ونبهت الحكومة البريطانية إلى ضرورة عدم دخول هذا المسئول فى أى علاقات وثيقة مع نجد، ولكن هذا الإقتراح لم يقدر له أن يرى النور لمعارضة المقيم له .

وفى شهر مايو ١٩٠٤، وعندما اتخذ الأتراك خطوات إيجابية لمناصرة ابن الرشيد ضد ابن سعود، احتج ابن سعود لدى المقيم ضد الغزو التركى، وطلب الحماية البريطانية لبلاده ولشخصه، ومن الواضح أن مطلبه لم يحظ بالقبول فى ذلك الحين(٣).

وفى شهر سبتمبر ١٩٠٤ قضى ابن سعود قضاءاً مبرحاً على ابن الرشيد والقوات التركية المؤيدة له*، وبهذا تم له الاستيلاء على القسم الجنوبى من نجد (الخروج والأفلاق). وعندما طلب شيخ الكويت من المقيم السياسى المشورة حول ما يمكنه أن ينصح به ابن سعود رَدّ المقيمُ بأنه يجب على ابن سعود أن يرى بنفسه ما فيه مصلحته، وأنه نظراً لعدم وجود أى تعليمات محددة من الحكومة البريطانية فليس فى مقدرته - أى المقيم - ولا فى مقدرة شيخ الكويت تقديم أى نصيحة له(٤).

وهو أمر يشير بوضوح تام إلى أن عبد العزيز نجح فى القضاء على خصمه بقواه الذاتية بعيداً عن تدخل بريطانيا التى كانت على ما يبدو تراقب الأوضاع عن كثب والتى سرعان ما أولت اهتمامها بما يجرى فى نجد، فأرسل وزير الهند برقية إلى نائب الملك بالهند فى ٣٠ من ديسمبر ١٩٠٤ ويقول فيها: "تود حكومة صاحب الجلالة أن يكون مفهوما أن مصالحها ونفوذها لا تقتصر على الشريط الساحلى الممتد شرقى بلاد العرب. ويجب عدم الإدلاء بأى تصريحات أو الإقدام على أى خطوات تؤدى - ولو بطريق غير مباشر - إلى التورط فى الحرب الدائرة فى الداخل الآن(٥)". أى بمعنى أن بريطانيا ستستمر فى مراقبة الأوضاع دون تدخل منتظرة النتائج .

العلاقة مع تركيا :

وتشهد هذه المرحلة جولة من المناورات بين عبد العزيز بن سعود والدولة العثمانية، فينعقد فى شهر فبراير ١٩٠٥ اجتماع فى الكويت يحضره شيخها، والوالى التركى للبصرة، وعبد الرحمن الفيصل والد عبد العزيز بن سعود - ويقال أن المندوب السعودى عبّر عن ولائه للسلطان واستعداده، هو وابنه لإطاعة أوامره، وبذل كل جهد لمساندة الحملة التركية فى القصيم. ولكنه جاهر بعدائه لابن الرشيد الذى يحرض الحكومة التركية ضده. وبعد مناقشات أولية تلا المندوب التركى أمراً صادراً من حكومته وموجها لعبد العزيز بن سعود بتعيينه واليا على نجد من قبل الحكومة التركية، التى أعلن مندوبها أنه بالنسبة لابن الرشيد، فلن يكون له أىعلاقة بشئون نجد"ورغم ذلك فقد اتضح فى الشهر التالى مباشرة أن الأتراك لا يزالون على مساندتهم لابن الرشيد ضد ابن سعود(٦) . وعلى أى حال، فقد انتهى الوضع فى شهر مايو ١٩٠٥ إلى اندماج الرياض والوشم وسدير وتوابعها فى وحدة إدارية واحدة عاصمتها الرياض، مع تعيين ابن سعود قائمقاما عليها بعد أن أقسم يمين الولاء للسلطان العثمانى(٧) وهو أول اعتراف رسمى بوجودابن سعود حاكما.

مخاوف القوى المحلية من ابن سعود :

وفى أواخر عام ١٩٠٥، أقدم ابن سعود على خطوة كانت كافية لتزيح الستار عن حقيقة نوايا الأطراف جميعا ومدى تخوفها من هذه القوة السعودية الجديدة الصاعدة، وخاصة بريطانيا وكانت هذه الخطوة هى الزيارة التى قام بها ابن سعود لقطر - وكانت لاتزال تحت الحكم العثمانى من الناحية الشكلية- وتمكن فيها من تسوية بعض الاعترافات القبلية وعندما أعلن ابن سعود عن عزمه على زيارة سائره مشيخات الساحل المهادن ومسقط، انزعج

شيخ أبو ظبى أشد الإنزعاج نظرا للدور الذى سبق أن قام به فى تصفية النفوذ الوهابى فى البريمى والساحل المهادن فى عام ١٨٠٧، كما انزعج سلطان مسقط الذى ينتمى هو وشيخ أبو ظبى وشيخ دبى إلى الهناوية، وكانوا يخشون أن يكون مقدم ابن سعود نقطة البداية لقيام ائتلاف ضدهم يجمع بين شيوخ الساحل المهادن المنتمين للغفارية، ولعل مما زاد من لهيب هذا الإنزعاج أن الأنباء تواترت عن تصريح لابن سعود قال فيه: "باسم الله سوف أسير إلى البلد الذى كان ملكا لأبى وجدى، من مسقط إلى جعلان(٨)".

وانزعجت أيضا حكومة الهند إزاء ما يمكن أن يتعرض له النفوذ البريطانى على الساحل المهادن وفى مسقط؛ نتيجة لزيارة ابن سعود. وقررت الحكومة البريطانية، بعد استشارة السفير البريطانى فى الآستانة أن توجه تحذيراً لابن سعود بأن أى محاولة من جانبه للتدخل فى عمان أو على طول الساحل العربى، سواء فيما يتعلق بالشيوخ أو برعاياهم، سوف يعتبر عملا غير ودى، وسيواجه بالخطوات والإجراءات اللازمة. وبعد وصول هذه التعليمات كان السير بيرسى كوكس قد بادر فبعث برسالة بهذا المعنى لابن سعود عن طريق شيخ الكويت بأن أى محاولة من جانبه للتدخل فى عمان أو على طول الساحل العربى، سواء فيما يتعلق بالشيوخ أو برعاياهم، سوف يعتبر عملا غير ودى، وسيواجه بالخطوات والإجراءات اللازمة. وسرعان ما تخلى ابن سعود عن فكرة الزيارة ، وإن كان الأرجح أن هذا العدول كان نتيجة للأوضاع غير المستقرة فى نجد*. وتنبغى الإشارة هنا إلى أن المقيم حذر شيوخ الساحل المهادن أيضا، تنفيذاً لتعليمات الحكومة البريطانية، ضد أى قلاقل تهدد المصالح التجارية البريطانية على الساحل، وأبلغهم أن حكومة الهند لن تنظر بعين الرضا لأى تآمر يتورطون فيه إلى جانب ابن سعود(٩) .

وفى شهر مايو ١٩٠٦، أنـزل ابـن سـعود هزيمـة سـاحقة بـابن الرشـيد المهنا وأباد قواته فى القصيم فى معركة روضة المهنا التى قتل فيها زعيم آل الرشيد الأمير عبد العزيز بن متعب.

وأعلن نفسـه ـ عبد العزيز بن سـعود ـ حاكما لكل "الشـرق". وبعث برسائل بهذا المعنى إلى الباب العالى والبصرة وبغداد والحجاز ومكة(١٠)، وفى أواخر العام انسحبت أغلب القوات التركية من القصيم الأمر الذى اعتـبر نصرا حاسما لابن سعود(١١).

عودة الاتصالات مع بريطانيا :

وعلى امتداد عام ١٩٠٦، كان ابن سعود يجرى اتصالات غير مباشـرة عبر العديد من القنوات، مع الحكومة البريطانية، للتأكد مما إذا كـانت مستعدة لحمايته، بشكل أو بآخر، من جهة البحر، فى حالة طرده للأتراك من الإحساء ونجد، وعلى نفس النحـو الذى يحظـى بـه شيخ الكويت وغيره من الحكام العرب فى الخليج. وهنا أدرك المسئولون السياسيون البريطانيون فى المنطقة أنه إن كان المبدأ الذى تلتزم بـه حكومتهم هو "عدم التورط فى السياسات العاصفة لبلاد العرب"، إلا أنه من الخطأ الإبتعاد كلية عمـا يجرى، وأنـه من المفيد إلى أقصى حد، ومن كافة الأوجه ، التوصل إلى تفاهم مـع ابن سـعود، وأنه إذا كانت هناك أى نية "لإقامة أى نوع من الحوار الودى مع حـاكم نجد، فالوقت الراهن هو الفرصة السانحة لتحقيق ذلك(١٢)" ولكن وزير الهند اللورد مورلى، أعلن من جديد، أن الحكومـة البريطانيـة لا تـزال تـرى أن مصالحها ونفوذها ينبغى أن تقتصر على الساحل، وعدم اتخـاذ أى خطـوات لإقامـة أى علاقات مع نجد أو إرسال أى وكلاء إلى الداخل(١٣).

وفى أواخر عام ١٩٠٦ تقدم ابن سـعود باقتراحـات جديـدة عن طريـق شيخ الكويت وشيخ قطر، بإبرام اتفـاق سرى بينـه وبين الحكومـة البريطانيـة

يمنح بمقتضاه الحماية ضد أى هجوم تركى من جهة البحر فى حالة طرده للأتراك "من ممتلكات أسلافه"، وأنه يوافق مقابل ذلك، على الإرتباط بإتفاقية معينة (شبيهة بالإتفاقيات المبرمة مع شيوخ الساحل المهادن)، وعلى استقبال مسئول سياسى بريطانى فى بلاده، كما أبدى ابن سعود فى هذه المرحلة اصراره على بذل كل جهد للإستيلاء على الاحساء والقطيف، وعلى التحرر من النير العثمانى عندما تسنح الفرصة(١٤).

رد الفعل البريطانى :

فى شهر ... ١٩٠٧ أثارت حكومة الهند من جديد مسألة السياسة التى يتعين إنتهاجها إزاء ابن سعود، وكان من رأيها أنه إذا كان من المحتمل حقا أن يختفى الأتراك من الساحة وأن يصبح ابن سعود هو القوة المسيطرة "فمن الأفضل الوصول مع هذا الشيخ إلى تفاهم ودى عندما تسنح اللحظة المناسبة". ولكن الحكومة البريطانية ظلت على موقفها من محاولات ابن سعود وكان ردها هذه المرة هو أنه "مع تطلعها إلى إقامة علاقات ودية معه طالما تمشى مسلكه مع المصالح البريطانية، ومع التزاماتها تجاه شيوخ العرب على الساحل، إلا أنها لا ترى ما يستلزم تقديم أى وعود رسمية له بالحماية نظرا لما يمكن أن تثيره ذلك من معارضة من جانب الأتراك(١٥)" .

وكان السفير البريطانى فى (الآستانة) السير ن. أوكونور - يرى أن السياسة السليمة التى على الجانب البريطانى أن يلتزم بها هى "التدخل إلى أدنى درجة ممكنة فى الشئون الداخلية لهذه القبائل، وأن ندعها تقرر مصيرها بنفسها، انتظارا لما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث" . واقتنعت الحكومة البريطانية بهذا الرأى وأصدرت تعليماتها إلى حكومة الهند بعدم الإقدام على أى تغيير فى سياستها السابقة، بل وبلغ الحسم بموقف الحكومة البريطانية فى هذا الصدد، آنذاك أن جاء فى تعليماتها" وإذا كان من المحتم الرد على

تساؤلات ابن سعود، فيجب أن يكون الرد هو أن اقتراحاته تتضمن اعتبارات يتعذر على حكومة صاحب الجلالة أن تقبلها(١٦)" .

وفي الفترة من أكتوبر ١٩٠٧ حتى ١٩٠٨ تمكن ابن سعود من الإستيلاء على بريده، والقصيم حيث دارت مفاوضات بين ابن الرشيد وابن سعود تخلى فيها ابن الرشيد عن القصيم .

ويذكر القنصل البريطاني في دمشق في تقرير له مؤرخ في شهر سبتمبر ١٩٠٨أن "عبد العزيز بن سعود أصبح من الناحية العملية أمير نجد الذى لا ينازع، المعترف بحكمه في الرياض و القصيم، ومن جانب جميع القبائل البدوية في نجد، بل وها هو سعود ابن الرشيد نفسه يعترف بأن إمارته في حائل ليست إلا إقطاعية تخضع لسيادة ابن سعود"(١٧) .

التحول في الموقف البريطاني :

وكان عام ١٩١١، نقطة تحول في العلاقات بين بريطانيا وابن سعود، ففيه جرى أول لقاء ودارت أول محادثات بينهما، وإن كانت غير رسمية، بين ابن سعود وممثل بريطانيا، آنذاك، الكابتن شكسبير، بل كان أيضا أول أوروبي يلتقي به ابن سعود. وبعد أن رفع شكسبير تقريره إلى حكومته حول هذا اللقاء، كان ردها هو أنه من الأفضل التمسك بالسياسة القائمة ما لم تقترح حكومة الهند التخلي عنها(١٨).

وفي الفترة من ١٩١١ حتى ١٩١٣ دخلت الحكومة البريطانية في مفاوضات مع الحكومة العثمانية من أجل حل ما بين الطرفين من نزاع في منطقة الخليج وانتهت بتوقيع الإتفاقيتين بين الحكومتين البريطانية والعثمانية في يوليو ١٩١٣ومارس ١٩١٤ .

وقد التزمت الدولة العثمانية بمقتضى الإتفاقية الأولى بأن الحدود الشرقية لنجد تمتد فى خط مستقيم جنوبا من رأس الخليج فى مواجهة الزخنونية حتى خط عرض ٢٠ من الربع الخالى(١٩) .

مبررات ضم الاحساء والإستفادة من الموقف الدولى :

وفى شهر مايو ١٩١٣ التقى شكسبير بابن سعود للمرة الثانية وقضى فى صحبته أربعة أيام، وأعلن ابن سعود خلال اللقاء أن سلطته ازدادت فى وسط بلاد العرب إلى الدرجة التى لم يعد يشعر معها بالخوف من أن شيخ من شيوخها أو حكامها، بالإضافة إلى تحالفهم معه جميعا، بإستثناء حاكم واحد هو شريف مكة الذى تحالف مع العثمانين خوفا من الغزو الوهابى الثانى للحجاز. وتحدث ابن سعودعن خطر العدوان التركى الذى يهدده والذى لايمكن أن يأتى إلا من اتجاه الشرق عن طريق الإحساء، ومن اتجاه الغرب عن طريق مكة والمدينة ونظرا لعدم قدرة السعوديين على الصمود إذا جاءهم الهجوم من الجانبين معا، أبدى ابن سعود رغبته فى طرد الأتراك من الاحساء القطيف* حتى يتفرغ بحشد كل قوته للدفاع عن حدوده الغربية(٢٠).

وفى شهر ما يو ١٩١٣ استولى ابن سعود على الاحساء دون مقاومة، وهنا طرأ تحول جوهرى على موقف المسئولين البريطانيين فى الخليج، وأخذوا يميلون إلى التوصل إلى حل على أساس الإعتراف بابن سعود حاكما يتمتع بالإستقلال الذاتى فى نجد تحت سيادة الباب العالى، على أن يكون لها، لبريطانيا، الحق فى تعيين وكيل لديه مثل سائر شيوخ الساحل(٢١).

ورغم هذا التحول، رأت حكومة الهند أنه من المتعذر إثارة مسألة وضع نجد دون أن يكون ذلك مجازفة بإفشال المفاوضات الجارية مع الباب العالى. ودافعت وزارة الخارجية البريطانية على هذا الرأى، وعبرت عن إعتقادها بأنه من الأفضل الإنتظار لما تسفر عنه التطورات ، والتمسك لأطول

فترة ممكنة بالسياسة الراهنة التى تلتزم بالإبتعاد عن التدخل بشكل مباشر أو غير مباشر، فى شئون نجد(٢٢).

وكان الإتجاه العام للحكومة البريطانية، والذى يستند فى هذه القضية إلى اعتبارات نابعة من السياسة الأوربية، هو تدعيم سلطة الحكومة المركزية فى تركيا الأسيوية، وعدم الدخول فى أى اتفاقات مباشرة مع ابن سعود خشية أن يؤدى ذلك إلى إثارة شكوك الباب العالى(٢٣).

وفى ١٣ يونية ١٩١٣ وجه ابن سعود رسالة إلى السير بيرسى كوكس يخطره فيها بنبأ استيلائه على الاحساء ويطالبه بإبرام اتفاق ودى للتفاهم(٢٤).

وقد رد السير بيرسى كوكس عليه بأن الحكومة البريطانية ترى ضرورة الإلتزام بالحياد الكامل بين الجانبين السعودى والعثمانى .

وعندما أبدى بعض شيوخ الساحل المهادن، وفى قطر وعمان وغيرهم مخاوفهم من الخطر السعودى المحتمل على أراضيهم، وجدت الحكومة البريطانية نفسها أمام خيارين من أجل الوفاء بالتزاماتها: إما أن تتخذ من ابن سعود صديقا لها، أو أن تحوله إلى عدو. وحتى تقرر موقفها، فقد اقترحت الدخول معه فى حوار ودى من أجل تسوية الأوضاع(٢٥). ولكن ابن سعود طالب بتفسير أكثر وضوحا لموقف بريطانيا، وهنا صرح السير بيرسى كوكس فى ١٢ من سبتمبر ١٩١٣ بأنه من العسير إلى حد ما تقديم التفسيرات المطلوبة إلا بعد التعرف الكامل على ما يسعى إليه ابن سعود من أهداف، واقترح إجراء لقاء معه، فأعلن أن الحكومة البريطانية ستواصل علاقاتها الودية التى قامت معه واستمرت فى الماضى، بشرط أن يتعهد من جانبه بالإبتعاد عن كل ما يمكن اعتباره ماسا بالوضع القائم أو مثيرا للقلاقل والمتاعب مع الإمارات العربية التى يرتبط شيوخها بعلاقات مع الحكومة البريطانية، بما فى ذلك قطر التى اعترفت كل من بريطانيا والدولة العثمانية

بإستقلالها الذاتى(٢٦). وأمام هذا التطور الجديد أعلنت الحكومة العثمانية أنها ترى الإعتراف بالوضع القائم فى نجد بتعيين ابن سعود متصرفا(٢٧).

بــــداية الاتفاق :

وفى أواخر عام ١٩١٣ التقى نائب المقيم السياسى البريطانى بالخليج الكابتن شكسبير مع ابن سعود حيث أعاد ابن سعود فى اللقاء الحديث عن أملاكه التى ورثها عن أسلافه، ومطالبته بأن يحظى بمثل ما يحظى به شيوخ الساحل المهادن على الساحل من حماية، وألمح إلى ترحيبه بالتعاون مع الحكومة البريطانية فى مقاومة القرصنة وتهريب السلاح والمحافظة على الهدنة البحرية، وموافقته على عدم التدخل فى شئون قطر والساحل المهادن، وعلى إقامة رعايا بريطانيا ممثليها فى أراضيه، ولكن بشرط أن تقدم له الحكومة البريطانية الضمانات التى سبق له ذكرها. والواقع أن ابن سعود ذهب فى هذا اللقاء إلى ما هو أبعد من ذلك وقال إنه على استعداد لاستشارة الحكومة البريطانية فى كافة المسائل إذا حصل على هذه الضمانات .

كما أشار إلى أنه رغم مطالبته بالساحل المهادن وقطر كجزء من ممتلكاته المتوارثة، ورغم قدرته على إثبات وجوده فيها، إلا أنه على استعداد كامل لتقبل رغبات الحكومة البريطانية فى هذا الصدد .

وأشار إلى أن السبب الوحيد الذى منعه من الاستيلاء على قطر، وربما على الساحل المهادن أيضا، وبعد أن احتل الاحساء والقطيف هو رغبته فى المحافظة على تعاطف الحكومة البريطانية(٢٨) .

وكان من رأى المقيم السياسى فى ذلك الحين أنه من الأفضل فى حالة التوصل إلى اتفاق بين الحكومة البريطانية وابن سعود، أن تنحى جانبا مسألة العلاقات بينه وبين شيوخ قطر والساحل المهادن، ومسألة تعقب الاجئين الذين يهربون إليهم طلبا للحماية والمأوى، على أساس أن هذه المسائل تنبع من

وضع ابن سعود الخاص كشيخ عربى، ولا تعنى الأتراك فى شئ، كما انتهى المقيم إلى ضرورة تسوية الأمور مع ابن سعود بشرط عدم دخوله أراضى أولئك الشيوخ إلا بموافقة بريطانيا، وعلى أساس أن تستخدم بريطانيا نفوذها أيضا لكبح جماح اللاجئين الذين يتبين أن ملكهم فى الأماكن التى اختاروا الإقامة بها يلحق الضرر بالمصالح المشروعة لابن سعود(٢٩).

وفى هذه الأثناء كانت المحاولات تبذل فى لندن للمساعدة على التوصل إلى تفاهم بين الأتراك وابن سعود. وقد أعلن الجانب البريطانى للجانب التركى أنهم طلبوا من ابن سعود ألا يزج بنفسه فيما لا يعينه بالتدخل فى أراضى أو سياسة إمارات الخليج، بما فى ذلك الساحل المهادن وقطر، ولم يخف الجانب البريطانى هذه المساعى التى تبذل مع الإتراك على ابن سعود، بل أخطره بها، وحذره من الإقدام على أى تصرف منفرد(٣٠).

التفاهـــم مع تركيـــا :

وفى الثانى من شهر أبريل ١٩١٤ كان السفير البريطانى فى اسطنبول "الآستانة" يفضل ترقب الموقف وانتظار ما يسفر عنه من تطورات بعد أن صرحت الحكومة التركية بأنها تأمل التوصل إلى تسوية بنفسها.

وفى ١٥ مايو ١٩١٤ تم توقيع معاهدة بين ابن سعود والحكومة التركية بإعتبار ابن سعود من رعايا تركيا وتابعا لها(٣١).

أما بالنسبة للحكومة البريطانية فقد أبرمت إتفاقا جديدا مع الحكومة التركية فى ٩ مارس ١٩١٤ وتم التصديق عليه فى ٣٠ من يونية ١٩١٤ ينص على أن الخط الفاصل بين الدائرتين البريطانية والتركية يمتد جنوب غرب بلاد العرب(٣٢).

أخذت وزارة الخارجية البريطانية تلح على أهمية تجنب أى تصرف يمكن أن يثير أى ظلال من الشك بأن الحكومة البريطانية تساند سياسة

ابن سعود "الذى يسعى إلى الاستقلال" ، وتحدثت عنـه - فـى نفس الصـدد - بصفته من "رعايا تركيا" والواقع أن وزير الخاجية كان مقتنعا فى ذلك الحين بأن التعامل مع ابن سعود بغير هذه الصفة يتعارض مع التزامات بريطانيا .

حيث إن أنباء المعاهدة المبرمة بين ابـن سـعود وتركيـا لـم تنشـر بعـد، فلهذا كان يرى وزير الخارجية أن الاتصال المباشر والمنفرد به لا يمكـن أن يجرى إلاّ فى الحالات التى يمكن تجنبها(٣٣). وهكذا يتبين لنا على امتداد هـذا العرض لتسلسل الأحداث والتطورات منذ استيلاء ابـن سـعود علـى الريـاض حتى مشارف الحرب العالمية الأولى أن ابـن سـعود، وقـد بـرز علـى السـاحة للأسـرة السـعودية ووطـد أقدامـه فـى أقليـم نجـد بأكملـه والمنـاطق المجـاورة، وطـرد الأتـراك مـن الاحسـاء فـى عـام ١٩١٣، ولكـن لـم تسـفر محاولاتـه المتكررة للتفاهم مع الحكومة البريطانية خلال تلك الفترة (١٩٠٢ - ١٩١٣) من أجل الدخـول فـى حمايتهـا ضـد الأتـراك عن أى شـئ، وفـى شـهر مـايو ١٩١٤ وافق ابن سعود على أن يكون وضعه فى نجـد وضـع الـولاة الأتـراك وعلى أنه من رعايا الدولة العثمانية ومن موظفى الباب العالى .

ابن سعود وظروف الحرب العالميةالأولى - اتفاقية القطيف:

ولاحت نذر الحرب العالمية الولى، وكان من الواضح ضرورة ضمـان مساندة ابن سعود والحكام العرب فى الخليج أو منعهم على الأقـل مـن تقديـم أى مساعدة فعالة للأتراك فى حالة دخول تركيا الحـرب إلـى جـانب المعسكر المضاد. وهنا قررت الحكومة البريطانيةإبلاغ ابن سعود أنه، فى مقابل تعاونه فـى انـتزاع البصـرة مـن الأتـراك، فسـوف تكـون الحكومـة البريطانيـة علــى استعداد للاعتراف به حاكما مستقلا للاحساء وأن تبرم معه معاهدة، وأن تقـدم له الضمانات ضد أى هجوم من جهة البحر(٣٤).

وعندما اندلعت الحرب هب ابن سعود للقتال ضد غريمه من آل الرشيد، وتذرع بذلك حتى لا يستجيب لمطالبة الأتراك بالمساعدة العسكرية الفعالة ضد الحلفاء وأثبتت الأحداث أنه من المتعذر على الجانب البريطاني مواصلةالنقاش معه إذا أصرهذا الجانب على الإستناد إلى الأسس التي التزمت بها السياسة البريطانية إزاءه حتى ذلك الحين، إلى أن أشرف عام ١٩١٤ على نهايته، والتقى الكابتن شكسبير به لبحث الموقف، وأعلن ابن سعود أنه يقف كلية إلى جانب بريطانيا، وأنه سيبدأ قريبا مفارضاته التمهيدية حول العروض المقدمةإليه من الحكومةالبريطانية،وتحدث فيرسالةوجهها إلى المقيم السياسيبالخليج في٢٨نوفمبر ١٩١٤عن وعدبريطانيابالإعتراف باستقلاله،وكذلك "الاعتراف بإمارته التى تشمل جميع أجزاء نجد والاحساء القطيف(٣٥)" .

ولقد استمرت المفاوضات بين ابن سعود والكابتن شكسبير وكان جوهر موقف ابن سعود هو أنه : نظرا لخيبة أمله فى تدخل بريطانيا لصالحه فى أبريل ١٩١٤ فقد اضطر إلى التوصل إلى تفاهم مع الأتراك حتى ليتجنب أى عدوان عليه من جانبهم. أما الآن فهو يقترح بكل إلحاح بتطلعه إلى توقيع معاهدة توفر له الضمان الراسخ لوضعه تحت رعاية بريطانيا العظمى. وإذا لم توقع هذه المعاهدة فى القريب العاجل، فربما أجبرته الظروف على إبداء نوع من البوادر الصريحة بعزمه على الوقوف إلى جانب الأتراك .

وأما إذا تم توقيع المعاهدة – من ناحية أخرى – فسوف يقف إلى جانب الحكومة البريطانية بكل موارده ونفوذه. ولقد تقدم بإقتراح بمشروع للمعاهدة وخاصة الأجزاء المتعلقة بمسألة حدوده وامتناعه عن التدخل فى الكويت والبحرين وقطر ومشيخات الساحل المهادن، الذين تحت الحماية البريطانية حيث يطلب من الحكومة البريطانية :

أولا : أن تعترف وتقر بأن نجد والإحساء والقطيف والأراضى التى تحيطها والموانىء المرتبطة بها على سواحل الخليج هى له (من أملاكى) وهى من أراضى آبائه وأجداده، وإنه الحاكم المستقل لها، ولأبنائه ولأخلافهم من بعده بالوراثة، وأن الأراضى المذكورة أراضى مستقلة وليس لأية دولة أجنبية (حق) التدخل فيها.

ثانيا : أن الحكومة البريطانية سوف تعلن حدودها (حدود الأراضى) فى الشمال والجنوب والشرق والغرب فى البر والبحر، وأنه فيما يتعلق بالبدو الذين يتجولون بين المدن المجاورة والتى تقع إما تحت الحماية البريطانية أو تحت سلطة الحكومة البريطانية (بشكل مباشر) فإذا أثاروا أى خلافات بينه وبين شيوخ المدن المذكورة وقدمت شكاوى فى هذه المسائل،فيجب أن تحسم وفق الملكية أبائه وأجداده(٣٦).

ويشير الكابتن شكسبير فى رسالته التى قدم فيها مشروع المعاهدة "إلى أنها لا تضيف كثيرا إلى مسئولية الحكومة البريطانية ، وإلى الخطر التركى الذى يهدد نجد من الغرب والشمال لا ينبغى أن يزعج الحكومة البريطانية، رغم ما يمثله من مشكلة حقيقية بالنسبة لابن سعود، وإن كان من المرجح أن تدعى للتحكيم بين الشيوخ العرب فى مناسبات وحالات أكثر تعددا مما كانت عليه الحال، إلا أن أداء هذا الواجب يعود بمزايا جمة على مصالحنا(٣٧)" .

ولم ير السير بيرسى كوكس أن هناك أى صعوبات خاصة فيما يتعلق بالأجزاء المتعلقة بمسألة الحدود، ولكنه أشار بصدد الحماية ضد العدوان الخارجى عن طريق البر قائلا: "وبصرف النظر عن الأتراك فلا يمكن لأية دولة غيرنا أن تصل إلى وسط بلاد العرب عمليا، عن طريق البر، وأنى لأتجاسر فأقول إننا لا نقدم إلا على مخاطرة ضئيلة إذا وافقنا على التعهد المطلوب، ومع تحفظنا بألا يكون العدوان ردا على أعمال استفزازية(٣٨)" .

أما رأى حكومة الهند بهذا الصدد فقد أوضحت أن اقترحات ابن سعود تتضمن العديد من المسائل التفصيلية التى تتطلب بحثا مطولا، واقترحت أن يكون "هدفنا هو توقيع معاهدة حول الخطوط العامة للوضع الراهن، مع التعهد بتوقيع معاهدة تفصيلية حول النقاط الأخرى فى الوقت المناسب، واقترحت أن يكون النص الخاص بضمان الاستقلال على النحو الأتى : "تعترف الحكومة البريطانية بابن سعود حاكما مستقلا لنجد والاحساء والقطيف،وتضمن التعاقب الوراثى لأسرته.." ووافقت وزارة الخارجية البريطانية ولكنها رأت وفقا لإقتراح من حكومة الهند أنه لابد للمعاهدة الجديدة إلى جانب ذلك، أن تتضمن نصا يلتزم ابن سعود بمقتضاه بإحترام الحدود المعترف بها الآن بالفعل.. وعدم التدخل فى الكويت، البحرين وقطر ومشيخات الساحل المهادن(٣٩)" .

على هذا الأساس دارت المناقشات بين السير بيرسى كوكس وابن سعود فى أبريل ١٩١٥ فكان المشروع البريطانى والمشروع الذى تقدم به ابن سعود حول النقاط الجارى بحثها على النحو التالى :

المشروع البريطانى

المادة الأولى :

تعترف الحكومة البريطانية وتقر بأن نجد والاحساء والقطيف وأراضيها وموانيها على ساحل الخليج هى أراضى ابن سعود وآبائه من قبله، وتعترف بموجب هذه الوثيقة بابن سعود حاكما مستقلا من الآن وأبنائه من بعده .

المشروع السعودى

تعترف الحكومة البريطاني وتقر بأن نجد والاحساء والقطيف وجبيل وتوابعها وأراضيها والتى سيناقش وضعها ويتقرر فيما يلى ؛ وأراضيها وموانيها على سواحل الخليج هى بلاد ابن سعود وآبائه من قبله، وتعترف بمقتضى هذه الوثيقة بابن سعود حاكما مستقلا من الآن وشيخاً مطلقا لقبائلها، ثم أبنائه من بعده .

المادة الرابعة

يتعهد ابن سعود كما تعهد أبائه مـن قبلـه، بالإبتعـاد عن أى عـدوان أو تدخـل فـى أراضـى الكويـت، والبحرين وقطـر وسـاحل عمـان أو فى شئون القبائل الأخرى والشيوخ الآخرين الذين تحت حماية الحكومة البريطانية، والذين ستقرر حدودهم فيما بعد .

المادة الرابعة :

يتعهد ابن سعود كما تعهد أبائه مـن قبلـه، بالإبتعـاد عن أى عـدوان أو تدخل فى أراضى الكويت والبحرين وشيوخ قطر، وساحل عمـان الذيـن تحـت حمايـة الحكومـة البريطانيـة، ولهم علاقات تعاهـدية معها، والذيـن سـتقرر حـدود أراضيهـم فيمـا بعد(٤٠).

وطبقا لذلـك خولـت الحكومـة البريطانيـة السير يرسـى كوكـس سلطة التصرف فيما يتعلق بالصيغ البديلة التى يقترحها ابن سعود. وبعد المزيـد من المناقشات بين الطرفين، تم أخيرا توقيع معاهدة فى ٢٦ مـن ديسـمبر ١٩١٥، وتمت الموافقة علـى النـص السـعودى للبنـد الأول - علـى النحـو الـوارد فـى الفقرة السابقة واتضح أن السبب الذى دعـى الجـانب السـعودى إلـى الإصـرار على هذا النص هو أن جبيل كانت هى الموقع الذى تتلامس عنـده حـدود ابـن سعود على الساحل مع الحدود التى تطـالب بهـا الكويـت، ولهـذا السـبب أراد ابن سعود أن يرد ذكرها بشكل قاطع .

ولم يجد السـير بيرسـى كوكـس مـا يدعـوه للإعتراض نظـرا لوقوعهـا بالفعل خارج النطاق الذى وافقـت عليـه الحكومـة البريطانيـة بالنسـبة للكويـت أثناء مفاوضاتها مع الأتراك وبالنسبة للمادة الرابعة، تمت الموافقة على النـص السعودى مع تعديل طفيف، فأصبح صيغتها النهائية على النحو التالى: "يتعهـد ابن سـعود كما تعهد أباؤه من قبـلـه ، بالإبتعـاد عن أى عدوان أو تدخل فى

أراضى الكويت والبحرين، وشيوخ قطر وساحل عمان، الذين تحت حماية الحكومة البريطانية، ويرتبطون بعلاقات تعاهدية مع الحكومة المذكورة، وسوف تتقرر حدودهم وفقا لما يلى : .... "وتم حذف عبارة" "والقبائل والشيوخ الآخرين" الواردة فى المشروع البريطانى الأصلى، استجابة لقول ابن سعود بأن الشوخ الذين تحت الحماية البريطانية بالفعل ولهم علاقات معها، ورد ذكرهم فيما سبق، ومنن ثم فلا محل لإدراج هذه العبارة .

وبذلك وقع الطرفان الاتفاقية التى أطلق عليها اتفاقية القطيف التى بمقتضاها اعترفت بريطانيا بابن سعود حاكما مستقلا لنجد، وتعهدت بعدم التدخل فى مشيخات كل من الكويت والبحرين وقطر والسحل والمهادن(٤١).

وأصبح لابن سعود قوة ذات مركز قوى فى الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية، وغدت بريطانيا تحاور قوة وطنية فى المنطقة. ولقد علق الشيخ حافظ وهبه على هذه الإتفاقية" وفى هذه الإتفاقية تجلى قصر نظر مستشارى ابن سعود بما يجرى فى العالم والاستفادة من الغرض"، علما أن هذا الخطأ قد أصبح بمعاهدة جدة عام ١٩٢٧، حيث اعترف له بالإستقلال التام وبمخابرة الدول والاتفاق معها حسب ما تمليه مصلحة بلاده بعد أن كان محروما من هذا الحق، فى معاهدة القطيف(٤٢) .

ومن هذه الدراسة تتبين أن السياسة البريطانية لم يكن يعنيها من يحم قلب الجزيرة العربية بقدر ما كان يعنيها علاقات هذا الحاكم الطيبة معها. وأن يكون قادرا على تدعيم الأمن فى هذه المنطقة .

وعندما أصبح عبد العزيز آل سعود هو هذا الرجل زالت كل التحفظات السابقة التى دفعت بريطانيا إلى عدم الإعتداد به، وأصبح هو الشخصية التى فرضت نفسها على الجزيرة، ومن ثم أسرعت بريطانيا إلى لقائه وعقد اتفاقية

معه. أو بعبارة أخرى فإن السياسة البريطانية، كما هى فى كل مكان وزمـان، هى سياسة تسعى وراء المصلحة ولا مجال فيها لعواطف أو صدقات .

وتحقق هذا الموقف على ضـوء تغير الظـروف فـى الجزيـرة العربيـة، وبعد أن كانت متحفظـة فىعلاقاتهـا مـع عبـد العزيـز تراجعت ووقعت معـه اتفاقية القطيف.

ورغم ذلك فقد كان لابن سعود مـن وجهـة النظـر البريطانيـة حـدود لا ينبغى أن يتجاوزوها وأن يحكم قلب الجزيرة العربية، ويشدد قبضته عليها فهـذا أمر ترحب به بريطانيا، أما أن يتطلع إلى مشيخات الخليـج ويحـاول أن يضـع قدمه فيها عنوة أو سلما فهذا لم تكن تسمح به السياسة البريطانية .

ومن هذا العرض يتضح أيضا أن عبد العزيز آل سعود الذى بدأ إنشـاء الدولة السعودية الثالثة بالإستيلاء على الرياض، انتهى به الأمر أن أصبح من حكام منطقة الخليج بل ليس فى المبالغة فى شئ أن نقول: إنه أصبح أبرزهم.

ولا جدال فى أن الإستيلاء على الاحساء وهى الجناح الشـرقى لمملكتـه مستقبلا كانت هى الخطوة الحاسمة التى أفضت إلى هذا التطـور. لكن يجب القـول إن ظـروف الحـرب العالميـة الأولـى والتطلعـات البريطانيـة إلـى عبـد العزيز كحليف مأمون الجانب فرض الأمن والاستقرار فى قلـب الجزيـرة فـى منطقـة كثر علـى حـدوده الشـرقية أصدقـاء بريطانيـا مـن المشـايخ والأمـراء وكثرت فيها مصالحها الإستراتيجية آنذاك وبدايات مصالحها النفطية هى التـى لعبت دورها فى تغير الموقـف البريطـانى كمـا أن تطلعـات عبـد العزيـز إلـى زيـادة مسـاحة سـلطنته والتخلـص مـن شـر أعدائـه مـع وجـود حليـف قـوى كبريطانيا لعبت دوها أيضا فى الوصول بالعلاقـات البريطانيـة السـعودية إلـى معاهدة القطيف. ولم تتبدل هذه المعاهدة أو بمعنى آخر هذه العلاقـات إلا بعد ١٩٢٧ عندما أصبح عبد العزيز سـيد الحجـاز أيضـا. إلاّ أن معـاهدة القطيـف

كانت أساساً لعلاقات سعودية إيطالية استمرت فى التحسن والتعاون إلى وقتنا هذا، وكانت الحرب العالمية الثانية فرصة مواتية لإثبات عمق هذه العلاقات عندما التزمت السعودية بموقفها المؤيد للحلفاء ضد المحور .

الهــوامش

(1) Bidwell Affairs of Kuwit, 1906 - 1905, vol. 2. p. p. 97 .

(٢) راجع: عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم: حكومة الهند البريطانية والإدارة فى الخليج العربى (راسة وثائقية). ص ١٦٤ .

(٣) I. O. R: L / P/ 18/8437 برقية من نائب الملك فى الهند إلى المقيم البريطانى فى بوشهر ٢٠ من مايو ١٩٠٤م .

(*) وفى هذه الاثناء كان الوضع فى وسط بلاد العرب قد وصل إلى درجة بالغة الحرج نتيجة التدخل التركى فى الصراع بين ابن الرشيد وابن سعود طوال صيف وخريف ١٩٠٤ وفى شهر مايو من عام ١٩٠٤ أرسلت الحكومة التركية حملة من العراق التركى لتأييد ابن الرشيد فى منطقة القصيم بنجد، ولكن ابن سعود سحق قوات هذه الحملة تماما، هو وحلفاؤه. لم يكن بوسع الأتراك أن يصبروا على هذه الهزيمة التى سوف تقوض هيبتهم وسمعتهم فى أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها. لذلك أصدر السلطان عبد الحميد أوامره لوالى بغداد بإرسال حملة عسكرية إلى نجد للقضاء على قوة ابن سعود إلا أن فخرى باشا الوالى بالنيابة فى البصرة استخدم أسلوب المهادنة، فقد كتب إلى عبد الرحمن الفيصل والد ابن سعود فى أكتوبر من عام ١٩٠٤، يدعوه إلى تسوية الأوضاع فى القصيم فى اجتماع ودى، وقد رد عبد الرحمن الفيصل فى خطاب بعث به إلى مخلص باشا والى البصرة فى شهر نوفمبر، يقر فيه بولائه للسلطان ويطالب بعدم ارسال أية قوات لأن أهاليها لا يريدون أبن الرشيد، ولن أى محاولة لفرضه عليهم سوف تؤدى إلى اراقة الدماء وفى نفس الوقت وصلت برقية إلى القسطنطينية (الآستانة) من عبد الرحمن عن طريق البصرة يتقدم فيها بنفس الطلب .

وهناك رواية أخرى تقول: أن ابن سعود عندما شعر بالخطر، وأن مواصلته القتال أمر مستحيل بدأ يفكر فى طريقة التفاوض مع الأتراك، فأتصل سرا بصديقه الشيخ مبارك، وطلب منه أن يكون الوسيط بينه وبين الأتراك. وكان الشيخ مبارك طلب من المقيم السياسى المشورة حول ما يمكنه أن ينصح به ابن سعود الذى كان يتساءل عما إذا كان من المناسب أن يخطر الأتراك بما جرى أو أن الأفضل أن يمتنع عن اخطارهم: رد المقيم بأنه يجب على عبد العزيز أن يرى بنفسه ما فيه مصلحته وأن يتصرف وفقا لذلك. وأنه

نظراً لعدم وجود أى تعليمات من حكومته فليس فى مقدرة الوكيل السياسى أو الشيخ تقديم أى نصيحة له .

(٤) راجع فتوح الخترش: تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية، ص: ٧٤ .

(٥) I. O. r: L/p&sL18/8437. No. 3499/40 برقية من وزير الدولة فى الهند إلى نائب الملك. سبتمبر ١٩٠٤م. راجع: جمال زكريا : الخليج العربى (دراسة لتاريخ الأمارات العربية) ، ص:٣٠٢ .

(6) I. O. R. L/P&s/10/51, File 1855/1904, Part 9-10 Telegram from Ibn Soud's Father renewing assurances of submisson to Sultan .

(٧) I. O. R. L/P&s/18/B 437 من السفير البريطانى فى الأستانة إلى وزارة الخارجية ، ١٢ من يناير ١٩٠٥ ، وكذلك راجع :

Bedwell: the Affairs of Arabia 1905-1906, From: Mr. Townley to Marquess of Lonsdowne. No. 111, Confidential. Dated 20,February 1905 .

(٨) I. O. R. L/P&s/10/R/15/1/556: No. 97 من الوكيل السياسى فى الكويت الكابتن نوكس المقيم فى بوشهر السير بيرسى كوكس ١٩ من يناير ١٩٠٦م . وكذلك راجع الوثيقة :

I. O. R. L/P&S/10/R/15/63: No. 97 من السير بيرسى كوكس المقيم السياسى فى بوشهر إلى الكابتن نوكس الوكيل السياسى فى الكويت١٧ من يناير١٩٠٦م. وكذلك راجع:

Bidwell: Arabia Affairs : 1906. vol. 2. p37, from: Government of Inaia, To : Lord Morley. 11, January 1906.

(*) عاد ابن سعود إلى نجد وهو مشغول بقتال ابن الرشيد، وأنه سوف لن ينفذ خطته فى زيارته للساحل أو محاولة ضمه لمناطق نفوذه حتى يقضى على ابن الرشيد، ولذلك فقد أعلن عن سبب زيارته للساحل العمانى هو جمع الأموال اللازمة لتسيير أمور دولته .

(٩) L. O. R. L/P&S/18/B 437 رسالة من المقيم السياسى فى الخليج إلى شيوخ الساحل فى يناير ١٩٠٦م. وكذلك راجع : لوريمر: دليل الخليج، جـ ٣ ن ص: ١٧١٠.

(١٠) المرجع السابق .

(١١) مزيد من المعلومات راجع: أمين الريحانى: تاريخ نجد الحديث: ص: ١٥٨-١٦٠/ خير الدين الزركلى : شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز: ص ص : ٤٤-٤٥، حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين: ص: ٢٧٧ .

(١٢) L. O. R. L/P&S/18/ B 437 No. 2181 من المقيم السياسي في الخليج لسير بيرسي كوكس، إلى حكومة الهند ، في تاريخ ١٦ من سبتمبر ١٩٠٦ م .

(١٣) الوثيقة السابقة من وزير الدولة في الهند اللورد مورلي إلى المقيم السياسي في الخليج السير بيرسي كوكس في ٩ نوفمبر ١٩٠٦ .

(١٤) من المقيم البريطاني في البحرين L. O. R. L/P&S/1/b/b 164 No. 189 الكابتن بيردوكس إلى المقيم البريطاني في الخليج السير بيرسي كوكس في١٧من نوفمبر ١٩٠٦م.

(١٥) حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين ص: ٢١٥، وكذلك راجع عبد العزيز عبد الغني إبراهيم:السلام البريطاني في الخليج العربي،ص: ١٦٥،وكذلك راجع: L. O. R. : L/Pax/1/8/8 164. No. 2938/107. من السفير البريطاني السير أوكونور في الأستانة إلى وزارة الخارجية بلندن. أبريل ١٩٠٧ .

(١٦) تشير هذه الوثيقة إلى‌طلب L. O. R.: L/Pax/10/384. f: le 2182 (1907-1914) الأمير ابن سعود من الحكومة البريطانية لمساعدته من أي هجوم عثماني يأتيه من ناحية منطقة الشرقية من الجزيرة في حالة استرداده للاحساء، كما أنها - الوثيقة - توضح موقف السلطات البريطانية من هذا الطلب. وكذلك راجع :

I. O. R.: L/Pax/10/385. file: 2182, p. 2938/07 .

رسالة من السفير البريطاني السير اوكونور في الأستانة إلى وزارة الخارجية بلندن. في ٣ من مايو ١٩٠٧ م.

(١٧) L. O. R. : L/Pax.18/b 437 . No. 32, 48 من القنصل البريطاني في دمشق إلى السفير البريطاني في الأستانة في ٢٣ من سبتمبر ١٩٠٨م.

(١٨) L. O. R.: L/Pax/10/259, I. O. R.: L/Pax/18/b 251 دارت محادثات بين ابن سعود والوكيل السياسي البريطاني في الكويت الكابتن شكسبير من خلال رحلاته التي قام بها في منطقة حفر الباطن حيث اجتمع مع ابن سعود هناك .

(19) Goch and Temporly: British Documents on the Origins of the War (1898-1914). vol. X part II, london, 1938. وكذلك Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East. vol. I, (1535-1914). Doc. 178, p. 567 .

(*) هناك سبب آخر وأكثر أهمية يكمن وراء هذه الرغبة، هو أن احتلال المواقع الهامة بما فيها من موانئ وخاصة ميناء العقير، حيث يمثل ضرورة حيوية كمنفذ بحرى هام، بل كانت الاحساء هى ساحل نجد ونافذتها البحرية على الخليج العربى .

(٢٠) أمين الريحانى: تاريخ نجد الحديث، ص٢١٠، وكذلك: بنوميشان: ابن سعود ولادة مملكة : ص: ٢٥٨، حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين، ص:٢٥٢.

(٢١) L. O. R. : L/pas/10/384. File, 2, No. c. 10. من الوكيل السياسى فى الكويته الكابتن شكسبير، إلى المقيم السياسى فى الخليج فى ١٥ من مايو ١٩١٣م. وكذلك: L. O. R.: L/pas/18/B436 No. 866. p. 1921/13, من المقيم السياسى فى الخليج إلى حكومة الهند، فى ١٣مايو١٩١٣م. وكذلك راجع: أحمد العنانى: رحلات الكابتن وليم إيرفن شكسبير، جـ٢، ص: ٤٧٤ (من بحوث الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية) .

(22) I. O. R. : L/pax/18/B 437. p. 2286/13. From: Foreign office to the Under Secretary of State, Inaia office. India iffice. 6 June. 1913.

راجع : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : ص ١٦٥ .

(٢٣) الوثيقة السابقة، وكذلك I O. R. : L/pax/10/384 From: Sir p. Cox To sir Edward Grey, Bushire. 31 May, 1913.

(٢٤) جمال زكريا : ص : ٣٢٢-٣٢٣ .

(*) نص الرسالة التى أرسلها ابن سعود للسير بيرسى كوكس "لقد استولينا هذه الأيام على بلاد آبائنا وأجددنا ، الإحساء والقطيف، وكذلك على توابعها، وأود أن التزم إزاءكم بنفس الشروط التى كانت بينكم وبين أسلافى، كما أرجو أن يستمر ذلك بينكم وبين خلفائنا من بعد" .

(٢٥) من المقيم السياسى I. O. R. : L/P&S/18/B 437 . No. 2249p. 3441/13 البريطانى فى الخليج السير بيرسى كوكس: إلى حكومة الهند فى ٣ من يوليو ١٩١٠م.

(٢٦) أمين الريحانى : ص :٢١٢، وكذلك : كيلى: الحدود الشرقية للجزيرة العربية، ص : ١٢٥ .

(٢٧) I. O. R. : L/P&S/10/384. No. 338 رسالة من المقيم السياسى فى الخليج السير بيرسى كوكس، إلى الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل فى شهر فى ١١ سبتمبر ١٩١٣م .

(٢٨) محمد عرابى نخلة : تاريخ الإحساء السياسى ص ٢٣٤ .

(٢٩) I. O. R. : L/p/10/385 من المقيم السياسى فى البحرين الميجور تريفور إلى المقيم السياسى فى الخليج السير بيرسى كوكس، البحرين فى ١٢ من ديسمبر ١٩١٣م .

(٣٠) L. O. R.: L/P&S/18/ B 437 تقرير من المقيم السياسى البريطانى المستر لوريمر إلى حكومة الهند فى يناير ١٩١٤ م .

(31) I. O. R. : L/P&S/10/358, File 2182, No. 74,. From: The Political Resident in the Persian Gulf, To: The secretary of the Foreign and Political Department. Dated, 30th June 1914

(٣٢) كيلى : الحدود الشرقية : ص: ١٧٣ .

(٣٣)رمن وزارة الخارجية بلندن إلى حكومة الهند I. O. R.: L/P&S/18/B 437 فى ٤ يونيو ١٩١٤م .

(34) I. O. R. : L/P&S/18/B 437. r. 3683/14, p. 3848/14. British Offers to Ibn Saud in return for his Cooperatin against Turkey .

(٣٥) كيلى : ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٣٦) من المقيم السياسىَ فى الخليج إلى I. O. R.: L/p&s/ 18/B 437. p. 975/15 حكومة الهند فى ١٨ من يناير ١٩١٥م .

(٣٧) من المقيم السياسى الكابتن شكسبير I. O. R. : L/P&S/18/B 437 No. 5. 13. إلى لمقيم السياسى فى الخليج فى ٤ من يناير ١٩١٥م .

(٣٨) الوثيقة السابقة ، وكذلك L/P&S/18/B 437 من المقيم البريطانى فى الخليج إلى الحكومة الهند فى ٤ من يناير ١٩١٥ م .

(٣٩) مزيد من المعلومات حول المحادثات التى دارت بين الحكومة البريطانية وابن سعود بشأن اتفاقية القطيف ١٩١٥م، راجع الوثائق التالية :

1 - I. O. R. : L/P&S/10/No. 285 .
1 - I. O. R. : L/P&S/10/No. 188 .
1 - I. O. R. : L/P&S/10/No. 462-463. File 313/1914 (parts 1+2) .

(٤٠) راجع الوثائق السابقة (بخصوص تلك الاتفاقية) .

(٤١) راجع الوثائق السابقة (بخصوص تلك الاتفاقية). وكذلك :
I. O. R.: P&S/10/390. Treaty with Ibn Saud. 26 of December 1915.

(٤٢) حافظ وهبة: جزيرة العرب فى القرن العشرين: ص: ٢٧٧ .

المـراجـــــع

أولا : الكتب العربية :

١ - **أمين الريحانى :**

تاريخ نجد الحديث المؤسسة العربية - بيروت - ١٩٨٠ م.

٢ - **بنوا ميشان :**

عبد العزيز آل سعود. سيرة بطل ومولد مملكة. ترجمة عبد الفتاح ياسين دار الكاتب العربى. ١٩٦٥م .

٣ - **جمال زكريا قاسم :**

الخليج العربى، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٦٦ .

٤ - **حافظ وهبة :**

جزيرة العرب فى القرن العشرين. الطبعة الخامسة ١٩٦٧، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة .

٥ - **خالد حمود السعدون :**

العلاقات بين نجد والكويت. **الطبعة الأولى** ، الرياض. ١٩٨٣م. مطبوعات دارة الملك عبد العزيز .

٦ - **خير الدين الزركلى :**

شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز. الجزء **الأول**. الطبعة الثانية ١٩٧٧م. دار العلم للملايين - بيروت .

٧ - **عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم :**

حكومة الهند البريطانية والإدارة فى**الخليج العربى. دراسة وثائقية**. الناشر: دار المريخ . الرياض- المملكة العربية السعودية. **الطبعة الأولى ١٩٨١م.**

٨ - **فتوح عبد المحسن الخترش :**

تـاريخ العلاقـات السياسـية البريطانيـة الكويتيـة ١٩٨٠-١٩٢٠م. الطبعـة الأولى ١٩٧٤م. ذات السلاسل . الكويت .

٩ - **فـؤاد حمــــزة :**

قلب جزيرة العرب: الرياض ١٩٦٨م .

١٠ - **لـوريمــــر :**

دليل الخليج العربى . الجزء الثالث القسم التاريخى . طبع وترجمة الديوان الأميرى بقطر .

١١ - **كيلى . جى . جى :**

الحـدود الشـرقية لشـبه الجزيـرة العربيـة . تعريـب وتعليـق خـيرى حمـاد. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان ١٩٧١م .

١٢ - **محمد عرابى نخلة :**

تاريخ الإحساء السياسى . الطبعة الأولــى . الناشـر ذات السلاسـل الكويـت ١٩٨٠م .

ثانيا : البحوث العلمية :

١ - أبحاث الندوة العالمية الأولى الدراسات تاريخ الجزيرة العربية فى أبريـل ١٩٧٧م. كلية الآداب - جامعة الرياض .

ثالثا : الكتب الأجنبية المنشورة :

1 - H. C. Armstrong: The Desert King A Life of Ibn Saud. 1964 .

2 - Hurewitz. J. ; Diplomacy in the Near and Middle East. vol. 1, (1535 - 1914). U. S. A. 1956 .

3 - Goch and Temporley: Britsh Documents on the orgins of war. (1896-1914), London 1938 .

رابعــا : الوثائـق الانجليزيــة :

(١) الوثائق المنشورة :

1 - Bidwell, Robin :
The Affars of Kuwait 1896-1905. vol. 1 and 2, forigen office confidential print. London, 1971.

2 - The Affairs of Arabia 1905-1906. vol. 1 and vol,2. foreign offic confidential print. London. 1971 .

(٢) وثائق غير منشورة :

سجلات حكومة الهند :

1 - India office Records : (I. O. R.) .

1. L/P&S/18/8437 .
2 . L/P&S/18/251 .
3 . L/P&S/18/281 .
4 . L/P&S/18/463 .
5 . L/P&S/10/51 .
6 . L/P&S/10/385, 384, 390 .
7 . L/P&S/10/259 .
8 . L/P&S/10/R/15/1/556 .
9 . L/P&S/10/R/15/1/163 .

المهدية حاضرة الفاطميين الأولى

ببلاد المغرب

(٣٠٠هـ - ٩١٢م/٣٣٦هـ - ٩٤٧-٩٤٨م)

د. عبد الحميد حسين محمود حمودة

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم

تمهيـــد :

فطن الشيعة إلى أهمية بلاد المغرب، فأرسلوا دعاتهم إليها فى نهاية القرن الثانى الهجرى، وكان أنشطهم [الداعية أبو عبد الله الشيعى(١)] إذ تحمل عبء نشر المذهب الشيعى وتمكن من التغلب على دويلات المغرب المستقلةعن الخلافة العباسية وهم بنو مدرار فى سجلماسة(٢) (١٤٠-٢٩٧هـ)

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن محمد بن زكريا المعروف بالمحتسب، التقى مع محمد بن الحبيب فى مدينة سلمية فأرسله إلى ابن حوشب باليمن ليأخذ عنه أفكار الدعوة الفاطمية ثم يرحل فيما بعد إلى بلاد المغرب، وينزل على قبيلة كتامة فرحل أبو عبد الله إلى مكة مع حاج اليمن، انظر: ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الرابع، دار الفكر، بيروت، ص٣١-٣٢

والتزم أبو عبد الله بتنفيذ ما أمره به ابن الحبيب حيث رحل الأول إلى مكة لتأدية فريضة الحج، والتقى مع وفد من قبيلة كتامة ثم رحل معهم إلى بلادهم. ابن عذارى: البيان المغرب، الجزء الأول، تحقيق كولان وبروفنسال، ليدن ١٩٤٨م ص١٢٤.

(٢) كانت سجلماسة فىمستهل الأمرعندما نزلهاسمعون بن واسول مجمع للخوارج الصفرية فضربوا فيها خيامهم، وأخذ المنزل البدوى تتطورمع تطورالأحداث، فبعد انتخاب عيسىبن يزيد إماماً شرعوا فىالبناء - لمزيد من التفاصيل انظر: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، الجزء الثانى، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٧٩م، ص٤١١.

والرستميون(٣) فى تاهرت (١٦١-٢٩٦هـ والأدارسة)(٤) فى المغرب الأقصى (١٧٢-٣٠٥هـ) والأغالبة(٥) فى تونس (١٨٤-٢٩٦هـ).

وعندما تولى الخليفة عبيد الله المهدى(٦) مقاليد الأمور، كان فى موقف لايحسد عليه حيث تخلت قبيلة كتامة عن تأييدها للفاطميين، وأعلنت العصيان، وبالأضافة إلى تصدى فقهاء السنة بالقيروان لتلك الدعوة الجديدة وما تضمنه من أفكار تخالف مذهبهم.

---

(٣) مؤسس أسر الرستميين هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسى قدم أبوه من العراق إلىمكة، وبصحبته زوجته وابنه عبد الرحمن لأداء فريضةالحج فمات فتزوجت امرأته برجل من أهل القيروان حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته إلى بلده ، ونزل عبد الرحمن بن رستم فى القيروان وأخذ العلم عن قضائها ومال إلى تعلم الخوارج.

سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ٢، ص٢٨٩.

(٤) تنسب دولة الأدارسة إلى إدريس بن عبد الله الذى فر إلى المغرب الأقصى عقب موقعة فخ فى سنة ١٦٩هـ، على بعد ثلاثة أميال من مكة، حيث تمكن القائد محمد بن سليمان من قبل الخليفة العباسى الهادى (١٦٩-١٧٠هـ) من إخماد ثورة العلويين آنذاك. لمزيد من التفاصيل انظر: المسعودى: مروج الذهب، الجزء الثالث، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت د.ت، ص٣٣٦.

- ابن الأثير: الكامل فىالتاريخ، الجزء الخامس، دارالفكر، بيروت، د.ت، ص٧٠.

- ابن ابى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط ١٩٧٧م ص١٦.

(٥) تنسب دولة الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب الذى كان واليا على اقليم الزاب من قبل والىالمغرب العباسى محمد بن مقاتل العكى.

ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص١٩٥.

(٦) عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر محمد بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم، ولد بسلمية فى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣-٨٧٤م .

ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق عبد الحليم عويس وآخرين دار العلوم، الرياض د.ت، ص٣٥.

وفى مستهل الأمر أقام عبيد الله المهدى بمدينة رقادة(٧)، ثم لم يلبث أن شرع فى تأسيس مدينة المهدية فى سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م أولى حواضر الفاطميين ببلاد المغرب لتكون حصنا يأوى هو وبنو جلدته إليه عندما يشعر بالخطر، وهو ماحدث بالفعل أثناء ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد(٨).

واستمرت المهدية تؤدى دورها المنوط بها حتى سنة ٣٣٦هـ حيث لعبت دوراً هاما فى حياة الفاطميين فى كافة النواحى السياسية والدينية

- وتلقى تعليم الدعوة عن والدة ثم واجه عدة محن شديدة، وعلم بذلك سائر الدعاه فى أفريقية واليمن وأرسل إليه أبو عبد الله رجال من كتامة لاستقباله.

ابن الأثير: الكامل، جـ٦ ص١٢٩. ابن خلدون: العبر، جـ٤ ص٣٤.

(٧) أسس ابراهيم بن احمد الأغلبى، مدينة رقادة فى سنة ٢٦١هـ/٨٧٤-٨٧٥م وهى تبعد عن القيروان أربعة أميال، وعمرها بالأسواق والحمامات والفنادق..

- البكرى: المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد ١٨٥٧م، ص٢٧.

- ياقوت: معجم البلدان، الجزء الثالث، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م، ص٥٥.

- مجهول الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية رقم ١٩٥٨م ص١١٦.

(٨) أبو يزيد مخلد بن كيداد النكارى من قبيلة زناتة القاطنة بمدينة توزر اشتغل والده بالتجارة فى بلاد السودان ثم رحل إلى تاهرت وسكن بها، وعمل أبو يزيد كتاب لتعلم الصبيان فالتفت حوله اتباع يعظمونه لدرجة أنه فى سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م سبب متاعب كثيرة للدولة الفاطمية وفتح عدة مدن فى عهد القائم مثل مجانة ونفسه ورقادة والقيروان ولم تخمد جذوة ثورته إلا فى عهد المنصور فى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ـ لمزيد من التفاصيل انظر.

- ابن الأثير الكامل ، جـ٦ ص٣٠٢-٣٠٩.

- المقريزى : اتعاظ الحنفا، الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربى القاهرة، ١٩٤٧م ص١٠٩-١٢٤.

والاقتصادية والاجتماعية، ثم لم تلبث أن فقدت مكانتها، عندما أمتدت إليها يد الإهمال وفقدت أهميتها بانتقال الثقل السياسى والإدارى إلىمدينة صبره والتى عرفت فيما بعد باسم المنصورية التى أسسها المنصور بالله فى سنة٣٣٦هـ/ ٩٤٧-٩٤٨م وسوف يلقى هذا البحث الضوء على دراسة خطط مدينة المهدية فى تلك الفترة.

(أ) موقع المهـــدية(٩) :

حين أراد عبيد الله المهدى أن يؤسس حاضرة لدولته جريا على عادة الدول الإسلامية فى العصور الوسطى، فخرج سنة ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م يرتاد موضعا على الشريط الساحلى فى منطقة تونس وقرطاجنة(١٠) فوقع إختياره على منطقة جزيرة الخلفاء(١١) ، التى يطلق عليها ابن حماد(١٢)

---

(٩) عرفت مدينة المهدية بالبيضاء .. انظر:

النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوى، تونس ١٩٧٥م ص٣٢٧ شيدت المهدية على أنقاض قرية جمة القديمة.

الحميرى: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعةالثانية، بيروت ١٩٨٤م ص١٧٢

(١٠) البكرى : المغرب ، ص٣٠، ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١، ص١٦٩.

قرطاجنة من أقدم المدن الأفريقية، تقع على ساحل البحر المتوسط وتبعد عن تونس اثنا عشر ميلا انظر: ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ص٣٢٣.

(١١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥ ، ص٢٣.

حسن ابراهيم حسن وأخرين: عبيدالله المهدى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٧م ص٢٠٥.

سليمان مصطفى زبيس: آثار المغرب العربى،الطبعةالأولى تونس١٩٥٨م، ص٤٠.

- Cress well: The Muslim Architecture of Egypt oxford p.2

(١٢) أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، ص٤١.

ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠-١٢٣١م جزيرة القار.

وتقع المهدية على ساحل البحر المتوسط(١٣)، حيث يحيط البحر بها من كافة الجوانب فيما عدا الجانب الغربى(١٤)، وهى داخلة فيه كهيئة "كف على زند"(١٥) ويحد المهدية من الشرق سوسة وتبعد عن القيروان ستين

(١٣) الأصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحينى، القاهرة ١٩٦١م ص٣٣.

المقدسى : أحسن التقاسيم، نشر دى خوريه، ليدن ١٩٦٧م، ص٢٢٦.

الادريسى : نزهة المشتاق، الجزء الأول، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، ص٢٨١.

ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٠، الحميرى : الروض المعطار، ص٥٦١.

السراج : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، الجزء الأول، القسم الرابع، تحقيق محمد الحبيب الهيله، تونس ١٩٧٠م ص٨٩٧.

Dark Hill: Isiamic Architecture in North Africa London. p.102.

(١٤) البكرى : المغرب ، ص٢٩.

السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثانى، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٠٤.

(١٥) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٠.

القزوينى : اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت،ص٢٧٦.

أبو الفداء : تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م ، ص١٤٥.

الدمشقى : نخبة الدهر، بطرسبرج ١٨٦٥م، ص٢٣٤-٢٣٥.

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الرابع، بيروت ١٩٧٩م ص٥٢٤.

المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٠١.

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الرابعة، النهضة المصرية القاهرة ١٩٨١م، ص٥٢٤.

عبدالمنعم ماجد: ظهورخلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ،الاسكندرية١٩٦٨م ص٩٦

Gautter: Ies siecles obas cours du maghreb paris 1927. p.321.

Marcais: Art. Almah diya. The Encyclop aecdia of Islam, III, p. 121.

ميلا(١٦) (مسيرة يومين)، وعن تونس مائتين كيلومتر(١٧).

وكان هذا الموقع محط إعجاب جغرافى العرب، لما يتميز به من حصانة(١٨) (شكل رقم ١).

(ب) أسباب اختيار مدينة المهدية :

من الجدير بالذكر أن عبيد الله المهدى لم يحبذ فكرة الإقامة فى رقادة أو القيروان إذا كانتا لاتصلحان فى رأيه لتحقيق أغراضه السياسية والحربية والدينية. فالمدينتان كانت تزخران بالسنين من أنصار الأغالبة المعاديين للفاطمين الشيعة(١٩).

كما أن موقع رقادة لايصلح - من ناحية أخرى - لأتخاذها حاضـ ـة فهى

---

(١٦) البكرى : المغرب ، ص٢٩.

مجهول الاستبصار فى عجائب الأمصار تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية ١٩٥٨م ص١١٧.

ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص٢٠٧. الحميرى: الروض المعطار، ص٥٦١.

صابر محمد دياب: ساسية الدولة الإسلامية، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٣م ص٩٥.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ المغرب والأندلس، مطبعة نهضة الشرق - جامعة القاهرة، ص١٧٩.

(17) Lezine : Mahdiya, Recherc hes D'archealagie Islamique Klimcksieck 1965 p.13.

(١٨) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٣٣.

ابن حوقل: صورة الأرض ، بيروت ١٩٧٩م، ص٧١ .

Lezine : Mahdiya, p.19.

(١٩) حسن إبراهيم وأخرين: عبد الله المهدى، ص٢٠٤ - ٢٠٥.

تقع فى سهل فسيح جعلها عرضة للغزو من كل جانب(٢٠)، وهذا ما ينطبق على القيروان التى ضاعت واستردت أكثر من مرة(٢١).

---

(٢٠) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٦٠٤-٦٠٥ .

سنوسى يوسف إبراهيم : زناته والخلافة الفاطمية، الطبعة الأولى، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٧٣ .

Julien : History of North Africa. Translated by Johm petrie New york p.57.

(٢١) حسن أحمد محمود: تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الثقافة، القاهرة ١٩٩٠م ص٢٦٩ .

سقطت القيروان أول مرة منذ تأسيسها سنة ٥٠هـ/٦٧٠م عندما هزم الجيش الإسلامى فى معركة تهوده سنة ٦٤هـ/٦٨٣-٦٨٤م على يد كسيلة زعيم البربر الذى زحف إلى القيروان واستولى عليها. انظر:

ابن الرقيق: تاريخ افريقيا والمغرب، تحقيق المنجى الكعبى، تونس١٩٦٧م. ص٤٦.

ابن الأثير : الكامل، جـ٣، ص٣٠٩. ابن عذارى: البيان، جـ١ ص٢٩-٣١.

أما المرة الثانية كانت فى عصر الولاة حيث عانت القيروان من ضربات الثوار المتتالية وفى سنة ١٨٣هـ/٧٩٩-٨٠٠م زحف تمام بن تميم التميمى إلى القيروان وحاصر محمد بن مقاتل العكى الوالى العباسى الذى هرب إلى طرابلس.

والتفسير الوحيد لهذه الحادثة هو ضياع هيبة وسطوة الخلافة حتى تمكن ابراهيم ابن الأغلب والى اقليم الزاب من التغلب على الثوار وأعاد محمد بن مقاتل إلى القيروان انظر: ابن الرقيق : تاريخ افريقيا والمغرب، ص٢٠٣-٢٠٦، ابن الأثير: الكامل، جـ٥ ص١٠٣-١٠٤.

النويرى : نهاية الأرب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣م، ص٩٦-٩٧ .

- ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص١٦٥ .

والمرة الثالثة التى سقطت فيها القيروان عندما فرض أبو عبد الله الشيعى الحصار عليها فهرب زيادة الله أخر أمراء الأغالبة إلى الشرق.

وينبغى أن نشير إلــى حقيقـة هامـة مؤداهـا أن اختيـار عبيـد اللـه موقـع المهدية ـ لإقامة حاضرته الجديدة ـ قـائم علـى فهـم صـادق لأحـوال المغـرب واتجاهاته، وإحساسه بالتيارات الدفينة؛ فقد كان يعلم أن دولته أقامهـا الـبرانس من البربر، وأن البتر أعداءهم التقليد بين لن يخلدوا إلى السكينة بل سـيرفعون لواء المعارضة(٢٢).

وكان هدف عبيد الله من تشييد المهدية تدعيم الوجود الفاطمى بالمغرب لتكون ملاذاً وملجأ له ولأهل بيته يعتصمون فيه من ثائرة البربر(٢٣).

ويحدثنا البكرى(٢٤) ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م عن سبب بنـاء المهديـة بقولـه "كان سبب بنيان عبيد الله للمهدية قيام أبى عبيد الله وجماعة من كتامـة عليـه وما حاولوه من خلعه".

وقد صدقت ظنون عبيد الله المهدى، وتحققت مخاوفـه، فقـد ثـار علـى الدولة الفاطمية ابن كيداد فـى سـنة ٣٣٥هـ/٧٩٤٦م وهـدد كيـانهم بحصـاره للمهدية، ولم يستطيع أن ينال منها شيئا لمناعتها وتحصينها(٢٥).

---

(٢٢) حسن أحمد محمود: تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٠٧ .

(٢٣) صابر محمد دياب: سياسةالدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط،ص٩٨.
Marcais : L'Art de L'Islam Paris 1946 p.68.

(٢٤) المغرب ، ص٣٠ . Lezime : op cit p. 13 .

(٢٥) حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٧٠.

أثناء تشييد المهدية رمى عبيد الله سهم من الباب إلـى موضـع المصلـى وقـال إلـى هاهنا يبلغ صاحب الحمار يعنى أبا يزيد مخلد بن كيداد وذكر ابن النعمان: افتتاح الدعـوة، ص٣٢٨ أن المهدى قال "هذه كله عدة لساعة واحدة من نهار" أما ابن حماد: أخبـار ملـوك بنـى عبيـد، ص٤٢-٤٣ يذكـر عبـد المهدى بقولـه "أنـا بنيتهـا لصيانـة الـف رياضـة فيهـا ولوساعة من نهار يعنى ساعة وصول أبى يزيد لخلع بن كيداد إلى المصلى". -

كما كان هدف عبيد الله المهدى من اختيار ه لموقع المهدية الساحلى، أن تتوجه دولته وجهة بحرية بالانفتاح على العالم الخارجى فيما وراء البحر سواء من حيث العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية أو من حيث العلاقة الحربية حيث تصبح الدولة الفاطمية دولة جهادية بناء على اعتبار السواحل مناطق ثغور أى جبهات قتال يمكن أن يطرقها العدو البحرى ممثلا فى الأسطول البيزنطى(٢٦).

ومن دواعى بناء المهدية ـ أيضا ـ أن تصبح مركزا للدعوة الإسماعيلية فى مواجهة القيروان التى كانت ولاتزال كعبة السنة وقلعة المالكية(٢٧).

ويقول الداعى إدريس بن عماد الدين فى هذا الصدد أن المهدى انتقل بعد بنائها وجعلها دارهجرة، وقد ظلت المهدية كعبةالإسماعيلية يحجون إليها(٢٨).

(جـ) تسمية المهدية :

ورد ذكر اسم المهدية فى المصادر العربية نسبة إلى عبيد الله المهدى(٢٩) ولكن الدكتور حسن إبراهيم حسن يرفض ذلك ويذكر ان تسمية

- بينما يذكر ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام، القسم الثالث ص٤٧ على لسان المهدى "وإنما بينتها لصيانة ألفا طميات ساعة من نهار فكان كذلك!".

(٢٦) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ٣، ص٩٤.

(٢٧) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٣٢٦.

(٢٨) حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٧٢.

(٢٩) البكرى : المغرب ، ص٢٩. ياقوت : المعجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٠.

ابن عذرى : البيان المغرب، جـ١، ص٢٠٧.

القلقشندى : قلائد الجمان، تحقيق إبراهيم الإبيارى، الطبعة الأولى دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٦٤.

الزهرى: الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافةالدينيةالقاهرة، ص١١١.

Julien : op cit p. 57.

المهدية لم يقصد بها الانتساب إلى عبيد الله المهدى وحده بل إنها مدينة الأئمة المهتدين من الخلفاء الفاطميين، لأن كلا من هؤلاء الخلفاء إمام مهدى عند الإسماعيلية، وقد رأيناهم يضعون الأحاديث على أن المهدى سليل اثنى عشر إماما مهديا من الأئمة الخلفاء الفاطميين.

وهكذا ظلت المهدية كعبة الإسماعيلية التى يحجون إليها عندما كان بها الإمام الإسماعيلى، فلما هجرها إلى غيرها لم تعد لها تلك المكانة الروحية فى نفوس الأتباع وحلت محلها مدينة صبره التى عرفت باسم المنصورية نسبة إلى مؤسسها الخليفة المنصور بالله(٣٠).

(د) تاريخ بناء المهـدية :

اختلف المؤرخون فىالسنة التى وضع فيها عبيد الله المهدى أساس مدينته فيرى البكرى(٣١) (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أن البناء قد تم فى سنة٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م، ويتفق معه فى هذا الرأى كل من ياقوت الحموى(٣٢) (ت ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) وابن عذارى(٣٣) المتوفى فى نهاية القرن السابع الهجرى.

أما ابن الأثير(٣٤) (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) فيرى أن البناء بدأ فى سنة ٣٠٣هـ/٩١٢م ويؤيده ابن الأبار(٣٥) (ت٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

---

(٣٠) حسن إبراهيم وأخرين : عبيد الله المهدى، ص٢٠٨.

(٣١) المغرب ، ص٣٠.

(٣٢) معجم البلدان ، جـ٥، ص٢٣٠.

(٣٣) البيان المغرب ، جـ١، ص١٦٩ Marcais: op cit p.121

عادلة محمد الحمد : قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، رسالة ماجستير غير منشورة. كلية الأداب - جامعة الكويت ١٩٧٦م، ص١٥٣.

(٣٤) الكامل، جـ٦، ص١٥١.

(٣٥) الحلة السيراء، جـ١، ص١٩٢.

وأبو الفداء[٣٦] (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) والقلقشندى[٣٧] (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) والمقريزى[٣٨] (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

ولكننى أرجح أن رواية البكرى[٣٩] "كان ابتداءه بالنظر فيها سنة ثلاث ماية، وكمل سورها سنة خمس، وانتقل إليها سنة ثمان" هى الأقرب إلى الصواب والدقة لكونها أقدمهم ولكنها توضح التسلسل الزمنى الذى استغرقته عملية البناء والتشييد بدءاً من الشروع فى البناء، ثم استكمال السور، وهى مدة زمنية كافية لاستكمال مرافق المدينة .

انتقل عبيد الله المهدى للاستقرار فى حاضرته الجديدة فى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢١ - ٩٢٢م عندما انتهى من بناء القصور وسور المدينة، وبعض مساكن حاشيته.

ويبدو أن عبيد الله المهدى كان يفضل الرحيل إلى المهدية بعد استكمال مرافقها كافة ولكنه اضطر إلى سرعة الانتقال بسبب الأمطار الغزيرة التى سقطت على مدينة رقادة والقيروان وعلى أثرها تهدمت المبانى، وامتدحه شعراء افريقية فى تلك المناسبة[٤٠] نذكر منه :

بهنك أيها الملك السهام .. قدوم فيه للدهر ابتسام
حططت الرحيل فى بلد كريم .. رعته بك الملائكة الكرام

---

(٣٦) تقويم البلدان، ص١٤٥.
(٣٧) صبح الأعشى، جـ٥، ص١٠١.
(٣٨) اتعاظ الحنفا ، جـ١، ص١٠١.
(٣٩) المغرب ، ص٣٠.
(٤٠) ابن عذارى : البيان ، جـ١، ص١٨٤ .
Marcais : op cit p. 121.

وعندما اكتمل بناء المهدية عبر عبيد الله المهدى عن غبطته بقوله "اليوم آمنت على الفاطميات، يعنى بناته"(٤١).

(هـ) مساحة المهدية :

يبلغ طول شبه الجزيرة الذى تقوم عليه المهدية ١٥٠٠ مترا. وعرضها ٥٠٠ متر(٤٢) بينما ذكر Creswell إن طول شبه الجزيرة حوالى ميل واحد (حوالى ١٥٨٠ مترا) والعرض ٤٠٠متر(٤٣).

ولم تشر المصادر التاريخية إلى مساحة المهدية ولانجد إلا إشارة البكرى(٤٤) التى تذكر أنه "عندما شرع المهدى فى وضع حجر الأساس

---

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢٣١.

ابن الأثير: الكامل ، جـ٦ ص١٥١. القزوينى : اثار البلاد ، ص٢٧٦.

أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص٦٨. ابن خلدون: العبر ، جـ٤ ، ص٣٨.

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١، ص١٠٢. Gautier : op cit p.321.

(٤٢) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر ١٩٩٠م ، ص٤٨١.

(43) Creswell : op cit. p.2.

Morcais: Al. Mahdiya Artile in the Encyclopeadia of Islame Tome 111 p.121.

أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى، محاضرات مقررة على طلاب كلية الاثار جامعة القاهرة ، ص٣ .

(٤٤) "وعرض المدخل إلى المهدية من القبلة إلى الجوف قدر غلوة وردم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله فى المهدية واتسع الموضوع البكرى: المغرب ، ص٣٠ .

التجانى : رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، ص٣٢٣.

حسن حسنى عبد الوهاب: تاريخ تونس، الطبعة الرابعة، تونس ١٩٦٨م ص٩٧.

رابح نوبار : المغرب العربى ، الطبعة الثانية، الجزائر ١٩٨١م ص١٨٦.

للمهدية كان عرض المدخل من القبلة إلى الجوف مقدار غلوة" تساوى ٤٠٠ ذراعا أو ٤ر١٨٤ متر(٤٥) وهذه المساحة تمثل منتصف العرض، وعندما نضيف الجزء الآخر يبلغ طول العرض ٨٠٠ ذراعا أو ٦ر٣٦٩ متر.

ولكن عبيد الله وجد أن هذه المساحة لاتكفى لبناء كافة مرافق المهدية، فردم من البحر مقدار غلوة(٤٦) وبالتالى يصبح عرض المهدية ١٢٠٠ ذراعا أو ٥٥٤ متر.

أولا : التطور العمرانى لمدينة المهدية :

١ - السور :

أحاط عبيد الله المهدى حاضرته الجديدة بسور متين، مبنى من الحجارة، طوله نحو ميلين(٤٧)، وعرضه يسع فارسين يمشيان عليه(٤٨)، وهو أمر مألوف فى أسوار المدن الإسلامية، كما هو الحال فى أسوار مدينة بغداد، وأسوار القاهرة التى أسسها جوهر الصقلى، وهو تخطيط إنشائى مرتبط بوسائل الدفاع فى العصور الوسطى(٤٩).

ويذكر ابن خلدون(٥٠) أنه عندما ارتفع السور رمى عبيد الله المهدى

---

(٤٥) صبحى الصالح : النظم الإسلامية، الطبعة الرابعة، دار العلم. بيروت ١٩٧٨م ص٤١٦ - ٤١٧.

(٤٦) البكرى : المغرب ، ص٣٠ .

(٤٧) البكرى: المغرب، ص٢٩ وقارن الأدريسى: نزهة المشتاق، جـ١، ص٢٨٢.

(٤٨) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٠. Creswell: op cit p.57.

(٤٩) أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى ، ص٣.

(٥٠) العبر ، جـ٤ ، ص٣٨.

من فوقه بسهم إلى الناحية الغربية ونظر إلى منتهاه وقال إلى هذا الموضع يصل أبو يزيد.

وفرغ عبيد الله المهدى من بناء السور سنة ٣٠٥هـ/٩١٧-٩١٨م(٥١)، بينما يرى ابن عذارى(٥٢) أن السور انتهى من بنائه سنة٣٠٤هـ/٩١٦-٩١٧م.

وقد بنى السور بأحجار "التلات" أى الدستور الصغير وهى أحجار تشبه تلك التى بنيت بها بعض العمائر الفاطمية فى القاهرة(٥٣).

وكان السور مزودا بقلاع وفتحات يطلق منها النار لتعزير الجند(٥٤) وستة عشر برجا(٥٥) للمراقبة، ثمانية فى السور الأول وثمانية فى الزيادة التى أضيفت من البحر، وكانت هذه الأبراج تعرف بمسميات مختلفة كبرج أبى الوزان وبرج عيسى وبرج الدهان(٥٦).

وفى العصور الوسطى استخدمت الأبراج فى عدة أغرض فكانت قعلة صغيرة للدفاع عن البلاد، وكان يوجد بها مسجداً لإقامة الشعائر الدينية

---

(٥١) البكرى : المغرب ، ص٢٩ .Creswell: op cit p.2

(٥٢) البيان المغرب، جـ١، ص١٧٤.

(٥٣) أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى ، ص٤.

(54) Derk Hill : op cit p.102.

(٥٥) تطلق كلمة برج على البناء المنعزل المقام على هيئة تحصينات، كما تعنى أيضا الحصن أو القلعة انظر:

بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة وتقديم أحمد دراج مراجعة جمال محرز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م ص٤٤.

(٥٦) البكرى : المغرب ، ص٣٠ .Creswell: op cit p.3

للمقيمين بالبرج، كما كانت تستخدم الأبراج كمنارات لهداية السفن، وربما استخدمت كسجن أو معتقل سياسى(٥٧).

٢- الأبـــواب :

أراد عبيد الله المهدى أن يحكم متانة حاضرته، فشيد على سورها بابين من الحديد، ووضع على كل باب مصراعيين من الحديد(٥٨)، وبلغت زنة كل مصراع مائة قنطار، وبلغت زنة كل باب ألف قنطار(٥٩)، وطوله ثلاثون شبراً فى كل مسمار من مساميرها ستة أرطال(٦٠).

وكانت الأبواب تزين بصور الحيوان(٦١)، وهو مايعنى أن الفن الفاطمى الأول فى بلاد المغرب، كان فنا تصويرياً (أيقونيا) يأخذ بصور الأشخاص الحية، كما كان الفن الإسلامى الأول على عهد الأمويين بالشام(٦٢).

---

(٥٧) محمد محمد أمين وأخرين : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة د.ت، ص٢١.

(٥٨) البكرى : المغرب، ص٢٩.

(٥٩) ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٠. ابن خلدون : العبر، جـ٤ ص٢٨.

المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٠١.

وسنوسى إبراهيم يوسف : زناته والخلافة الفاطمية، ص١٧٤.

Creswell: op cit p.3.

(٦٠) البكرى : المغرب ، ص٢٩، ياقوت: معجم البلدان، جـ٥ ، ص٢٣١.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ، جـ٣، ص٤١٥.

حسن إبراهيم وأخرين : عبيد الله المهدى ، ص٢٠٥.

(٦١) مجهول : الاستبصار، ص١١٧، عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ المغرب والأندلس ص١٧٩.

(٦٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، جـ٣، ص٩٦.

وكان بداخل كل باب من أبواب المدينة دهليز يسع خمسمائة فارس(٦٣) ويصف لنا الرحالة ابن حوقل(٦٤) ـ المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى المعاصر للفاطميين ـ أبواب المهدية التى شاهدها بقوله "ليس لهما فيما رأيته شبيه ولانظير غير البابيين اللذين على سور الرافقة وعلى مثالها عملاً..".

ولم يبق من أبواب المهدية حتى الوقت الحاضر إلا الباب المعروف ببرج السقيفة الكحلاء، وهو مدخل المدينة الرئيسى من جهة الغرب، وهو عبارة عن حصن منيع مدمج فى السور، وظل على حالته الأصلية إلى عصر الأتراك فى القرن الحادى عشر الهجرى(٦٥).

٣ – جامع المهدية الكبير :

درجت العادة فى تأسيس المدن الإسلامية على أن يكون المسجد فى وسط المدينة، كما هو الحال فى الفسطاط والقيروان وبغداد، وبجوار المسجد دار الإمارة بينما نجد الوضع مختلفا فى مسجد المهدية، إذا كان يقع فى الجزء الشرقى، بالقرب من دار الصناعة.

ويشغل هذا الجامع مساحة مستطيلة المسقط ٨٢×٦٠ متر ويوجد المدخل الرئيسى للجامع بالواجهة الشمالية، يكتنفه من كلا الجانبين باب آخر، وتم إضافة جزء آخر حديث اشتمل على دورة للمياه ومئذنة حديثة.

أما المدخل الرئيسى (شكل رقم ٢) فهو من النوع البارز عن سمت الواجهة وهو عبارة عن بروزين، ومسقط كل من البروزين مستطيل

---

(٦٣) ياقوت: معجم البلدان ، جـ٥، ص٢٣٠، Creswell: op cit p.3.

(٦٤) صورة الأرض ، ص٧٣ .

(٦٥) سليمان مصطفى زبيس: يبين الأثار الإسلامية فى تونس، ص٦١.

٨,٥×٣متر بارتفاع حوالى ٩متر، ويحصر البروزان بينهما عقد المدخل، وهو من النوع الذى يشبه حدوة الفرس ويبلغ اتساعه ٤متر وتؤدى فتحة الباب إلى ممر مقبى ينتهى إلى باب يعلوه عتب يعلوه عقد عاتق ويؤدى هذا الباب إلى داخل المسجد(٦٦).

ويكتنف المدخل دخلتان، كلاهما عقد من النوع الذى يشبه حدوة الفرس، يعلوها دخلتان أخريان كل منهما عقد نصف دائرى وفى ركنى الواجهة بروزان يبلغ طول كل منهما ٧,٨٠ متر، وهذان البروزان عبارة عن قاعدتين لمئذنتين أصليتين بركن الجامع، وتؤدى فتحة الباب الثانية التى ينتهى إليها ممر المدخل الرئيسى إلى سقيفة معقودة بقبوات متقاطعة يحملها دعامات فى خط موازى للصحن . وبائكة هذه السقفية تتكون من ١٣عقدا، ويلاحظ أن الجانب الأيمن من السقيفة أكثر عمقا من الجانب الأيسر.

أما صحن الجامع فمستطيل الشكل ٥٠×٣٥متر ولايحف به أية مبانى من الجانب الشرقى، يطل عليه من الجانب الغربى رواق (شكل رقم ٣) به سقيفة حديثة تحملها بائكة تتكون من تسعة عقود محمولة على دعائم، وتحمل هذه البائكة سقوف من قبوات متقاطعة(٦٧).

ويزخرف المحراب الأصلى تسع قنوات مفصصة من ٥ر١٠ فصوص بالتبادل - ويبلغ اتساع حنية المحراب مترين وعمقها متراً واحداً ويشغل المساحة المحصورة بين نهاية القنوات وبداية طاقية المحراب كتابة كوفية فى أربعة سطور يبلغ عرضها من ٨٠سم إلى متر واحد(٦٨).

---

(٦٦) أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى، ص٦.Creswell: op cit p.5

(٦٧) أمال العمرى: العمارة فى العصر الفاطمى ص٦-٧، .Creswell: op cit p.5

(٦٨) أمال العمرى: العمارة فى العصر الفاطمى، ص٧، Creswell:op. cit. p.6

ولقد تغيرت تجاويف المحراب، وأصبحت مؤلفة من طبقات رفيعة نصف اسطوانية تعلوها محاريب زخرفيــة، وقد أثر هذا الطراز المتبع فى محاريب جامع المهدية فى تراث المحاريب التونسية فيما بعد(٦٩).

٤ - القصـــور :

كانت قصور المهدية نواة مركزية للمدينة كما هى العادة فى بناء المدن العربية الإسلامية وتكونت تلك القصور من قصر الإمام عبيد الله المهدى وله باب غربى(٧٠)، ويطل على البحر(٧١) وزينــه بطيقين الذهب(٧٢)، ثم قصر ابنه القائم بالله ولى عهده (شكل رقم ٤) فى الجهة الشرقية ويقع بين الميدان والجامع وكان يفصل بينهما ميدان للاستعراضات(٧٣).

وأخذ الفاطميون بهذا النظام فى تخطيط قصورهم بالقاهرة حيث نجد القصر الشرقى الكبير للمعز، والقصر الغربى الصغير للعزيز وبينهما ميدان بين القصيرين.

ويبدو أن الإزدواجية فى التخطيط كانت ظاهرة معماريــة استمرت فى جميع العصور(٧٤).

---

(٦٩) عبد العزيز حميد وأخرين : الفنون الزخرفية العربيــة الإســلامية بغداد ١٩٨٢م ، ص٩٤.

(٧٠) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، جـ٣، ص٩٦.

(٧١) البكرى : المغرب ، ص٣٠.

(٧٢) التجانى : رحلة التجانى ، ص٣٢٣.

(٧٣) البكرى: المغرب، ص٣٠،أمال العمرى: العمارة فىالعصر الفاطمى، ص٣.
سليمان مصطفى زبيس: يبين الأثار الإسلامية فى تونس ، ص٦١.

(٧٤) أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى، ص٣. Creswell: op cit p.3.

وكانت قصور المهدية باقية حتى عصر ابن حماد[٧٥] ت٦٢٨هـ/١٢٣٠-١٢٣١م.

وحفلت الحياة الاجتماعية فى تلك القصور بكثرة الجوارى والخصايا مثل قضيب وسلاف وحمزة ونشوى وهذا يدل على وجود الفنانيين والمغنيين وأرباب الآت الطرب والترنيم إذ إن كثرة ربات الجمال بالقصور، دليل قاطع على الاحتفال بالموسيقى والرقص، وما إلى ذلك فى مجالس الأنس[٧٦].

٥ - الـــدور :

بنيت بالمهدية الدور للحاشية وأهل الشيعة ورجال الدولة[٧٧]، ويؤكد جغرافى العرب على نظافة وجمال بيوت المهدية، فيحدثنا عنها ابن حوقل[٧٨] بقوله "نظيفة المنازل والدور".

وأما الادريسى[٧٩] فيقول "ولها حسن مبان لطيفة نظيفة المنازل" وفيما يختص بالطراز المعمارى لمنازل المهدية فتلتزم المصادر الأثرية بالصمت عن هذا الموضوع، ولكننى يمكن أن أرجح أنها كانت على الطراز المعمارى نفسه السائد فى مصر، حيث كانت الدار تشتمل على طابق أرضى للرجال (سلاملك) وطابق علوى للحريم (حرملك) وكانت الدار تحتوى على مقعد يفضى إلى الفناء يسمى التختبوش، وعلى قاعات يشتمل كل منها على إيوانيين

---

(٧٥) أخبار ملوك بنى عبيد ، ص٤٢.

(٧٦) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، القسم الثانى، مكتبة المنار تونس ١٩٦٦م ص٢٠٥-٢٠٦.

(٧٧) سليمان مصطفى زبيس: بين الأثار الإسلامية فى تونس، ص١٢.

(٧٨) صورة الأرض، ص٧١.

(٧٩) نزهة المشتاق ، جـ١، ص٢٨١.

بينهما دار قاعة أرضيتها منخفضة عن أرضية الإيوانيين، وفى وسطها فسقية فى بعض الأجبان وفى أعلاها المنور(٨٠).

٦ – المنشأت الصناعية والتجارية :

(أ) دار الصناعة :

أقام عبيد الله المهدى داراً لصناعة السفن فى الجزء الشرقى فى المنطقة الجبلية تسع مائتى مركب عليها باب مغلق(٨١) ويحدثنا ابن عذارى(٨٢) عن إعجابه بدار الصناعة بقوله "وبالمهدية دار صنعة الإنشاء العجيبة، يخرج السفن معمورا خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ العدو القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو".

وكان الأسطول الفاطمى الذى صنع فى المهدية يتكون من عدة قطع

---

(٨٠) حسن الباشا: مدخل إلى الأثار الإسلامية، دار النهضة العربية ـ جامعة القاهرة ١٩٩٠م ص١٧٢-١٧٣.

(٨١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦، ص١٥١.

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١، ص١٠٢.

وقارن البكرى : المغرب ، ص٣٠.

عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر.

سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، الجزء الثالث ص ١٩٦ .

Creswell: op cit p.3.

Gautier : op cit p.321.

(٨٢) البيان المغرب، جـ١، ص١٥١.

هـــــى الشـــــــــوانى(٨٣) ، والحـــراقـــــــة(٨٤) والطـــــــريـــدة(٨٥)

---

(٨٣) الشوانى وهى شينى أو شونة، وهى من السفن الحربية الكبيرة.

(ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، تحقيق حسن محمد الشماع، الطبقة الأولى، جامعة البصرة ١٩٦٧م. ص٨٣ حاشية ٢٥١)، المقريزى: الخطط، الجزء الثانى، بيروت ص١٩٤-١٩٥.

عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها، مطبعة الهلال القاهرة، ١٩١٣م، ص٤.

وتجدف الشوانى بمائة وأربعين مجدافا وتشحن بالجنود والجدافين.

ابن مماتى: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الملكية الزراعية القاهرة ١٩٤٣م، ص٣٤٠.

ومزودة بابراج وقلاع للدفاع والهجوم وتحتوى على اهراء مخزن القمح وصهاريج المياه العذبة.

عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٢م ص٧٤.

(٨٤) الحراقة : الحراقات نوع من السفن الحربية .

الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م ص٣٨٨.

كانت تستخدم لنقل التجارة وكانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الاغريقية، وكان لها مراسى نيران يرمى بها العدو.

الفيروزابادى : القاموس المحيط، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية القاهرة ١٣٣٠هـ ، ص٢٢٠. سعاد ماهر: البحرية الإسلامية ـ دارالكتب، القاهرة ، ص .

عطية القوصى: الحضارة الإسلامية، دارالثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٥م ، ص٧٦.

أبو زيد شلبى : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٦٩.

(٨٥) الطريدة من السفن التى تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتسع الاربعين فرسا (ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٣٩).

والطرادة(٨٦) والشلندى(٨٧).

(ب) دار الطـــــراز :

أقام عبيد الله المهدى دار للطراز، ومن المرجح أنها تقع فى نطاق دار الصناعة أو على مقربة منها:

ولقد ازدهرت بالمهدية صناعة المنسوجات القطنية التى يصفها القلقشندى(٨٨) بقوله "وما يعمل بها القماش الإفريقى وهو ثياب رقاع من القطن والكتان معا ومن الكتان وحده ومنه جل كساوى أهل المغرب".

كما كان هناك من المنسوجات المعروفة بالمهدوية احتلت مكانة مرموقة فى صادراتها الخارجية(٨٩).

وقد أمر الخليفة عبيد الله كاتبه جوذر ـ فى إحدى الرسائل المتبادلة بينها ـ أن يكتب اسمه (جوذر) على الطراز والبسط.

وقال له "اكتب لهم يثبتوا فى الطراز والبسط مما عمل على يد جوذر مولى أمير المؤمنين بالمهدية المرضية(٩٠).

---

(٨٦) الطرادة هى سفينة حربية صغيرة الحجم سريعة الجرى غير مدرعة يبلغ طولها حوالى سبعة أذرع وعرضها ذراعان ونصف ذراع .

ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٤٣٠.

(٨٧) الشلندى : مركب حربى كبير مسطح يستعمل فى حمل العتاد والجند.

ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٤١.

(٨٨) صبح الأعشى : جـ٥ ، ص١٠٢.

حوريه عبده سلام: علاقات مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية. رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الأداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥م ص١٩٨.

(٨٩) الأدريسى : نزهة المشتاق ، جـ١، ص٢٨١.

(٩٠) جوذر : سيرة الاستاذ جوذر، تحقيق محمد حسين كامل، دار الفكر العربى، القاهرة، ص٥٢ .

(جـ) دار الضرب (دار السكة) :

ويدخل فى إطار المنشآت الصناعية بالمهدية دار ضرب النقود التى شيدها عبيد الله المهدى، ولقد وصلت إلينا دنانير مضروبة بالمهدية مؤرخة بسنة ٣١٥هـ/٩٧٢-٩٢٨م و٣١٨هـ/٩٣٠م و٣٢٢هـ/٩٣٣م. شكل رقم (٥).

وكانت تلك الدنانير تزين بنقوش مكتوب عليها "الامام المهدى بالله "وعلى الوجه الآخر "عبد الله أمير المؤمنين"(٩١).

وكانت النقود الفاطمية المضروبة بالمهدية تحمل شعارات المذهب الشيعى ومن المحتمل أن تكون دعاية لنشر المذهب الشيعى ببلاد المغرب. فيوجد دينار مؤرخ بسنة ٣٣٣هـ/٩٤٤-٩٤٥م نقش عليه "بسم الله ضرب هذا الدينر - الدينار - بالمهدية سنة ٣٣٣هـ الإمام القائم بالله، محمد رسول الله، أمير المؤمنين، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم" وعلى الوجه الآخر "محمد أبو القاسم لا إله إلا الله وحده لاشريك له المهدى بالله"(٩٢).

وعلى الرغم من انتقال الفاطميين من المهدية إلى مدينة صبره حاضرة الفاطميين الثانية فى عهد المنصور بالله سنة ٣٣٦هـ/ فلم يهملوا دار الضرب بالمهدية، وحيث وصلنا منها دينار مؤرخ بسنة ٣٤٠هـ/٩٥١-٩٥٢م نقش عليه "لا إله إلا الله وحد لاشريك له محمد رسول الله، عبد الله إسماعيل المنصور بالله أمير المؤمنين"(٩٣).

---

(91) Lavoix : catalogue Des Manmales Musulm. Tome 11 Paris 1896 pp.34-36.

(92) Ibid pp.38-39.

(93) Islamic Art in Kuwait National Museum The alsabh collection Edited Moruhyne Jenk p.35.

(د) أسـواق المهـدية :

انتعشت حركة التجارة بالمهدية ، فحفلت بالأسـواق(٩٤) والدكـاكين(٩٥) والخانـات(٩٦) وكـان لكـل طائفـة من التجـار سـوق يمارسـون فيهـا نشـاطهم التجارى ولارباب الحـرف شـوارع معلومـة، يقيـم فيهـا أهـل كـل حرفـة(٩٧)، وكان التجار يفدون ببضائعهم من سـائر البـلاد لبيعها بأسـواق المهديـة يقـول الإدريسى(٩٨) "وكانت فيما سلف المسافر إليها كثير والبضـائع إليهـا مجلوبـة من سائر البلاد والأقطار والأمتعة والمتاجر نافقة، وفيها بائعة".

ثانيا : مرافق المهدية :

(أ) المواجل (خزانات المياه) :

حرص عبيد الله المهدى على ضرورة توفير المياه اللازمـة بحاضرتـه الجديدة، فبنى الصـهاريج لحفظ المياه، وعرفت بالمواجل، وهى مبان مرتفعـة

---

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥، ص٢٣١.

(٩٥) الادريسى : نزهة المشتاق. جـ١، ص٢٨١.

(٩٦) الخانـات تتكـون من صحن مستطيل تحـف بـه أربعـة أورقـة تشـمل علـى حجرات، وتـأتى أهميـة الأروقـة فـى حمايـة التجـار والبضـائع حتـى لايبقوا فـى العـراء، ويخصص الطابق الأرضى للمتاجر والاصطبلات والعلوى يشتمل على حجرات للضيـوف انظر: ليوبولد وتورروس : الابنية الاسبانية الاسـلامية، مجلـة المعهد المصـرى للدراسـات الاسلامية مدريد، ترجمة علية ابراهيم العدد الأول ، السنة الأولى ١٩٥٣م ص١١٨.

(٩٧) ياقوت: معجم البلدان ، جـ٣، ص٤١٦.

عصام الدين عبد الرؤوف : تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٧٩.

(٩٨) نزهة المشتاق ، جـ١، ص٢٨١-٢٨٢ .

يتوسطها صومعة مثمنة ويتكون الجزء العلوى منها من قبة مفتوحة على أبواب(٩٩).

وبلغ عدد المواجل بالمهدية حوالى ٣٦٠ ماجلا، وكانت المياه تأتى لتلك المواجل بواسطة قناة بالقواديس من أحدى القرى المجاورة للمهدية المعروفة باسم قرية ميانش ثم تصب فى صهريج المهدية، عند جامعها، ثم ترفع المياه إلى القصر بواسطة الدواليب(١٠٠).

(ب) الحمـــامات :

بنى عبيد الله المهدى بالمهدية الحمامات(١٠١)، وهى من الخدمات الهامة فى المدن الإسلامية، نظرا لأهميتها فى التطهر والنظافة، وكان يلاحظ فى بنائها أن تصمم بحيث تتيح للمستحم أن ينقل تدريجيا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لايصاب بأذى، وكان الحمام يسخن عن طريق إيقاد النار

---

(٩٩) مجهول : الاستبصار ، ص١١٥.

(١٠٠) البكرى : المغرب ، ص٢٩.

ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢، ص٣١.

مجهول : الاستبصار ، ص١١٧-١١٨.

الدواليب لفظ فارسى معرب والأصل فيها الطارة أو الحلقة التى تعرف بالناعورة لسقى بها الماء كجزء من الساقية ثم اصبحت تطلق على الالة التى فيها حركة دائرية سواء فى الساقية أو الطاحونة انظر:

محمد محمد أمين واخرين: معجم المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ص٥١.

(١٠١) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧١.

الأدريسى : نزهة المشتاق، جـ١، ص٢٨١.

تحت أرضيته، وكان يشتمل على أنابيب الماء الساخن والبارد داخل الجدران(١٠٢).

(جـ) أهراء الطعام(١٠٣) :

ولقد بنى عبيد الله المهدى بالمدينة **مخازن القمح (الطعام) فى** سراديب تحت الأرض(١٠٤)، **وللأسف لم نجد فى المصادر التاريخية والأثرية** معلومات كافية لرسوم صورة واضحة المعالم عنها.

وأهراء هى بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان، والذى جرى عليه مصطلح الدول الإسلامية فى العصور الوسطى إن الأهراء هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان احتياطا للطوارىء، وكانت لاتفتح إلا عند الضرورة، كما حدث أثناء ثورة أبو يزيد عندما حاصر مدينة المهدية، ولذلك نجد أن هناك فرق بين الأهراء والشون التى كان يخزن بها مايستهلك طول السنة من غلال وأحطاب وأتبان(١٠٥).

(د) دار المحاسبات :

تقع فى الجزء الذى اضافه عبيد الله المهدى للمدينة فيما ردم من البحر(١٠٦).

---

(١٠٢) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص١٦٥.

(١٠٣) ابن خلدون : العبر ، جـ٤، ص٣٨.

المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ١ ، ص١٠٢.

(١٠٤) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ٣، ص٩٨.

(١٠٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ١ ، ص١٠٢ حاشية)٢(.

(١٠٦) البكرى : المغرب ، ص٣٠.

(و) المدافن :

كانت مدينة المهدية تخلو من جبانة للعامة، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك، هو ضيق مساحة المهدية إذا ما قورنت بالمدن الإسلامية الأخرى كالقيروان وبغداد والقاهرة، فضلا عن كثرة المنشآت التى أقيمت عليها، مما لايدع مجالاً لإقامة مدافن للعامة تستغرق مساحة كبيرة من المدينة، ولذلك كان أهل المهدية يحملون موتاهم فى الزوارق لدفنهم فى رباط المسنتير ثم يعودون إلى المهدية(١٠٧) وأغلب الظن أنه كان يوجد بالمهدية جبانة خاصة بالخلفاء لم نعرف مكانها بالضبط، ولكنها من المحتمل أن تكون ملحقاً بأحد القصور. فعندما توفى الخليفة عبيد الله المهدى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م أخفى ابنه أبو القاسم موته لمدة سنة(١٠٨) فلا يعقل أن يكون فى موضع آخر خارج المهدية ويؤكد ابن حماد(١٠٩) على أن عبيد الله المهدى دفن بالمهدية بقوله "ولم يركب - أبو القاسم - دابة بالمهدية منذ مات - أبو عبيد الله - إلى أن توفى هو حزنا وبرا وتكرمة لتربة دفن فيها".

(هـ) المرسى (ميناء المهدية) :

كان موقع المرسى على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة فى نصفه الشرقى(١١٠)(شكل رقم ٥) وتميز بالمتانة والحصانة ، وقد نقره المهدى فى

---

(١٠٧) الأدريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ، ص٢٨٢.

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦، ص٢٣٨.

المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ١ ، ص١٠٥.

(١٠٩) أخبار ملوك بنى عبيد ، ص٥٠.

(١١٠) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، جـ٣، ص٩٦.

الصخرة المطلة على ساحل البحر فـى مساحة تبلـغ ١٢٦×٥٧مـتر، ولايـزال هذا الميناء باقيا إلى اليوم(١١١).

ويحدثنا البكرى(١١٢) عن مرسى المهدية بقوله "ومرساها منقور- محفـور - فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا على طرف المرسى برجان بينهمـا سلسـلة من حديد فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدها، كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم".

وفـى الوقـت الحـاضر لـم يبـق لنـا مـن مخلفـات البـرجين إلا قاعدتهمـا ويتخللهما فى صلب البناء على اسطونات رخامية مطروحـة أفقيـا(١١٣) ومـن هذا المرفأ تنطلق سفن الأسطول الفـاطمى الحربـي والتجـارى صـوب الشـرق والغرب(١١٤).

(ل) أرباض المهدية :

كان للمهدية عدة أرباض من أهمها ربض زويلة(١١٥)، الذى شيده عبيد الله المهدى، ويفصل بينه وبين المهدية ميدان، وأحاط زويلة سور وأبواب.

---

(١١١) أمال العمرى : العمارة فى العصر الفاطمى، ص٥.

(١١٢) المغرب ، ص٣٠. ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥، ص٢٣١.
مجهول : الاستبصار ، ص١١٨. التجانى: رحالة التجانى، ص٣٢٢.
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٢٤.
Mar cais : op cit p. 121.
Creswell : op cit. p. 3.

(١١٣) سليمان مصطفى زبيس : بين الأثار الإسلامية فى تونس، ص٦١.

(١١٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٢٥.

(١١٥) زويلة بلدان أحدهما زويلـة السودان، تقـع بين السـودان وافريقيـة وزويلـة طرابلس بين الغرب والقبلة. انظر: ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣، ص١٦٠.

ونقل إلى زويلة عامة الناس(١١٦) وأسرهم من أرباب الدكاكين من البرازين والحرفيين(١١٧).

ويبدو ان عبيد الله المهدى، حذا فى ذلك العمل حذو ابى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) حين نقل أسواق بغداد إلى خارج أسوارها جنوبا إلى منطقة الكرخ(١١٨).

وشيد عبيد الله المهدى زويلة بهدف تأمين نفسه من غدر الرعية يقول ياقوت(١١٩) "فقيل المهدى إن رعتيلها فى عناء من هذا فقال أنا فى راحة لانى بالليل افرق بينهم وبين أموالهم وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليم فآمن عائلتهم فإن ارادونى بكيد وهم بزويلة، كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك وإن اردونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا فأنا أصرفهم ليلا ونهاراً لأنى فرقت بينهم وبين أموالهم وبينهم وبين حرمهم نهاراً".

ومن أرباض المهدية، الأخرى ربض الحمى، وهو بمثابة سكنات عسكرية لجند أفريقية من العرب والبربر وربض قفصة(١٢٠).

ونستنتج مما سبق أن عبيد الله المهدى شيد لحاضرته الأسوار الشاهقة الارتفاع، وزودها بابراج قوية للدفاع، ثم وضع نواة المدينة الداخلية وتشمل

---

(١١٦) التجانى رحلة التجانى ، ص٣٢٤.

(١١٧) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣١. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ٣، ص٤١٦.

(١١٨) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص٤١٦.

(١١٩) معجم البلدان ، جـ٥، ص٢٣١.

(١٢٠) البكرى : المغرب ، ص٣١ .

المسجد والقصور وجعل بين القصـور رحبـة فسيحة للاستعراضات ثم دور الحاشية وكذلك المنشات الصناعية والتجارية ومرافق المهدية.

وعندما اكتظت المهدية بالسكان أمتد العمران فى الجهة الغربية للمدينـة فشيد عدة أرباض ونقل إليها الرعية.

الخاتمة

كان عبيد الله المهدى ثاقب النظر ، عندما أسس مدينة المهدية وهذا يدل على درايته الواسعة، بكافة التيارات السياسية السائدة فى بلاد المغرب.

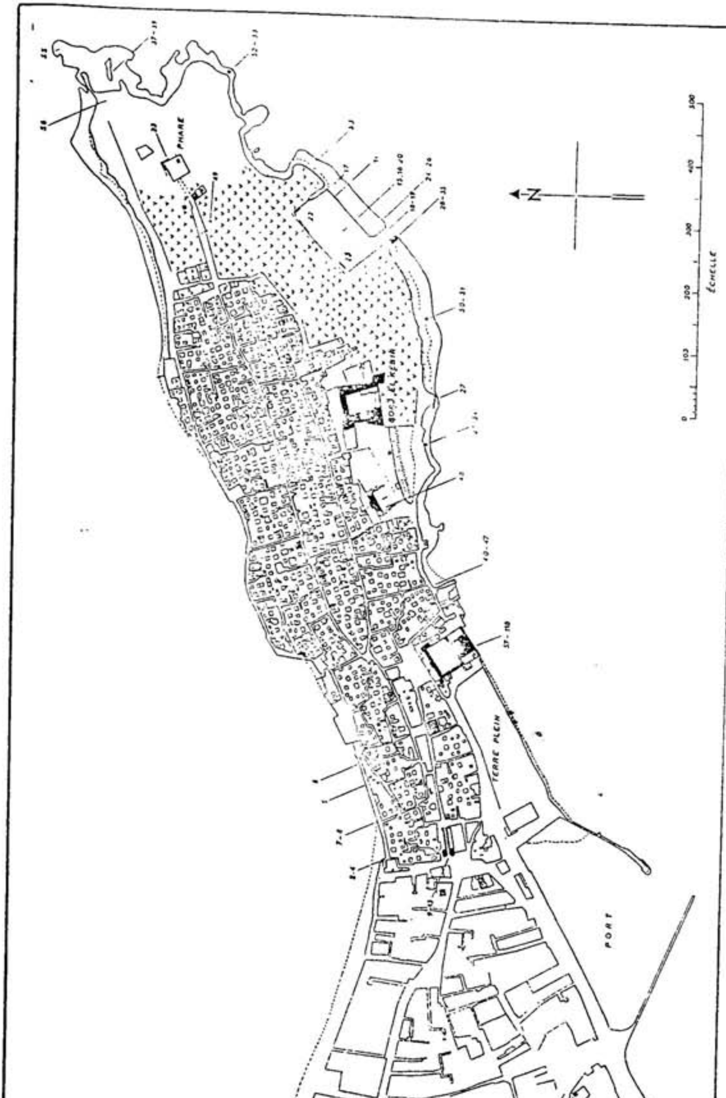
ولقد تحقق هدفه عندما صمدت المدينة فى وجه الثائر أبى يزيد النكارى، الذى ضرب عليها الحصار، ودخلها بالفعل.

وكاد أن يضع بالفعل نهاية للبيت الفاطمى، ولكن بفضل تكاتف أهلها تمكنوا من طرده منها.

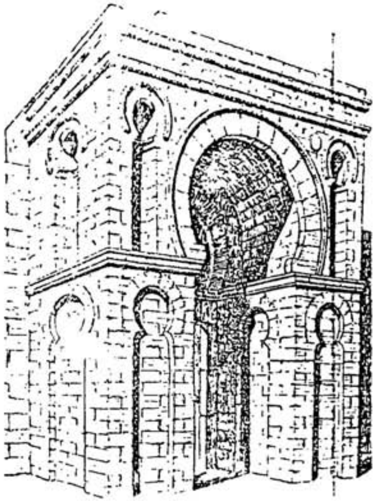
وكان بناء المهدية إيذانا بوضع سمات معمارية جديدة ظهر أثرها واضحاً فى العمارة المغربية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر.

ولقد قامت دار الصناعة بالمهدية بالدور المنوط بها خير قيام حيث ضع بها أنواع السفن الحربية كافة، مما ساعد على ظهور الفواطم بقوة بحرية قوية على مسرح الأحداث فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى.

ولقد دب النشاط التجارى بالمهدية فانتعشت بها الأسواق وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجارى والأرباب الحرف شوارع معلومة يقيم فيها أهل كل حرفة.



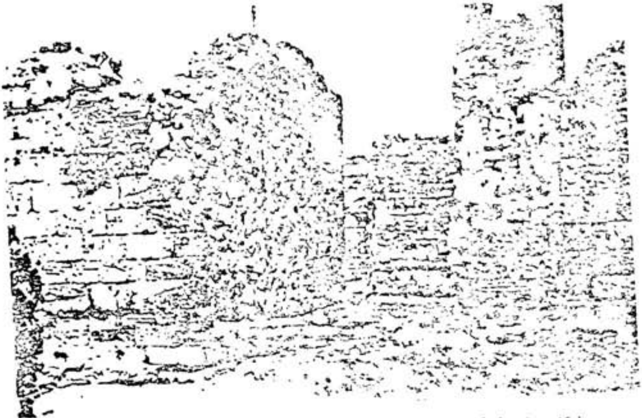
شكل رقم (١) خريطة المهدية



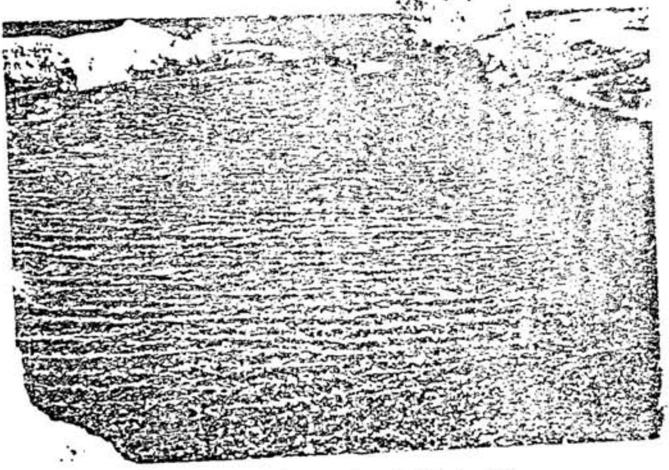
رقم (٢) المهدية : الجامع الكبير (المدخل الرئيسى) ـ القرن الرابع هـ.



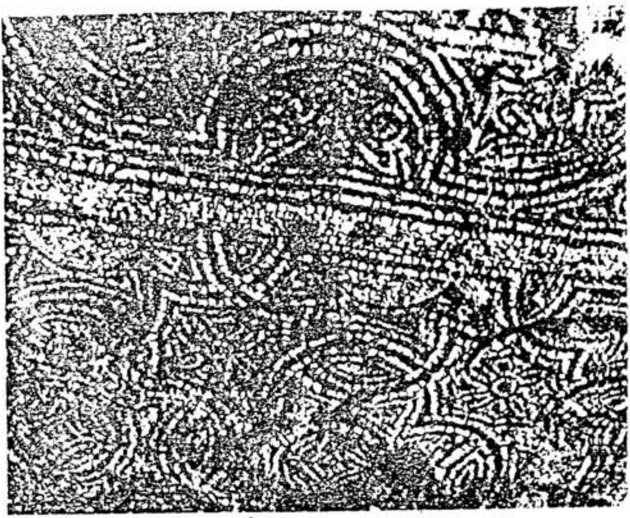
شكل رقم (٣) المهدية : الجامع الكبير (السرواق الجوفى)



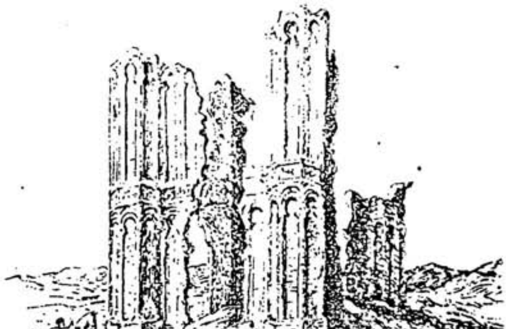
شكل رقم (٤) المهدية : قصر القائم بأمر الله الفاطمى القرن الرابع هـ.



شكل رقم (٥) المهدية : المرفأ الفاطمى (مدخله)



شكل رقم (٦) المهدية : قطعة من فسيفساء أرضية من قصر القائم العبيدى



شكل رقم (٧) ضاحية : برج عريف (صور باليد من القرن الماضى لهذا القصص الفاطمى الذى اندرس ولم يبق له أثر)

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

١ - ابن الأبار : (أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)
"الحلسة السيراء" الجزء الأول، تحقيق حسين مؤنس الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢م.

٢ - ابن أبى زرع : (على بن أبى زرع الفاسى)
"الأنيس المطرب بوض القرطاس" الرباط ١٩٧٧م.

٣ - ابن الأثير : (عز الدين ابن الحسن على أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
"الكامل فى التاريخ" الأجزاء الخامس والسادس دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

٤ - الإدريسى : (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤هـ/١١٦٨م)
"نزهى المشتاق فى اختراق الآفاق" الجزء الأول ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة .

٥ - الأصطخرى : (أبو القاسم إبراهيم بن محمد توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)
"المسالك والممالك" تحقيق محمد جابر الحينى القاهرة ١٩٦٦م

٦ - البكرى : (ابو البكرى ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
"المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب" مكتبة المثنى، بغداد ١٨٥٧م

٧ - **التجانى** : (ابو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم)
"رحلة التجانى" تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، توفى ١٩٥٨م
٨ - **جوذر** : (أبى على منصور العزيزى الجوذرى)
"سيرة الأستاذ جوذر" تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شعيرة دار الفكر العربى، القاهرة
٨ - **ابن حماد** : (أبو عبد الله بن محمد بن على ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م)
"أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم" تحقيق عبد الحليم عويس واخرين دار العلوم، الرياض
١٠ - **الحميرى** : (ابو عبد الله بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)
"الورض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت ١٩٤٨م
١١ - **ابن حوقل** : (ابو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى)
"صورة الأرض" بيروت ١٩٧٩م
١٢ - **ابن الخطيب** : (لسان الدين بن الخطيب)
"اعمال الإعلام" القسم الثالث تحقيق أحمد العبادى واخرين الدار البيضاء ٩٦٤م
١٣ - **ابن خلدون** : (عبد الرحمن محمد بن جابر ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)
"العبر وديوان المبتدأ والخبر" الجزء الرابع، دار الفكر بيروت ١٩٧٩
١٤ - **الدمشقى** : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب ت ٢٧٢هـم١٣٢٦م)
"نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" بطرسبرج ١٨٦٥م

١٥ - **ابن الرقيق** : (إبراهيم بن القاسم توفى بعد سنة ٤٠٧هـ/١٠٢٦م)
"تاريخ افريقيا والمغرب" تحقيق المنجر الكعبى، تونس ١٩٦٧م

١٦ - **الزهرى** : (أبى عبد الله محمد بن أبى بكر توفى فى أواسط القرن الساس الهجرى)
"الجغرافيا" تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة

١٧ - **السراج** : (محمد بن محمد الأندلسى ت ١١٤٩هـ/١٤٣٦م)
"الحلل السندسية فى الأخبار التونسية" الجزء الأول، القسم الرابع، تحقيق مجمد الحبيب الجزء الأول القسم الرابع، تحقيق محمد الحبيب تونس ١٩٧٠م

١٨ - **ابن عذارى** : (ابو عبد الله محمد المراكشى من علماء القرن السباع الهجرى)
"البيان المغرب فى أخبار المغرب" الجزء الأول، تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ليدن ١٩٤٨م

١٩ - **العماد الأصفهانى** : (عماد الدين)
"الفتح القسى فى الفتح القدسى"
تحقيق محمد محمود جبيح، القاهرة ١٩٦٦م

٢٠ - **أبو الفداء** : (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ/١٣٣١)
"تقويم البلدان" باريس ١٨٤٠م

٢٢ - .... : "المختصر فى أخبار البشر" الجزء الثانى، القاهرة

٢٢ - **ابن الفرات** : (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)
"تاريخ ابن الفرات" المجلد الرابع، تحقيق حسن محمد الشماع، الطبعة الأولى جامعة البصرة ١٩٦٧م

٢٣ - **الفيروز ابادى** : (محمد بن يعقوب الشيرازى ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)
"القاموس المحيط " الجزء الثالث الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٣٠هـ

٢٤ - **القزوينى** : (زكريا بن محمد بن محم)
"اثار البلاد وأخبار العباد" دار صادر ، بيروت

٢٥ - **القلقشندى** : (شهاب الدين أبى العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
"صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء"
الجزء الخامس . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٩م

٢٦ - .... : "قلائد الجمان"
تحقيق إبراهيم الأبيارى، دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٣م

٢٧ - **مجهول** : (ابن محشرة كابت مراكش مجهول من علماء القرن السادس الهجرى)
"كتاب الأستبصار فى عجائب الأمصار" تحقيق سعد زغلول عبد الحميد الإسكندرية ١٩٥٨م

٢٨ - **المقدسى** : (شمس الدين أبو عبد ا لله محمد ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م)
"أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم الطبعة الثانية، نشر دى خوية ليدن ١٩٦٧م

٢٩ - **المقريزى** : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
"الخطط" جزئين ، بيروت د. ت.

٣٠ - ....: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفاء الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧م

٣١ - **مماتى** : (الأسعد الخطير شرف الدين أبى المكارم أبى سعيد ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م

"قوانين الدواوين" تحقيق عزيز سوريال عطية الجمعية الملكية الزراعيـة، القاهرة ١٩٤٣م.

٣٢ - **النعمان** : (للقاضى النعمان بن محمد ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م)

"افتتاح الدعوة"

تحقيق فرحات الدشرواى ، توفى ١٩٧٥م

٣٣ - **النويرى** : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ/١٢١٣م)

"نهاية الأرب فى فنون الأدب" الجـزء الرابـع والعشـرون، تحقيـق حسـين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٣م

٣٤ - **ياقوت** : (شهاب الدين أبو عبد البه الروحى ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

"معجم البلدان" الأجزاء الثالث والخامس دار صادر - بيروت ١٩٧٩م

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

١ - **السيد عبد العزيز سالم** : (دكتور)

المغرب الكبير ، الجزء الثانى ، الدار القومية للطباعة والنشـر ، القـاهرة ١٩٦٦م

٢ - **الدال العمرى** : (دكتورة)

"العمـارة فـى العصـر الفـاطمى" مجـاضرات مقررة علـى طـلاب الفرقـة الثانية بكلية الآثار جامعة القاهرة

٣ - **بول كازانوفا** : تاريخ ووصف قلعة القاهرة .

ترجمة وتقديم أحمد دراج ، مراجعة جمال محرر الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة ١٩٤٧م

٤ – **حسن الباشا** : (دكتور)

مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٠م

٥ – **حسن إبراهيم حسن** : (دكتور)

"تاريخ الدولة الفاطمية" الطبعة الرابعة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨١م

٦ – .... : تاريخ الإسلام ، الجزء الثالث الطبعة السابعة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥م

٧ – **حسن إبراهيم وأحمد طه شرف** : (دكتوران)

عبيد الله المهدى ، النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٧م

٨ – **حسن أحمد محمود** : (دكتور)

تاريخ المغرب والأندلس ، دار الثقافة القاهرة ١٩٩٠م

٩ – **حسن حسنى عبد الوهاب** : (دكتور)

"خلاصة تاريخ تونس" الطبعة الرابعة تونس ١٩٦٨م

١٠ – .... : ورقات عن الحضارة العربية التونسية القسم الثانى، دار المنار تونس ١٩٦٦م

١١ – .... : الأمام المازرى ، نوابغ المغرب العربى رقم(١) تونس

١٢ – **حسين مؤنس** : (دكتور)

"تاريخ المغرب وحضارته" المجلد الأول الطبعة الأولى ، الدار السعودية ١٩٩٠م

١٣ – **رابح بونار** : المغرب العربى ، الطبعة الثانية الجزائر ١٩٨١م

١٤ – **ابو زيد شلبى** : (دكتور)

"تاريخ الحضارة الإسلامية"، القاهرة .

١٥ – **سعاد ماهر محمد** : (دكتورة)

"البحرية الإسلامية" دار الكتب المصرية القاهرة

١٦ – **سعد زغلول عبد الحميد** : (دكتور)

"تاريخ المغرب العربى"

الأجزاء ٢ ، ٣ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩م

١٧ – **سليمان مصطفى زبيس** : اثار المغربى العربى ، الطبعة الأولى تونس ١٩٥٨م

١٨ – .... : بين الآثار الإسلامية فى تونس تونس

١٩ – **سنوسى يوسف إبراهيم** : (دكتور)

"زناتة والخلافة الفاطمية" الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦م

٢٠ – **صابر محمد دياب** : (دكتور)

"سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط" الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٣م

٢١ – **صبحى الصالح** : (دكتور)

"النظم الإسلامية" الطبعة الرابعة دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٨م

٢٢ – **عبد العزيز حميد وأخرون** : الفنون الزخرفية العربية الإسلامية بغداد ١٩٨٢م.

٢٣ – **عبد الفتاح عبادة** : سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها مطبعة الهلال، القاهرة ١٩١٣م.

٢٤ – **عصام الدين عبد الرؤوف الفقى** : (دكتور)

"تاريخ المغرب والأندلس" مكتبة نهضة الشرق – جامعة القاهرة.

٢٥ - **عبد المنعم ماجد** : (دكتور)
"تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى" الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٢م.

٢٦ - .... : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر الإسكندرية ١٩٦٨م.

٢٧ - **عطية القوصى** : (دكتور)
"الحضارة الإسلامية" دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٥م.

٢٨ - **محمد محمد أمين وأخرين** : (دكاترة)
معجم المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، دار النشر بالجامعة الأمريكية القاهرة.

ثالثا : الرسائل العلمية الغير منشورة والدوريات :

١ - **حورية عبده سلام** : علاقات مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥م.

٢ - **عادلة محمد الحمد** : قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة الكويت ١٩٧٦م.

٣ - **ليو بولد وتورس بلياس** : الأبنية الإسبانية الإسلامية ترجمة علية إبراهيم، صحيفة المعهد المصرى للدارسات الإسلامية، مدريد العدد الأول السنة الأولى ١٩٥٣م .

رابعا : المراجع الأجنبية :

1 - **Creswell (K. A. C.) :** The Muslim Architecure of Egypt
I. Ikhids and Fatimids Oxford.

2 - **Derek Hill and Luven:** Islamic Arshitecture in North Africa
London.

3 - **Gautier (E.F.):** Les Siecles Obscurs Du Maghreb
Paris 1927.

4 - **Islamic Art** in the Kuwait National Museum .

5 - **Julien (Charles-Andre):** History of North Africa Translated
by John Petrie
New York.

6 - **Lavoix** : Catalog des Mannales Musulmn Tome II
Paris 1896.

7 - **Lezine (Alexandre)** : Mahdiya Recherches D'Archealogie
Islamique
Klinckieck 1965.

8 - **Marcais (G) :** Art Al Mahdiya in the Encyclapeadia of Islam
Tome III.

9 - **Marcais (Gcorges) :** L'Art de Islam
Paris 1946 .

فتح سمرقند : صفحة من تاريخ فتوح المسلمين فيما وراء النهر

د. محمد بركات البيلى

كلية الآداب – جامعة القاهرة

كانت سمرقند(١) واحدة من كبريات مدن ما وراء النهر يراها بارتولد "من حيث الرقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة حتى في تلك العهود التى كانت فيها بخارى حاضرة للبلاد"(٢).

وكانت سمرقند مدينة الصغد العظمى(٣) أو بعبارة أخرى قصبة إقليم الصغد(٤) الذى كان أهم أقاليم ما وراء النهر، إذ يضعه البلدانيون المسلمون فى مقدمة متنزهات الدنيا الأربع المعدودة(٥)، ووصف بأنه بستان أمير المؤمنين(٦). وقد بلغت سمرقند من الأهمية فى هذا الأقليم ما يجعلها أول ما

---

(١) يرى شيدر (دائرة المعارف الإسلامية، مادة سمرقند) أن اسم سمرقند لا يعرف له تفسير يقينى، فإذا كان المقطع الثانى منه "قند" يعنى عند الإيرانيين "مدينة" فإن المقطع الأول لم يفسر بعد تفسير مقنعا وإن كان هناك من فسراسمها بمعنى القرية الكبيرة أو الكثيفة ولكن جغرافيا مسلماً مثل ابن عبد المنعم الحميرى (الروض المعطار . مارة سمرقند) يفسرها على أنها مدينة شمر أو شمرقند ثم عربت إلى سمرقند .

(٢) تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص ١٧٠.

(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ٥٥ .

(٤) الأصطخرى : مسالك الممالك، ص١٧٧والإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ١ ص ٤٩٧ .

(٥)هذه المتنزهات هى : صغد سمرقند وغوطة دمشق ونهر الأبلة وشعب بوان.

(٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ٦١٤ وابن الأثير : الكامل، جـ ٤ ص ١٧٩ – -وقد قدر البلدانيون المسلمون سعة إقليم الصغد بستة وثلاثين فرسخا أو ما يقطعه =

يتبادر إلى الذهن إذا ذكر الصغد وما جعل الأقليم ينسب إليها فقيل صغد سمرقند (٧) .

ومدينة سمرقند أولية قديمة البناء(٨) تقع على نشز من الأرض على الضفة الجنوبية لنهر الصغد(٩)، في موقع جغرافي هام يستمد أهميته من وقوعه عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى في وسط آسيا بين الهند وايران

= المسافر في ثمانية أيام . (ابن حوقل: صور الأرض ، ص ٣٩٢ وياقوت الحموى : معجم البلدان، مادة الصغد والقلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٤٣٣) ويرى لسترنج (بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣) أن هذا الإقليم يشمل الأراضي الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون التى تروى من نهرى زرفان (الصغد) والقصارين الذى يعرف بنهر كشكة، وتقع على أولهما مدينتا سمرقند وبخارى وتقع على ثانيهما مدينتا كش ونسف، وإن كان ابن بطوطة (رحلته ص ٣٩١) يجعل سمرقند على وادى القصارين.

(٧) القلقشندى:المصدر السابق جـ٤ ص٤٣٣.وفلهوزن : تاريخ الدولة العربية، ص٤١١ .

(٨) لا يعرف تاريخ بناء سمرقند على وجه التحديد، يذكر القزوينى أن أول من أسسها كيطاوس بن كيقباز فقد قيل إنها من بناء شمر أحد التبابعة اليمنيين ، وقيل أنها من بناء الإسكندر لكن يستفاد من النسفى (فى رأى شيدر دائرة المعارف الإسلامية، مادة سمرقند) أن سمرقند كان قد مر على بنائها عند قدوم قتيبة بن مسلم إليها ألفان ومائتان وخمسون عاما وعلى ذلك فإنها كانت موجودة قبل الإسكندر بأكثر من ألف عام، وإذا كان ذلك غير مؤكدفإن المؤكد أنها كانت موجودة قبل الإسكندر إذ ذكرت فى حروبه أخبار عنها باسم مركند Marcanda واحتلها الإسكندر أكثر من مرة أثناء حروبه مع السيتاميين وسواها بالأرض كما ذكر استرابون لكن الإسكندر ربما شرع فى إعادة بنائها بعد انتصاره وقد لجأ الحميرى (الروض المعطار - ماردة سمرقند) إلى رأى توفيقى فذكر أنه "يقال أنها بنيت أيام الأسكندر وتولى ذلك شمر فقيل شمرقند" .

(٩) الأصطخرى : المصدر السابق ص ١٧٨ وابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار - مادة سمرقند ولسرنج المرجع السابق ص ٥٠٦ . .

والتركستان(١٠) ومن ثم كانت سمرقند "فرضة ما وراء النهر ومجمع التجار ومعظم جهاز ما وراء النهر يقع بسمرقند ثم يتفرق إلى سائر الكور"(١١) .

وفضلا عن الأهمية التجارية فقد كان لسمرقند أهمية استراتيجية، إذ وفر لها وقوعها على نشز من الأرض نوعا من المنعة الطبيعية التى تدعمت بحصانة صناعية توفرت لسمرقند من احاطتها بسور منيع قليل الأبواب(١٢) وحوله خندق عميق نتج عن استخدام طينة فى بناء سور المدينة(١٣) ولذلك كانت سمرقند مدينة حصينة عز مرامها وصعب اقتحامها لأنها "من أشد البلاد امتناعا وأكثرها رجالا وأشدها بطلا وأصبرها محاربا، وهى نحر الترك لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة أبطالها"(١٤)، مما يفسر جانبا من أسباب تأخر الفتح الإسلامى لسمرقند، إذا استغرق فتحها نحو أربعة عقود منذ فتحها الأول على يد سعيد بن عثمان بن عفان فى خلافة معاوية سنة ٥٦هـ وحتى تمام

---

(١٠) بارتولد : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(١١) الأصطخرى : المصدر السابق ص ١٧٨ .

(١٢) تطلب فتح ثلمة فى هذا السور رميا طويلا بالمجانيق . ولم تتعد أبوابه أربعة هى باب الصين شرقا وباب النوبهار غربا وباب بخارى شمالا وباب كش جنوبا . (الأصطخرى : المصدر السابق ، ص ١٧٧ والإدريسى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٩٨) (لابن الحميرى : الروض المعطار ، ماردة سمرقند) .

ويجعل ابن الفقيه (مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٢) أبوابها أربعة هى : باب كش وباب الصين وباب اشروسنة وباب الحديد وفى هذا خطأ واضح خاصة فى الأخير منها لأن باب الحديد موضع يبعد عن سمرقند مسافة غير قصيرة - ولكن القزوينى يذكر أن لها أثنى عشر باباً (آثار البلاد وأخبار العباد - مادة سمرقند) .

(١٣) الأصطخرى : المصدر السابق ، ص ١٧٧، والإدريسى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٩٧ والقلقشندى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١٥ .

(١٤) اليعقوبى : المصدر السابق ، ص ٥٥ .

فتحها على يد قتيبة بن مسلم الباهلى فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣هـ.

كان الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر ضرورة لازمة تمليها الدوافع الدينية والاستراتيجية ، ففضلا عن أنه كان خطوة على طريق الدعوة الإسلامية إلى العالمين ، فقد كان فتح ما وراء النهر ضروريا لتأمين فتح خراسان، بل لعله كان استكمالا لفتح خرسان على اعتبار أن ما وراء النهر كان يتبع خراسان إداريا فى عهد الساسانيين ولهذا فقد اختص عمال خراسان بفتوح ما وراء النهر فلم توجه الخلافة جيشا من قبلها قط لفتح ما وراء النهر. وبطبيعة الحال لم يكن فتح ما وراء النهر ليتم إلا بفتح أكبر مدنه وأكثرها سكانا وأشدها منعة، مدينة سمرقند .

كانت نقطة البداية فى فتوح ما وراء النهر هى عبور نهر جيحون (أموداريا)، ويرى بارتولد أن واقعة عبور العرب نهر جيحون لأول مرة غير محددة وأن الروايات بشأنها متناقضة(١٥) غير أننا نستطيع جلاء هذه البداية بشئ من التمحيص لتلك الروايات. وأغلب الظن أن الحكم بن عمرو الغفارى كان أول من عبر نهر جيحون من العرب نحو سنة ٥٠هـ، إذ يتفق كل من الطبرى والبلاذرى على أن الحكم بن عمرو كان أول من صلى من وراء النهر(١٦) ثم قطع النهر من بعده الربيع بن زياد الحارثى(١٧) ثم قطعه من بعده عبيد الله بن زياد على الإبل وكان - فى رأى الطبرى - "أول من قطع إليهم

---

(١٥) تركستان منذ الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٣٠٠.
(١٦) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٦ وفتوح البلدان ، جـ ٣ ص ٥٠٦.
(١٧) الطبرى : المصدر السابق، جـ ٥ ص ٢٨٦ .

جبال بخارى فى جند(١٨)" بينما ذكر البلاذرى أن خلفه سعيد بن عثمان بن عفان "كان أول من قطعة - النهر - بجنده"(١٩) ولعل هذا ما جعل بارتولد يصدر حكمه السابق، غير أن سابقة عبيد الله بن زياد لم تكن فى قطع النهر وإنما كانت فى قطع جبال بخارى، أما ما ينسبه البلاذرى إلى سعيد بن عثمان من سابقة فى قطع النهر فقد تتضح فى ضوء رواية ابن اعثم الكوفى الذى يذكر أن سعيد بن عثمان "سار من مرو يريد سمرقند فصار إلى نهر بلخ فنزل على شاطئه ثم أمر بعقد الأطواف فعقدت ونادى فى الناس أن يعبروا فعبروا وعبر سعيد فى أول الناس وتبعه أصحابه فجعلوا يعبرون على الأطواف وسعيد ينظر إليهم حتى عبروا بأجمعهم(٢٠)" .

يتضح من هذه الرواية أن سعيد بن عثمان سار من مرو إلى نهر بلخ أى إلى ذلك الجزء من نهر جيحون المقابل لمدينة بلخ ويبدو أن سعيد بن عثمان كان فعلا أو من عبر النهر من هذه الجهة، فمع أننا لا نعرف يقينا الموضع الذى قطع سابقوه النهر من عنده إلا أنهم فيما يبدو قد قطعوه من ناحية آمل جهة الشمال الغربى، إذ يذكر البلاذرى أن الربيع بن زياد الحارثى استخلف حين رجوعه إلى مرو ابنه عبد الله فقاتل أهل آمل وزم ثم صالحهم ورجع إلى مرو(٢١) مما يرجح أن أباه الربيع قد قطع النهر من هذه الناحية ، أما عبيد الله بن زياد فقد قطع النهر إلى بيكند وهى من نواحى بخارى والطريق من خراسان إلى تلك الجهة يكون من مرو إلى آمل زم ثم يقطع

(١٨) الطبرى: المصدر السابق، جـ ٥ ص ٢٩٧ .

(١٩) فتوح البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٠٧ .

(٢٠) الفتوح ، جـ ٤ ص ١٩٠ .

(٢١) فتوح البلدان ، جـ ٤ ص ١٩٠ .

النهر ثم إلى بيكند عبر المفازة ثم من بيكند إلى بخارى(٢٢) . وعلى ذلك فقد قطع النهر قبل سعيد بن عثمان من ناحية آمل شمالا فكان لسعيد بن عثمان سابقة عبور النهر من الجهة المقابلة لبلخ عند مدينة الترمذ(٢٣) ولعل تلك هى السابقة التى ينسبها البلاذرى لسعيد بن عثمان، إذ ليس من المعقول أن يتجاهل كاتب مدقق كالبلاذرى ما ذكره بنفسه عن صلاة الحكم بن عمرو الغفارى من وراء النهر وما ذكره أيضا عن قطع عبيد الله بن زياد النهر إلى بيكند .

وفضلا عما سبق فقد أشار ابن اعثم الكوفى إلى عبور سعيد بن عثمان على الأطواف، وإذا كنا لا نعرف الوسيلة التى عبر بها كل من الحكم بن عمرو الغفارى والربيع بن زياد الحارثى فإن عبيد الله بن زياد كان قد عبر بعدهما على الإبل ولم يجعل الطبرى من عبوره على الإبل سابقة وإنما جعل السابقة لعبيد الله بن زياده فى قطعه جبال بخارى وعلى ذلك فقد كانت الإبل - أو غيرها من الدواب - هى وسيلة العبور فى جهة آمل قبل أن تعقد الأطواف لسعيد بن عثمان فى جهة الترمذ .

وعلى أى حال، فقد كان سعيد بن عثمان بن عفان أول من عبر نهر جيحون قاصدا سمرقند ، فخرج من مرو إلى بلخ والطريق المعهود بينهما يمر بمرو الروذ ومنه يتجه طريق خراسان الكبير شمالا بشرق إلى بلخ(٢٤).

---

(٢٢) قدامة بن جعفر الخراج ص ٢٠٢ ولسترنج المرجع السابق، ص ٥١٥ .

(٢٣) يذكر اليعقوبى (تاريخه جـ ٢ص ٢٣٧) أن عبيد الله بن زياد "قطع نهر بلخ وكان أول عربى قطع نهر بلخ" وهو ما لم يذكره أحد غيره ولا يعول عليه سواء فى الترتيب أو فى الجهة .

(٢٤) لسترنج : المرجع السابق . ص ٤٧٣ .

ونزل سعيد ابن عثمان على ضفة نهر بلخ (جيحون) عند مدينة الترمذ على وجه التحديد، ومنها كان عبوره النهر ذهابا وايابا(٢٥). ولما كانت الترمذ مفرق طرق منها ما يؤدى إلى سمرقند ومنها ما يقطع المفازة إلى بخارى(٢٦) فقد تحول سعيد ابن عثمان بوجهته إلى بخارى(٢٧) فبادرت ملكتها الضعيفةحينذاك المسماة "خيل خاتون" إلى طلب صلحة على أن تؤدى إليه الجزية فقبل منها وأخذ منها رهائن من ذويها ضمانا لوفائها بالصلح وأخذ أيضا أدلاء يدلونه على الطريق إلى سمرقند(٢٨) .

تجنب الأدلاء أن يسيروا بسعيد بن عثمان وجيشه على الطريق المحاذية للضفة اليسرى لنهر زرفشان (الصغد) تجنبا للقتال مع المدن الكثيرة الواقعة على النهر فيما بين بخارى وسمرقند. ووصل سعيدبن عثمان إلىسمرقندليجدالصغد قد حشدوا له فمكث يوما يريح جنده من عناء الطريق ولسيتطلع ميدان المعركة التى سيخوضها(٢٩) فلما كان الغد اشتبك المسلمون مع الصغد فى قتال عنيف مكث فى تقدير البلاذرى ثلاثة أيام(٣٠) لكنه امتد فى تقدير ابن اعثم الكوفى لشهر كامل(٣١) .

---

(٢٥) الطبرى تاريخ ، جـ ٥ ص ٣٠٦ والبلاذرى : فتوح، جـ ٣ ص ٥٠٨ وابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٥ ص ٢٨٧ .

(٢٦) لسترنج : المرجع السابق ص ٥١٥ .

(٢٧) لعل سعيد قد أخطأ الطريق إلى سمرقند فاتجه إلى بخارى لأنه شرط على ملكة بخارى بعد صلحها معه أن تمده بالأدلاء ليدلوه على الطريق المؤدى إلى سمرقند .

(٢٨) ابن اعثم الكوفى ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٩١ .

(٢٩) الطبرى: تاريخه،جـ٥ ص٣٠٥، وابن الجوزى: المنتظم، جـ٥ ص ٢٨٧.

(٣٠) فتوح البلدان، جـ٣ ص ٣٠٨ .

(٣١) الفتوح ، جـ ٤، ص ١٩٤ .

ويبدو أن القتال بين سعيد بن عثمان والصغد جرى **فى مرحلتين :**

أولاهما : كانت نزالا خارج سمرقند وبعيدا عن أسوارها وفيه أنزل المسلمون بالصغد مقتلة عظيمة وسبوا منهم الكثير بعد مقاومة(٣٢) ضارية فقد فيها سعيد بن عثمان عينه وقيل إن المهلب بن أبى صفرة فقد عينه أيضاً فى هذه المعركة(٣٣) .

أما المرحلة الثانية من القتال : فكانت حصارا طويلا ضربة المسلمون على مدينة سمرقند(٣٤) وأحاطوا بأسوارها الحصينة وبدا لسعيد بن عثمان صعوبة اقتحام أسوار سمرقند المنيعة لكنه استدل على حصن قريب منها كان يقيم فيه أبناء ملوك الصغد وعظمائها فحصرهم فيه(٣٥) فلما صاروا فى يده طلب أهل سمرقند الصلح(٣٦) فشارطهم على "سبع مئة الف درهم على أن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم وعلى أن يدخل المدينة"(٣٧) فاضطروا إلى قبول شروطه وأعطاه اخشيد ملك سمرقند ما صالحه عليه ثم فتح له باب المدينة فدخلها سعيد فى ألف فارس وسار فيها حتى خرج من الباب الآخر ثم انصرف إلى عسكره(٣٨) ورجع بهم عن سمرقند إلى الترمذ فعقدت لهم الأطواف وعبروا النهر عائدين إلى مرو(٣٩) .

---

(٣٢) ابن اعثم : الفتوح جـ٤ ص ١٩٤ .

(٣٣) البلاذرى : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٥٠٨ .

(٣٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة واليعقوبى: تاريخه، جـ٢ص٢٨٧.

(٣٥)ابن اعثم الكوفى:الفتوح،جـ٤ص١٩٥والبلاذرى:فتوح البلدان،جـ ٣،ص٥٠٨.

(٣٦) اليعقوبى : المصدر السابق، جـ ٣ ص ٢٨٧ .

(٣٧) البلاذرى : المصدر السابق، جـ ٣ ص ٥٠٨ .

(٣٨) ابن اعثم الكوفى : المصدر السابق، جـ ٤ ص ١٩٦ .

(٣٩) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

هكذا كان أول فتح إسلامى لسمرقند لكنه انتهى إلى صلح قبل فيه المسلمون الجزية من أهل سمرقند واكتفوا بما حققوه، إذ كانت فتوحهم فيما وراء النهر لا تزال فى المرحلة التمهيدية ولم تصل بعد إلى إمكانية بسط سلطان المسلمين على ما وراء النهر وجعلها ولاية إسلامية .

ولما عبر سلم ابن زياد النهر سنة ٦٢هـ فى خلافة يزيد بن معاوية اتجه نحو سمرقند فجدد أهلها الصلح مع المسلمين وأدوا إلى سلم بن زياد ألف دية وهدايا كثيرة أرسلها إلى يزيد بن معاوية إشارة إلى المدى البعيد الذى وصل إليه لكن حملات المسلمين نحو سمرقند توقفت بعد سلم بن زياد إلى أن جاءها قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٩٣هـ أى بعد حملة سلمة بن زياد عليها بأكثر من ثلاثة عقود كاملة وبعد أن قضى قتيبة بن مسلم نفسه زهاء سبعة أعوام فى فتوح أخرى لنواحى ما وراء النهر مما يدعونا إلى التساؤل عن أسباب انقطاع حملات المسلمين عن سمرقند طيلة هذه المدة ؟!

لم يكن انقطاع حملات المسلمين عن سمرقند زهدا منهم فى فتحها أو استصغارا لشأنها ولكنه فيما يبدو راجع إلى بعد الصعوبات التى اكتنفت طريق بلخ المؤدى إلى سمرقند عبر الترمذ من ناحية وسهولة الطريق الآخر المؤدى إلى بخارى عن طريق آمل ونواحيها من ناحية أخرى .

كانت الصعوبات التى تكتنف طريف بلخ تنجم عن أن بعض نواحى هذا الطريق لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة المسلمين وسلطانهم السياسى مما يجعلها مصدر تهديد للحملات الإسلامية السالكة لطريق بلخ، وأخطر من ذلك أن موسى بن عبد الله بن خازم المتمرد على ولاة خراسان كان مسيطرا على معبر الترمذ الحصين لنحو خمسة عشرة سنة حتى مقتله سنة ٨٥هـ /٧٠٤م

قبل تولى قتيبة على خراسان وعبوره النهر بأقل من عام، فكان من الصعب على ولاة خراسان عبور النهر من هذه الناحية بينما سهل عليهم

عبوره من ناحية آمل فكثر توجههم إلى بخارى ونواحيها وتوقفت حملاتهم إلى سمرقند(٤٠).

وبينما توقفت حملات المسلمين إلى سمرقند لفترة، كانت مقاومة الصغد للفتح الإسلامى لما وراء النهر تتزايد وتزعمهم طرخون ملك سمرقند الذى انتهج سياسة الوقيعة بين المسلمين فكان يتحالف حينا مع موسى بن عبد الله بن خازم ضد ولاة خراسان ويتحالف حينا آخر مع ولاة خراسان ضد موسى ليمكنه بذلك تقويض سلطان المسلمين فيما وراء النهر(٤١) لكن سعيه خاب تماما بوفاة موسى بن عبد الله بن خازم من ناحية وقدوم قتيبة بن مسلم فاتحا لما وراء النهر من ناحية أخرى .

تولى قتيبة بن مسلم الباهلى على خراسان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق من قبل الوليد بن عبد الملك، فسارع قتيبة إلى ما وراء النهر ووضع نصب عينيه أن يكون فاتحها، وأدى عودة الترمذ إلى قبضة ولاة خراسان بوفاة موسى بن عبد الله بن خازم إلى إمكانية عبور النهر من ناحيتها، فعبره قتيبة عند الصغانيان(٤٢) . ويبدو أن العبور

---

(٤٠) لم ترد الإشارة إلى سمرقند فى المصادر فى تلك الفترة عما ذكر عن مقدم موسى بن عبد الله بن خازم إلى سمرقند قبل تمركزه فى الترمذ. انظر عن ذلك :

- الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص٣٩٩ - ٤٠٠، البلاذرى: فتوح البلدان، جـ٣ ص ١٤، وابن خلدون : تاريخه ، جـ ٣ ص ٦٦ .

(٤١) الطبرى : تاريخه، جـ٦، ص ص ٤٠٤ - ٤٠٩ .

(٤٢) نفس المصدر، جـ٦ ص٤٢٤، والبلاذرى : المصدر السابق، جـ٣ ص ٥١٦ وابن خلدون : تاريخه، جـ٣ ص ٧١ .

الأول لقتيبة كان لإستعراض القوى وتخويف الأمراء الأتراك المحليين من ناحية(٤٣) ومن ناحية أخرى للتعرف على الميدان الذى عزم قتيبة أن يبنى فيه مجره العربى لذلك سرعان ما عاد إلى مرو بعد أن حقق أهدافه استعدادا لجولات لاحقة .

عبر قتيبة بن مسلم إلى ماوراء النهر مرات عديدة لكنه لم يجعل قصبة الصغد ومعقل مقاومتهم – سمرقند – فى طليعة أهدافه ، ويرى د. مؤنس أن قتيبة "سار على نفس الخطة التى سار عليها آل المهلب وهى خطة الضربات السريعة المتلاحقة على الأعداء فلا يترك لهم وقت للتجمع ووضع الخطط لمواجهة العرب، وقد امتاز قتيبة – فى رأيه – على المهالبة بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة ويحدد لها وجهة معينة ويجتهد فى الوصول إلى ما يقصده غير عابئ بالمصاعب معتمدا على بسالته النادرة وروح القيادة التى امتاز بها وإيمانه العميق بالإسلام"(٤٤) .

والحق أننا مع الدكتور مؤنس فيما مدح به قتيبة من خلال طيبة غير أننا لا نرى أن قتيبة قد سار على خطة المهالبة لأن خطتهم لم ترق إلى المستوى الذى كانت عليه خطة قتيبة بن مسلم، فقد عبر المهلب إلى كش ولم يكن ينوى تجاوزها وإنما "مكث المهلب سنيتن مقيما بكش فقيل له لو تقدمت إلى الصغد وما وراء ذلك، قال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين"(٤٥) فأين هذا من قتيبة الذى كان يتطلع إلى الصين

---

(٤٣) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ص ٤٢٤ – ٤٢٥ .
والبلاذرى : المصدر السابق، جـ٣ ، ص ص ٥١٦ – ٥١٧ .
(٤٤) أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣١ .
(٤٥) الطبرى : تاريخه، جـ ٦ ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

ووصل حتى كاشغر، ولم تكن خطوات بنى المهلب فيما وراء النهر بأسرع من خطى أبيهم بل كانت وئيدة تمليها رغبتهم فى توطيد مركزهم فى ولاية خراسان ومن ثم يصعب علينا أن نرقى بخطة المهالبة فيما وراء النهر إلى مستوى خطة قتيبة التى كانت تهدف إلى جعل ما وراء النهر ولاية إسلامية واتخاذها نقطة انطلاقة نحو فتوح أبعد .

كان العبور الثانى لقتيبة بن مسلم سنة ٨٧هـ إلى بيكند لموقعها الاستراتيجى على رأس المفازة المؤدية إلى بخارى ولشهرتها التجارية وثرائها(٤٦) ليدعم بما سيحوزه من أموالها قدراته العسكرية وليجزل العطاء لجنده تحميساً لهم وتقوية لهم على العمليات الكبيرة القادمة ، وقد أظهرت الوقائع حسن تخطيط قتيبة فقد حصل فعلا من بيكند على مغانم كثيرة "وقوى المسلمون فاشتروا السلاح والخيل وجلبت إليهم الدواب وتنافسوا فى حسن الهيئة والعدة"(٤٧). وبذلك تهيأ جند قتيبة للقيام بفتوحات كبيرة فعبر بهم فى العام التالى سنة ٨٨هـ إلى بخارى ففتح بعض نواحيها(٤٨) لكنه لم يتمكن من فتح بخارى نفسها إلا فى سنة ٩٠هـ بعد مقاومة ضاربة استعان فيها "وردان خداه" ملك بخارى بالصغد والترك ومن حولهم(٤٩) . وقد أدى

---

(٤٦) نفس المصدر ، جـ ٦ ص ٤٣٠ وابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ١٠٧ .

(٤٧) الطبرى : تاريخه، جـ ٦ ص ٤٣٢ .

وابن اعثم الكوفى : الفتوح ، جـ ٧، ص ٢٢١ .

(٤٨) الطبرى : تاريخه، جـ ٦، ص ٤٣٢.

(٤٩) نفس المصدر ، جـ ٦، ص ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

وابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ص ١١٣ .

فتح بخارى إلى هيبة الصغد لقتيبة وخاف ملك سمرقند مغبة معاداة المسلمين فطلب من قتيبة الصلح على فدية يؤديها إلى قتيبة ، ولما كان وقت الإستيلاء على سمرقند لم يحن بعد فى خطة الفاتح الباهلى فقد قبل من طرخون الدية وأخذ منه رهنا حتى يستلم منه ما صالحه عليه(٥٠).

وفى سنة ٩١هـ مهد قتيبة لفتح سمرقند، بغزو نواحيها كش ونسف ولم يتعرض له طرخون خوفا منه وأدى إلى عبد الرحمن بن مسلم - أخى قتيبة - ما كان قد صالح عليه فدفع إليه عبد الرحمن الرهن(٥١). لكن سمرقند لم تعد بعيدة عن متناول يد قتيبة وقد قدم له الصغد أنفسهم سببا للتنصل من الصلح الذى كان قد عقده مع طرخون، إذ ثار الصغد على ملكهم طرخون ولاموه على أداء الجزية لقتيبة وعزلوه ونصبوا بدلا منه غوزك ملكا عليهم وحبسوا طرخون فانتحر فى محبسه(٥٢) .

ونقض غوزك الصلح الذى كان سلفه قد عقده مع قتيبة وبات من المتوقع أن يهاجم قتيبة بن مسلم سمرقند وملكها الجديد غوزك، لكن القائد الباهلى الماهر بنى خطته على المناورة والتمويه وإرهاق العدو، فأظهر أولا أنه يريد الخروج إلى الصغد فعبأ الصغد قواتهم لمدافعته لكنه اتجه إلى خوارزم بغتة وتمكن من فتحها بسهولة فتوهم الصغد - الذين أرهقتهم التعبئة العامة واستنفار كافة طاقاتهم - أن قتيبة لن يغزوهم فى ذلك العام لإنشغاله بخوارزم فاطمأنوا واسترخوا فى الوقت الذى كان قتيبة فيه يخطط لمباغتتهم

---

(٥٠) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ٤٤٥ وابن الأثير : الكامل، جـ ٤ ص ١١٤.

(٥١) الطبرى تاريخه، جـ ٦ ص ٤٦٣ وابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ١١٨ وابن خلدون : تاريخه، جـ ٣ ص ٧٥ .

(٥٢) الطبرى فى تاريخه جـ٦ ص ٤٦٣ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ١١٨ .

فى سرية تامة، وحرصا منه على السرية والتمويه أمر أخاه عبد الرحمن أن يتبع الأثقال إلى مرو ثم كتب إليه سرا وهو فى الطريق أن يوجه الأثقال إلى مرو ويتحول هو بمن معه من الفرسان والرماة إلى سمرقند فى سرية تامة وكتمان شديد على أن يلحق به قتيبة هناك(٥٣) .

فوجئ الصغد وملكهم غوزك بقتيبة وجيشه على مشارف سمرقند فلم يستطيعوا له دفعاً(٥٤) حتى نزل على سمرقند وحاصرهم شهرا لكن حصانة المدينة حالت دون احكام حصارها فقاتلها من جهة واحدة(٥٥) ، وخاف الصغد من حصار طويل لم يستعدوا له فاستنجدوا بملك الشاش واخشيد فرغانه وخاقان الترك وخوفوهم من أن المسلمين سيتوجهون إليهم إذا استولوا على سمرقند، فإستجاب ملوك الترك جميعا لنداء الصغد ووجهوا إلى سمرقند جيشا من خيرة فرسانهم وأبطالهم يقوده أحد أبناء خاقان الترك وكانت خطتهم مباغته جند قتيبة المشغولين بحصار سمرقند، لكن عيون قتيبة أخبروه عن هذا الجيش فأعد له كمينا بقيادة أخيه صالح بن مسلم فتمكن من الإيقاع بالمدد التركى فى مذبحة عظيمة لم ينج منها إلا نفراً قليلاً غنم صالح بن مسلم وجنده مغانم كثيرة، فانكسر أهل سمرقند وضعفت روحهم المعنوية بينما شدد قتيبة الحصار وأمر برمى أسوار سمرقند بالمجانيق رميا متواصلا حتى أحدث فيها ثلمة وأمر جنده أن يلحوا على تلك الثلمة ويركزوا عليها ليوسعوها ويدخلوا المدينة منها فأسقط فى يد أهل سمرقند وسارعوا إلى طلب الصلح

---

(٥٣) الطبرى تاريخه : جـ ٢ ص ٤٧٢ وابن اعثم الكوفى : الفتوح، جـ ٧ ص ٢٣٦ – ٢٣٨ .

(٥٤) الطبرى تاريخه : جـ ٦ ص ٤٦٨ وابن خلدون : تاريخه ، جـ ٣ ص ٨٦ .

(٥٥) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ٤٧٣ وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ص ١٢٦.

من قتيبة(٥٦) وآثر قتيبة حقن الدماء فأجاب أهل سمرقند إلى الصلح الذى طلبوه ضاربا بذلك المثل على سماحة الإسلام والمسلمين لكنه شرط عليهم أن يؤدوا إلى المسلمين ألفى ألف درهم عاجلة ثم يؤدون بعد ذلك جزية آجلة سنوية قدرها مائتى الف درهم بالإضافة إلى جزية من الرءوس تكون من الشباب ليس فيهم صبى ولا شيخ ولا عيب(٥٧) وأن تحرق الأصنام ويأخذ المسلمون حليتها، وأن يخرج أهل سمرقند جميعا من مدينتهم ليدخلها قتيبة وجنده وأن يبنى له فيها مسجد ويوضع له منبر ليصلى ويخطب ثم يتغذى ويخرج(٥٨).

لم يجد أهل سمرقند بداً من قبول شروط قتيبة بن مسلم فوافقوا عليها جميعا، فأرسل إليهم عشرة من رجاله، رجلان من كل خمس من أخماس جيشه، فقبضوا من أهل سمرقند ما صولحوا عليه(٥٩) ودخل قتيبة بن مسلم والمسلمون سمرقند مكبرين فخطب وصلى وتغدى حسبما اتفق عليه من قبل .

---

(٥٦) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ٤٧٤ وابن اعثم الكوفى : الفتوح، جـ٧ فى ٢٤ - ٢٤٣ .

(٥٧) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ٤٧٥ والبلاذرى : فتوح البلدان، جـ٣ ص ٥١٨ وابن اعثم الكوفى : الفتوح، جـ ٧ ص ٢٤، وابن الأثير: الكامل جـ٤ص ١٢٧ وابن خلدون : العبر ، جـ٣ ص ٧٦ .

- ولكن اليعقوبى (تاريخه، جـ٢ ص ٢٨٧) يجعل ما صالحهم عليه قتيبة ثلاثة آلاف درهم سنويا . أما الرؤوس فقد قدرها الطبرى وابن الأثيرثلاثين ألف رأس وزادها الذهبى (العبر، جـ١ ص ٧٩) إلى مائة ألف رأس، لكن ابن اعثم الكوفى يقدرهم بثلاثة آلاف رأس من الرقيق . وهذا الرأى الأخير اكثر معقولية .

(٥٨) ابن أعثم الكوفى : الفتوح ، جـ ٧ ص ٢٤٣ .

(٥٩) الطبرى : تاريخه، جـ ٦ ص ٤٧٥ .

تختلف الروايات فيما جرى من قتيبة بعد ذلك فى سمرقند، منها ما يذكر أنه رفض الخروج عن سمرقند لكنه ترك لأهلها حرية الاختيار بين البقاء فيها أو الخروج عنها وأنه ادخل إليها جندا من المسلمين للإقامة فيها(٦٠)، ومنها ما يذكر أن قتيبة اتم لغوزك ملك سمرقندما صالحه عليه وكتب له عهدا بذلك(٦١) .

---

(٦٠) نفس المصدر، نفس الصفحة وابن الأثير: الكامل، جـ ٤ ص ١٢٧ .

(٦١) ذكر اليعقوبى (تاريخه، جـ٢ ص ٢٨٧) نصا موجزا لهذا العهد جاء فيه "هذا ما صالح عليه قتيبة بن مسلم غوزك اخشيد الصغد افشين سمرقند على الصغد وسمرقند وكش ونسف، صالحه على ثلاثة آلاف درهم يؤديها غوزك إلى رأس كل سنة" .

لكن ابن اعثم الكوفى (الفتوح ، جـ٧، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٦) أورد لنا نصا أكثر تفصيلا جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم" هذا ما صالح عليه قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلى غوزك بن اخشيد أفشين الصغد أنه صالحه وشرط له بذلك عهد الله وميثاقه ..... فصالحه على سمرقند ورسا تيقها كش ونسف أرضها ومزارعها وجميع حدودها على ألفى ألف درهم عاجلة ومائتى الف درهم فى كل عام وثلاثة ألاف رأس من الرقيق ليس فيهم صبى ولا شيخ ... فما أعطى من ذلك من جزية أرضه من السبى يحسب له كل رأس بمائتى درهم وما كان من الثياب الكبار كل ثوب بمائة درهم والصغار بستين درهما وما كان من حرير فكل شقة بثمانية وعشرين درهما والذهب الأحمر كل مثقال بعشرين درهما والفضة البيضاء مثقال بمثقال، وعلى قتيبة بن مسلم العهد والميثاق أنه لا يعمل على غوزك بن اخشيد أفشين الصغد لشئ ولا يغدر به ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه فإن خرج على غوزك بن اخشيد عدو من الأعداء فعلى قتيبة أن ينصرنه ويعاونه على عدوه ويقول قتيبة بن مسلم بأنى قد ملكتك ياغوزك بن اخشيد سمرقند وارضها وحدودها وكش ونسف وبلادها وحصونها وفوضت إليك أمرها وأخذت خاتمك عليها لا يعترض عليك معترض وإن الملك من بعدك لولدك أبدا ما دامت لى ولاية خراسان، شهد على ذلك (أسماء ١٤ شاهد) وكتب ثابت بن أبى ثابت كاتب قتيبة فى سنة أربع وتسعين وختم قتيبة الشهود بخواتيمهم على هذا العهد ودفعه إلى غوزك بن اخشيد .

يبدو أن قتيبة بن سلم منح أهل سمرقند نوعاً من الحكم الذاتى فأبقى عليهم حاكمهم غوزك، لكنه ترك فى المدينة حامية عربية قوية كثيرة العدد والعدة لمعاونة غوزك ضد الأعداء من ناحية ويضبط أهل سمرقند ومراقبتهم من ناحية أخرى، وقد جعل قتيبة على رأس هذه الحامية أخاه عبد الرحمن بن مسلم(٦٢) الذى أظهر من قبل كفاءة وخبرة بحروب ما وراء النهر .

لكن أهل سمرقند اعتبروا بقاء هذه الحامية فى مدينتهم غدرا بهم(٦٣)، فثاروا على الحامية العربية عقب عودة قتيبة إلىمرو، وشجعهم على هذه الثورة خاقان الترك، فكتب عبد الرحمن بن مسلم إلى أخيه قتيبة يخبره ويستمده، لكن حلول الشتاء أعاق حركة قتيبة بن مسلم فتحصن أخوه عبد الرحمن والحامية بسمرقند وامتنعوا فيها حتى انحسر الشتاء فأسرع قتيبة إلى ما وراء النهر فهزم الترك وأخمد ثور أهل سمرقند(٦٤) .

لاتخبرنا المصادر صراحة عما أنزله قتيبة بأهل سمرقند من عقاب بعد أن أخمد ثورتهم لكننانستطيع أن نستشف منهابعض الإجراءات الصارمة التى اتخذهاقتيبة عقابا لأهل سمرقند وردت فى المصادر فى غير سياق الأحداث .

---

(٦٢) ابن اعثم الكوفى: الفتوح، جـ٧ ص٢٤٦واليعقوبى:تاريخه، جـ٢ ، ص ٢٨٧.
- ويذكر ابن خلدون (العبر، جـ٣ ص ٧٦) أن قتيبة اكره اهل سمرقند على ان يقيم الجند فيها .

(٦٣) قيل أن أهل سمرقند شكوا إلى عمر بن عبد العزيز أن قتيبة دخل مدينتهم واسكنها المسلمين على غدر فأمر عمر بن عبد العزيز عامله أن ينصب لهم قاضيا فنصب لهم القاضى جميع بن حاضر الناجى فحكم بإخراج المسلمين على أن ينايذوهم على سواء فكره أهل سمرقند القتال وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم (البلاذرى : فتوح البلدان، جـ٣ ص ٥١٩) .

(٦٤) اليعقوبى : تاريخه ، جـ ٢ ص ٢٨٧ .

ذكر الطبرى أن قتيبة بن مسلم رجع إلى مرو "واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جندا كثيفا وآلة من آلة الحرب الكثيرة وقال لا تدعن مشركا يدخل من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله وإن وجدت معه حديدة سكينا فما سواه فاقتله وإن أغلقت الأبواب ليلا فوجدت فيها أحدا منها فاقتله(٦٥). وذكر ابن الأثير أن قتيبة أمر غوزك بالإنتقال عن سمرقند فانتقل(٦٦) .

إذا وضعنا عبارتى الطبرى وابن الأثير فى سياقهما المناسب للأحداث فإن ما فيهما من إجراءات لا تلائم فتح الصلح الذى فتحه قتيبة لسمرقند سنة ٩٣هـ وكتب عهده سنة ٩٤هـ، لكن هذه الإجراءات الصارمة يمكن أن تكون عقوبات رادعة أنزلها قتيبة بأهل سمرقند بعد أن أخمد ثورتهم(٦٧) .

ويبدوا أن هذه العقوبات قد نجحت فى ردع أهل سمرقند فالتزموا بالطاعة التامة حتى أنهم لم ينتهزوا فرصة مقتل قتيبة بن مسلم ليعاودوا التمرد والثورة وإنما ظلوا على الطاعة والسكينة حتى قدم إليهم عامل من قبل يزيد ابن المهلب الذى ولاه سليمان بن عبد الملك على خراسان فدخل عامل يزيد سمرقند دون أدنى معارضة من اهلها(٦٨) ثم توالى على سمرقند عمال

---

(٦٥) تاريخ الطبرى ، جـ ٦ ص ٤٨٠ .

(٦٦) الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ص ١٢٧ لكن ابن خلدون (العبر، جـ٣ ص ٧٦) يذكر الأمر معكوسا ويجعل غوزك هو الذى قال لقتيبة انتقل عنا فانتقل .

(٦٧) فطن بارتولد (تركستان منذ الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٣٠٤ هامش ٤٤) إلى احتمال أن تكون هذه الإجراءات قد اتخذت بعد اخماد ثورة أهل سمرقند .

(٦٨) يجعل الطبرى (تاريخه جـ٦ ص) وابن الأثير (الكامل جـ٤ ص ١٤٩) هذا العامل معاوية بن يزيد بن المهلب بينما يجعله اليعقوبى (تاريخه جـ٢ ص ٢٨٧) مخلدا دون توضيح هل هو مخلد بن يزيد أو مخلد بن المهلب.

الدولة الإسلامية فأقاموا بها واتخذوها قاعدة لهم فيما وراء النهر .

هكذا تم فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٩٣هـ ليكون فتحها تتويجا لجهوده المتواصلة فى فتوح ما وراء النهر ولتصبح سمرقند منذ فتحها قاعدة للحكم الإسلامى فيما وراء النهر .

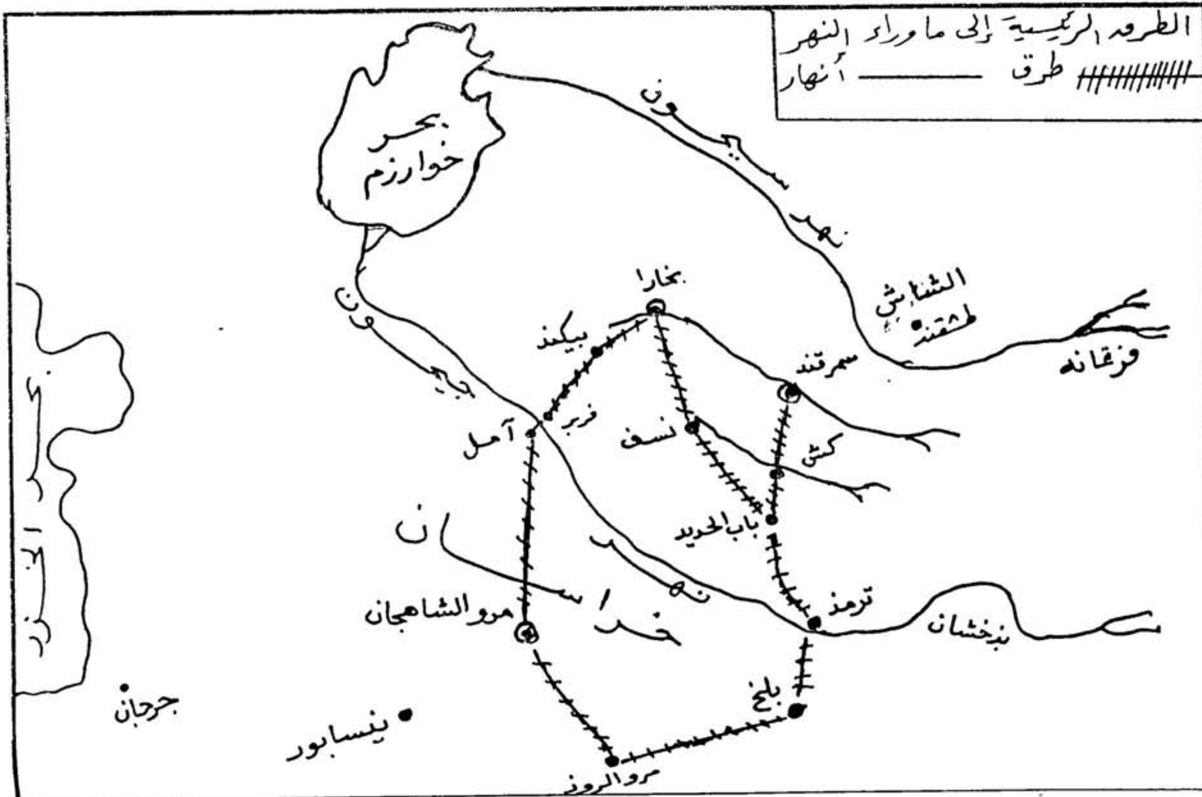
وكان دخول أهل سمرقند فى الإسلام هو الضمان الحقيقى لالتزامهم بالطاعة من جهة، ومن جهة أخرى خطوة لازمة على طريق انتشار الإسلام فى جميع بلدان ما وراء النهر، وقد أدرك ذلك فاتح سمرقند قتيبة بن مسلم الباهلى فعمل منذ فتحها على إدخال أهلها فى الإسلام فحطم ما فى سمرقند من أصنام وأخمد ما بها من نيران وبنى بها لأول دخوله اياها مسجدا يشع نور الإسلام فى سمرقند وما حولها. ويبدو أن مسجد قتيبة هذا هو نفسه جامع سمرقند الذى كان فى وسطها بينه وبين القهندز عرض الطريق(٦٩) ولم تكن الحامية التى اسكنها قتيبة سمرقند ذات صبغة عسكرية فقط وإنما كانت لها أيضا مهمة تعليمية وهى تعليم أهل سمرقند الإسلام، إذ ضمت تلك الحامية نفر من علماء المسلمين كان منهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير(٧٠) وفضلا عن هذا فقد أدخل قتيبة بن مسلم إلى سمرقند جماعة من المسلمين وعيالاتهم وأسكنهم فيها(٧١) فكان لمخالطتهم أهلها أثر حميد فى تعريف أهل سمرقند بالإسلام واستمالتهم إليه، وأدى ذلك كله إلى انتشار الإسلام فى سمرقند لتصبح سمرقند بعد فتحها وانتشار الإسلام فيها قاعدة إسلامية راسخة فيما وراء النهر .

---

(٦٩) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٧٧ .

(٧٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، جـ ٣ ص ٥١٨ .

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ١٣٥ .


الطرق الرئيسية إلى ما وراء النهر
طرق
أنهار
بحر خوارزم
نهر سيحون
نهر جيحون
بحر الخزر
خراسان
بخارا
بيكند
فربر
آمل
نسف
سمرقند
كش
باب الحديد
ترمذ
بلخ
مرو الشاهجان
مرو الروذ
نيسابور
جرجان
الشاش
بنجكث
فرغانة
بذخشان

مـــراجـــع البحـــث

١ - **ابن الأثيـر** : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد

الكامل فى التاريخ. بيروت / ب - ت

٢ - **الإدريسى** : الشريف ابو عبد الله محمد الحمورى الحسنى

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، بيروت/ ١٩٨٩

٣ - **الاصطخرى** : أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارى

مسالك الممالك. ليدن/ ١٩٢٧

٤ - **ابن أعثم الكوفى** : أبو محمد أحمد

كتاب الفتـوح. حيدر أباد الدكن / الهند

٥ - **بارتولـد : فاسيلى فلاد يميروفتش**

تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى

ترجمة صلاح الدين عثمان بن هاشم

الكويت / ١٩٨١

٦ - **البلاذرى** : أحمد بن يحى بن جابر

فتوح البلدان

تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة / ١٩٧٨

٧ - **حسين مؤنس** : أبو الفرج عبد الرحمن بن على

أطلس تاريخ الإسلام القاهرة / ١٩٥٧

٨ - **ابن الجـوزى** : أبو الفتوح عبد الرحمن بن على

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم

تحقيق محمد عبد القادر عطا وأخيه مصطفى.

بيروت/ ١٩٩٢

٩ - **ابن حوقل** : ابو القاسم النصيبى

صورة الأرض. بيروت / ١٩٧٩

١٠ - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد

العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت / ١٩٩٢

١١ - **خليفة بن خياط** : أبو عمرو العصفرى الملقب بـ (شباب)

تاريخ خليفة بن خياط

تحقيق أكرم ضياء والعمرى بيروت / ١٩٧٧

١٢ - **شـــيدر** :

دائرة المعارف الإسلامية - مادة سمرقند

١٣ - **الطبـرى** : أبو جعفر محمد بن حرير

تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

القاهرة / دار المعارف / ١٩٧٩

١٤ - ابن عبد المنعم الحميرى :

الـروض المعطـار فى خبـر الأقطـار

تحقيـق احســان عباس بيروت / ١٩٧٥م

١٥ - **فلهوزن يوليوس** :

تاريــخ الدولـة العربيــة

ترجمة محمد عبد الهـادى أبو زيـدة القاهرة / ١٩٥٨ .

١٦ - **القزوينى** : زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت / ب . ت

١٧ - **قدامه بن جعفر** : ابو الفروح الكاتب البغدادى

كتاب الخــراج وصنعة الكتابة ، **نشر دخويه**

١٨ - **القلقشندى** : أبو العباس أحمد بن على

صبح الأعشى فى صناعة الانشا. القاهرة / ١٩٨٥

١٩ - **لسترنج** : كى

بلدان الخلافة الشرقية

ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد بيروت/١٩٨٥

٢٠ - **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله

معجم البلـدان بيروت / ب . ت

٢١ - **اليعقـوبى** : أحمد بن أبى يعقوب واضح

- كتاب البلـدان. ليدن / ١٨٩٣

- تاريخ اليعقوبى. بيروت / ١٩٨٠

المجتمع الأنـدلسى فى عصر الولاة

٩٢ - ١٣٨هـ

د. راضى عبد الله عبد الحليم
كلية التربية - جامعة القاهرة

كان عصر القوط عصراً مليئا بالفوضى والاضطراب وعدم الاحساس بالأمن، حتى بدأت المدن الكبيرة تضمحل وتتحول إلى مدن صغيرة، بل تحول بعضها إلى قرى وحصون، ويرجع السبب الأول فى ذلك، إلى فساد المجتمع الاسبانى وقيامه على الطبقات المتحاجزة فيما بينها، حيث أن القوط عندما فتحوا البلاد، لم يغيروا كثيراً من نظم المجتمع التى كانت سائدة فى العصر الرومانى(١)، فكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال، وتفرض عليه، رسوم الرق والعبودية، وتستبيح منه كل الحريات والحرمات، فزاد البغى والظلم(٢)، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء، فى حال هى وسط بين الحرية والرق، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون فى سبيل الأقلية الغنية المسيطرة، كما أن الأغنياء انتلفوا مع القوط لكى يحتفظوا بأملاكهم، فاستقر الكثير من هؤلاء فى المزارع، واشتغلوا بالزراعة، وإن بقى بعضهم بالمدن يعيشون على اتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن، وعلى هذا النحو يمكننا أن نميز فى اسبانيا القوطية بين طبقتين، طبقة الأحرار ، وطبقة العبيد، وهما طبقتان متحاجزتان،

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٦٢.

لايمكن الربط بينهما حتى عن طريق الزواج، ولما لم يكن هؤلاء القوط بهم ميل إلى المشاركة فى صناعة أو زراعة، فقد ظلوا غرباء عن البلاد إلى حد كبير، وأقاموا فى إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية، يؤيدها الأشراف وملاك الأراضى من بنى جنسهم وأهل البلاد الأصليين على السواء، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الرومانى القديم، فانقسمت البلاد إلى عدة أقاليم ومدن، وكان يحكم كل اقليم دوق، وكل مدينة كونت، وكانت كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين، يتولون النواحى المالية والقضائية والحربية(٣) وكان الملك يستبد بحكمه، يفعل فى دولته ما يشاء، فيصدر القوانين وينفذها كما يريد، على الرغم من وجود مجلس النبلاء، حيث كانوا لايعترفون بنظام وراثة العرش أو الوصاية لشخص معين، وكانوا يشترطون فى اختيار هذا الملك أن يكون قائدا شجاعا، وعيب هذا النظام أن الظافر بالعرش لابد أن يتولاه بحد سيفه، وقد كان لذلك نتائج سيئة، إذ أثار كثيرا من المشاكل والقلاقل بسبب الدسائس التى كان يدبرها النبلاء طمعا فى العرش، لذلك كان انتقال العرش من ملك إلى ملك يقترن فى كثير من الأحيان بمؤامرات دامية(٤)، وعدد ملوك القوط ستة عشر ملكا آخرهم لذريق(٥) وإن

---

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح حتى بداية عهد الناصر، ص٦٤ – جون جلوب، امبراطورية العرب، ترجمة خيرى حماد، ص ٢٤٠ .

(٣) د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الأموية، ص٢١.

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٦٣ .

(٥) المقرى، أحمد بن محمد، نفخ الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، ص ١٣٩ .

كان العديد من المصادر(٦) تذكر أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك، ولا بصحيح النسب فى القوط، وإنما نال الملك عن طريق الغصب، عندما مات الملك فيطشة، انتزعه من أولاده، وكان من القواد والفرسان، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فولوه أمرهم، وكان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد، فجاء ليقضى على تلك الفتن والمنازعات والرق والعبودية، وليحمل بين طياته، نعم العدل والحرية والمساواة، للناس جميعاً، وليعطى كل ذى حق حقه، وبالرغم من اشتغال العرب بأمر الفتوحات وتوطيد نفوذهم، إلا أنه فى أعوام قلائل، استطاعوا تنظيم إدارة تلك البلاد المفتوحة، وبثوا روح العزم والأمل بين رعاياها، فنشطت الزراعة و الصناعة والتجارة بعد ركودها، وهبت ريح من الرخاء والدعة، على مجتمع عانى من الجور والعسف والفاقه الكثير.

فرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم، وترك للناس حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم، واختاروا فى كثير من الأحيان حكامهم من أبناء جنسهم، يعهد إليهم بسن الضرائب المفروضه والاشراف على النظام والأمن، علاوة على ما كان يتمتع به العرب من تسامح دينى، ظهر أثره فى عدم تعرض أحد لظلم أو إرهاق بسبب الدين أو

---

(٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق إبراهيم الابيارى ، ص ١٥ .

- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الابيارى ، ص ٢٩ .

- ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفى بروفنسال، جـ٢، ص ٣٢ .

الاعتقاد، وكانت الجزية فقط هى كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه تلك الجزية، وأصبح كالمسلم سواء بسواء، فى جميع الحقوق والواجبات، إلى غير ذلك من الأمور والأفعال التى جعلت هؤلاء يسارعون إلى الدخول فى الإسلام وتشرب الثقافة العربية(٧) .

أما عن فترة عصر الولاة فقد دامت ستة وأربعين عاما هجريا(٩٢هـ / ٧١١م – ١٣٨هـ / ١٧٥٦م) بعدها أعلن قيام امارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل على الأندلس جميعه، وبدأت الدولة الأموية فى الأندلس، وجرت العادة أن ينظر المؤرخون إلى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة، لا أهمية لها فى تاريخ الأندلس الإسلامى بل اعتبرها البعض منهم، فترة عابرة أنفقها العرب فى منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته، إلا أننا نرى أنها فترة أهم من أن ينظر إليها هذه النظرة السطحية، لأنها تمثل الفترة الأولى التى دخل فيها المسلمون تلك البلاد واستقروا بها، وأسسوا كيانهم السياسى والإدارى، الذى استمر حوالى ثمانية قرون، ومن جهة أخرى، رغم تلك الفترة القصيرة التى استمر فيها هذا العصر، إلا أنها بمثابة اللبنة الأولى التى قامت عليها كافة التنظيمات الإجتماعية، طيلة الوجود الإسلامى فى الأندلس، علاوة على أسس النظم الإدارية والمالية التى جرت بمقتضاها الأمور بعد ذلك، فضلا عن تلك الجهود الحربية العظيمة، التى قاموا بها فيما وراء البرتات، وفى خلال تلك الفترة أيضا ظهرت الولايات النصرانية الإسبانية فى شمالى غرب الجزيرة

---

(٧) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦٣ .
- على الجارم، قصة العرب فى إسبانيا، ص ٥٢ .
- جون جلوب ، المرجع السابق، ص ٢٥٨ .

وشمالها، علاوة على نشأة العداوة بين العرب والبربر، وكل تلك ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية باقية .

ابتدأ عصر الولاة بمغادرة القائدين موسى بن نصير، وطارق بن زياد للبلاد بعد أن أنهيا فتح غالبية مناطق شبه الجزيرة الأيبيرية عام (٩٥هـ / ٧١٩م) وكان موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق فى العام المذكور، قد اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس، فكان أول ولاتها من المسلمين، وقيل إن الخليفة سليمان بن عبد الملك قد أقر هذ الاختيار(٨) فقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته زهاء عامين، عنى فيهما بتحصين الثغور، وقمع الفتن والعصيان(٩) واقتنع عدة أماكن وحصون، وأبدى همة كبيرة فى تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديوانا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، لتوافق مشارب الرعاياالجدد، ولتجمع حولها كلمةالمسلمين من مختلف القبائل، إلى غير ذلك من الأعمال(١٠)، ثم تعاقب بعده نحو عشرين من الولاة، حكم هؤلاء باسم الخلافة الأموية فى دمشق فى ظل تبعية إدارية لوالى القيروان فى إفريقية، ورغم النشاط العسكرى الملحوظ الذى قاده غالبية هؤلاء الولاة خلف جبال البرتات، إلا أن الأحوال السياسية كان يشوبها الكثير من التوتر بسب الاختلافات التى نشبت بين مختلف العناصر، التى تألف منها المجتمع الأندلسى فى هذا الوقت ، وقد استغل ذلك الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن

---

(٨) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٩) ابن الأثير ، أبو الحسن على بن أبى الكرم ، الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ، ص ١٢٤ .

(١٠) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ١١٠.
– ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها ص ٢١١ .

هشام بن عبد الملك، فى دخول الأندلس ونجاحه فى انشاء دولة قوية على أنقاض هذا العصر وكان دخوله عام (١٣٨هـ /٧٥٠م)(١١) وشهدت الأندلس فى هذا العصر تنوعا فى العناصر التى ضمنتها إسبانيا الإسلامية من حيث الجنس والعقيدة والثقافة، فضمت الأندلس مع العرب الفاتحين (البلديون) والعرب الوافدين (الداخلون) جماعة من الإسبان المسالمة أى الذين دخلوا فى الإسلام، ثم طائفة المولدين، وهم نتاج التزاوج بين رجال العرب ونساء الإسبان، ثم البربر الذين دخلوا بصبحة طارق بن زياد، أو الذين هاجروا من بلاد المغرب، إما بحثا عن المغانم، أو سعياً وراء الاستقرار، وبجانب هؤلاء طائفة العجم الذميين أو المستعربين، وهم الذين بقوا على دينهم فى ظل الحكم الإسبانى، ثم طائفة اليهود(١٢). فلنعرض لهذه العناصر فى شئ من التفصيل.

العــرب :

لم يكن دخول العرب الأندلس دفعة واحدة، بل كان دخولهم إليها على شكل موجات متتابعة، فقد رافقت جماعة منهم(١٣) حملة طارق بن زياد عام (٩٢هـ / ٧١١م)(١٤)، وكان عددهم فى هذه الحملة قليلاً نسبياً، بينما كانت

---

(١١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢، ص ٤٤ .

- أخبار مجموعه المصدر السابق، ص ٨٠ .

- ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(١٢) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١١٩.

(١٣) ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، ص ١٦ .

- عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق، ص ١٦ .

(١٤) طارق بن زياد بن عبد الله بن ألغو بن أرفاجون بن نيرغاسن بن الهات ابن ايتموت بن نفزاو ، مولى موسى بن نصير .

غالبيتهم من البربر(١٥)، وقد تميز بين تلك الجماعات مغيث الرومى الذى أرسله طارق بن زياد إلى قرطبة ، فاستطاع فتحها(١٦) .

أما المجموعة الثانية من العرب، فقد دخلت بعد حوالى عام من دخول طارق ابن زياد بصبحة موسى بن نصير، وكانت هذه الجماعة تضم حوالى اثنى عشر ألفا من العرب، معظمهم من القيسية واليمنية وموالى بنى أمية، ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين إلى موسى بن نصير، أى فى نواحى الجزيرة الخضراء واشبيلية وسرقسطة، وبعض نواحى متفرقة فى أقصى الشمال والشمال الغربى، فيما يسمى "ما وراء الدروب" واستقر معظم اليمنيين فى ناحية سرقسطة، وجماعة منهم فى قرطبة وضواحيها وفى بعض مناطق اشبيلية ومرسيه، أما القيسيون وكانوا قلة، فقد استقر معظمهم فى نواحى الجنوب(١٧)، فعندما أقبل الحر بن عبد الرحمن الثقفى إلى الأندلس عام (٩٧هـ / ٧١٦م) من قبل عبد الله بن يزيد مولى قيس والى إفريقية ، من

= - زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، د. زكى محمد حسن، د. حسن محمود، جـ ١، ص ٨٥. ويذكر ابن عذارى ، جـ٢، ص ٥، أنه مولى موسى بن نصير فى حين يذكر صاحب أخبار مجموعة ص ١٧ أنه من موالى صدف .

(١٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٢ - أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص ١٧، جون جلوب ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣، ٢٤٦.

(١٦) يذكر ابن عبد الحكيم، ص ٢٠٧، أن اسمه، معتب الرومى غلام الوليد بن عبد الملك، أما صاحب أخبار مجموعة، ص ١٩، فيذكره مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك، أما ابن عذارى ، جـ٢، ص ٩، فيذكر مغيثا مولى عبد الملك بن مروان.

(١٧) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ٢٠٧، د. حسين مؤنس، المرجع السابق ص ٣٥٥ .

قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك، بديلا لموسى بن نصير، الذى عزله الخليفة عن إفريقية وما وراءها من المغرب(١٨) اصطحب معه أربعمائة رجل من وجوه أهل إفريقية فكان هؤلاء أول طوالع الأندلس المعدودين، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمنيين، فمن المرجح أن غالبية هؤلاء كانوا منهم أيضا، وقد أقام هؤلاء فى قرطبة حتى يكونوا قريبين للوالى، لشد أزره عند الحاجة، وقد سمى هؤلاء بالبلدين أو أهل البلد، حيث أنهم استقروا فى الأندلس، واعتبروا أنفسهم أصحابا لها ومن أهلها(١٩) .

أما أهم تلك المجموعات فتلك التى رافقت بلج بن بشر بن عياض القشيرى عام (١٢٤هـ / ٧٤٢م) الذين نجوا من مذبحة العرب فى موقعة الأشراف ولجأوا إلى سبتة، وتحصنوا بها حتى سمح لهم بالعبور إلى الأندلس بعد أن أجهدهم الحصار، حتى أكلوا الدواب والجلود، وأشرفوا على الهلاك وكان عبد الملك بن قطن، والى الأندلس قد اضطر بهذا السماح، بعد أن ازداد مركزه حرجا فى الأندلس، نتيجة ثورات البربر فى شمال الأندلس،

---

(١٨) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٣٧ .

- يذكر صاحب أخبار مجموعة ، ص ٢٩، أنه لما بلغ الخليفة سليمان بن عبد الملك مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، شق ذلك عليه، فولى إفريقية، عبد الله بن يزيد لقريش لا أدرى لمن من قريش، ويذكر ابن عذارى، جـ٢، ص ٢٥، أن اسمه محمد بن يزيد ويؤيده فى ذلك ابن عبد الحكيم، ص ٢١٣.

(١٩) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤، ص ١١١.

- ابن عذارى ، المصدر السابق جـ٣، ص ٢٥ .

(٢٠) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٠، ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٣٠/٣١ .

إلا أنه اشترط عليهم مبارحة الأندلس، بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة، وقيل إن عدد الجند الذين صاحبوا بلج بن بشر، كان حوالى عشرة آلاف جندى منهم، ألفا مولى وثمانية آلاف عربى، وقد سمى عرب هذه المجموعة بالشاميين تميزا لهم عن البلديين، ولما كانت المجموعات السابقة، قد استقرت فى البلاد، وفى أحسن نواحيها، وتسموا بالبلديين كما أسلفنا، فقد كره هؤلاء أن يشاركهم مثل هذا العدد الكبير خيرات البلد، بل يحاول أيضاً أن يغلبهم عليها وكانوا يقولون لهم "بلدنا يضيق بنا، فاخرجوا عنا"(٢١).

ومنذأن وطأت أقدام هؤلاء إلى الأندلس، حتى بدأ النزاع ينشب بينهم، بل وتحول هذا النزاع إلى صراع بين العصبتين اليمنية والقيسية، وأمام تلك الصراعات، التى استطاع خلالها القيسيون اعتلاء مركز الصدارة خاصة فى ولاية ثعلبة بن سلامة العاملى، عام (١٢٤هـ/٧٤٢م)(٢٢)، لم ينقذ البلديين إلا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى، واليا على الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان والى إفريقية عام (١٢٥هـ/٧٤٣م) فجاء بصحبته ثلاثين رجلا من الشاميين وهى الطالعة الثانية الشاميين(٢٣) ولما كان أبو الخطار الحسام، رجلا من خيارأهل الشام من أهل دمشق، فقدرضىبه الشاميون والبلديون،فأطلق سراح الأسرىوالسبى،وسمىعسكره عسكرالعافية،وصارت الكلمة جامعة(٢٤)،

---

(٢١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢٢) ابن عذارى ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٣ - أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص ٤٧ .

(٢٣) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٢٤) أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص ٤٩ - عبد الواحد المراكشى، المصدر السابق، ص ١٣ - المقرى، المصدر السابق، ص ٢٣٧ - ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٣.

وأخرج ثعلبة بن سلامة العاملى، والوقاص بن عبد العزيز الكنانى، وعثمان بن أبى نسمة الخثعمى إلى طنجة وكذلك عشرة من قواد الشام، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن(٢٥) .

وقد بدأ أبو الخطار بداية طيبة، وأراد أن يستعين بآراء قوم ليسوا من اليمنية ولا من القيسية، فاستشار أرطباش شيخ أهل الذمة، وكان رجلا عاقلا مجربا(٢٦) فأشار بتفريق أهل الشام فى النواحى، لأن بقاءهم إلى جواره فى العاصمة وضواحيها، خطر على الحكام والمحكوميين، فعمل على تفريقهم فى الكور التى لم يكن فيها من البلديين أحد، وأنزلهم فى هذه النواحى، مع أصحابها من أهل الذمة، على أن يكون لهم ثلث الخراج، وللدولة الثلثان، وقد فرقهم أبو الخطار على تلك الكور بطريقة دبلوماسية ، حيث تخير لكل قوم ، ناحية تشبه إلى حد بعيد فى طبيعتها، تلك الأماكن التى كانوا قد وفدوا منها من الشرق **على النحو التالى** :(٢٧)

أهل دمشق بالبيرة

---

(٢٥) أخبار مجموعة، المصدر السابق، ص ٤٩، ابن عبد الحكم المصدر السابق، ص ٢٢١ .

(٢٦) يذكر ابن القوطية، ص ٣١، ص ٥٨، أن أرطباش أول من تولى وظيفة قومس وكان من عقلاء الرجال فى دنياه، ولاه ذلك عبد الرحمن بن معاوية وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه، صرفت إليه ، وكساه ووصله وولاه القماسة، فكان أول قومس بالأندلس ، والقومس كما ذكر السيد أو الأمير.

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٣ - ابن خلدون، المصدر السابق جـ٤، ص ١١٩ .

- ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٤.

- ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص ٢٦٦ .

أهل الأردن	برية
أهل فلسطين	بشذونة
أهل حمص	بإشبيلية
أهل قنسرين	بجيان
أهل مصر	بباجة وبعضهم بتدمير

وإذا استثنينا المستقرين الأوائل من البلديين، والقادمين الجدد من الشاميين فإن عدد العرب الداخلين إليها فى أعقاب الفتح وفى عصر الولاة كان محدوداً جداً، ولما توزع هؤلاء فى كافة أنحاء الأندلس، كانت مهمتهم فى الدرجة الأولى المحافظة على البلاد والاستعداد للدفاع عنها فى حالة الخطر .

ولما كانت كل قبيلة قد استقرت فى مناطق خاصة بها مع ما يتبعها من عشائر، فان التنظيم القبلى، أصبح هو السائد فى تلك الحالة، وهكذا رأينا فى الأندلس، قرى خاصة بكل قبيلة، تسمى باسمها مثل، منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة، ومنزل طئ (جنوبى مرسية) ودار بلى (شمال قرطبة)، ومنزل بنى أوس وغيرها، ورغم ذلك ظلت مدينة قرطبة، منزلا لكل قبيلة من العرب، بحيث لا نجد قبيلا عربياً إلا كان منه فى قرطبة وكذلك اشبيلية ونواحيها، واستجة وريــة وقبرة والجزيرة الخضراء وإلبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسرقسطة وشذونة وقرمونة وباجة[٢٨] ورغم ذلك كانت هناك مواضع لم يكسنها إلا قحطانيون مثل قلعة رباح (بين قربطة وطليطلة) دلاية قرية صالحة (قرب مالقة) قلعة خولان، برشلونة، ومواضع أخرى لم يكسنها إلا عدنانيون مثل مدينة مرسية، طلبيرة، بللسية[٢٩] .

---

(٢٨) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق، ص ٣٧٦ .

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٣٧٤ .

البـــربـــر :

لعب البربر دوراً كبيراً وهاماً فى فتح الأندلس، فإن طارقا لم يتم له هذا الفتح إلا بجيش جمهرته من هؤلاء، حيث لم يكن البربر ضعفاء كالأسبان الذين اصطبغوا بصبغة الرومان، ولكنهم كانو ممتلئين حياة وعزماً واقداماً، وكانوا يشبهون العرب إلى حد كبير فى كثير من الوجوه، فكان لهم قبائل كما لهؤلاء العرب، وكانت ميولهم السياسية ديموقراطية كالعرب، بل صفاتهم الحربية عربية فى أكثر مظاهرها(٣١) وقد شكل هؤلاء البربر المجموعة الثانية من المسلمين، وقد دخلت أعداد كبيرة منهم، إلى البلاد بصورة غير منتظمة، ولا سيما بعد أن علموا أنباء النصر الكبير، الذى أحرزه طارق بن زياد، على لذريق ملك القوط، فهبوا إلى عبور جبل طارق بكل ما وقعت أيديهم عليه من قوارب ومراكب، بغية الاستقرار فى تلك البلاد، والتماس الغنائم ولم تلبث البلاد أن امتلأت بهؤلاء المهاجرين والمغامرين كحد قول المقرى فى نفح الطيب(٣٢)، وقد ظلت بلاد المغرب مصدر هجرات البربر إلى الأندلس حتى قيام دولة بنى أمية، بل سنرى بعد ذلك كيف أن بعض خلفاء بنى مروان يستكثرون من بربر العدوة(٣٣). والواقع أننا لا نستطيع أن نقدر

---

(٣٠) الدليل على قوتهم تلك، أنهم عقب مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، عام ٩٨هـ، أصبحت الأندلس بلا وال، فقدموا عليهم أيوب بن حبيب اللخمى، ابن أخت موسى بن نصير، وبذا يكون هؤلاء قد اختاروا ثانى ولاة الأندلس الذى مكث فى ولايته ستة أشهر .

(٣١) ابن القوطية،المصدر السابق،ص٣٧-أخبارمجموعة،المصدر السابق، ص ٢٨.

(٣٢) يقول المقرى، ص ٢٨١ (وتسامع الناس من أهل بربر العدوة بالفتح على طارق، وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجهة، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق).

(٣٣) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٢٢ .

تلك الأعداد التى دخلت الأندلس مـن هؤلاء البربر، إلا أنـه مـن الواضـح أن عدد هؤلاء ربما فاق عدد العرب الداخلين فى حملة طارق بن زياد، وموسـى بن نصير، وقد توزع على طول الطريق التى سلكها كل من طارق وموسـى، واختار هؤلاء الأماكن التى تلائم طبيعتهم، فسكن غالبيتهم المنـاطق الجبليـة التى تماثل أماكن سكناهم الأصلية فى المغرب، حيث أن هؤلاء كـانوا فـى وضع أفضل من حيث اختيار أحسن وأفضـل المنـاطق، لأنهم كـانوا الطليعـة الأولى التى دخلت البلاد، علاوة على قربهم للمنطقة واطلاعهم عليهـا، بحكـم معيشتهم فى شمال إفريقيا، وهذا يبرهن على كذب من ادعـوا، أن العـرب قد اهتموا بالإستقرار فى الأماكن السهلة الخصبة وحرمان الـبربر منهـا، ودفعهـم إلى المناطق الوعرة الجبلية، بل إنهـم جميعـا اسـتقروا تقريبـاً فـى أنحـاء شبه الجزيرة الأيبيرية، وأن استقرار كلا الجانبين كان يخضع لعـامل المصادفـة لا غير، إذ لم تكن لديهم فى الغالب فكرة واضحة عما ستكون عليه هذه الأماكن.

ومن جهـة أخـرى فـالعرب الأوائـل الذيـن دخلـوا مـع طـارق بـن زيـاد وتسموا جميعاً بالبلديين، بل أن هؤلاء نفروا من العـرب الشـاميين، أتبـاع بلـج بن بشر، عندما أرادوا مشاركتهم فى أراضى وخيرات الأندلس.

أما بالنسبة للأماكن التى استقر فيهـا الـبربر، فـإن تحديـد ذلـك سـيكون عسيرا إذا قيس بالعرب، حيث أن تيار الهجـرات العربيـة الكبـيرة، قد انتهـت إلى حد كبير بنهاية عصـر الـولاه، فلـم يفـد علـى تلـك البـلاد إلا جماعـات أو بيوتات قليلة، اذا ما قورنت بتيار هجرة البربر الذى كـان تيـاراً متصـلاً، كمـا ذكرنابحكم الجوار، وحكم الجاذبيةالخاصة للأندلس علىبربرالشمال الافريقـى، وربما صاحب ذلك عوامل سياسية أخرى(٣٤). يذهب ابن خلدون(٣٥) إلـــى أن

(٣٤) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ص، ص ٣٧٩ .

(٣٥) ابن خلدون ، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٢ .

جميع البربر التى دخلت الأندلس مع الفتح وبعده قليل، كانت من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة وهذه القبائل كلهـا من زناتـة أو مـن البربر البتر، وكل منها أشبه بالشعب الكبير، التى تتفرغ عنه القبـائل الصغيرة، وكـانت بطونها متفرقة فى نواحى المغرب، أمـا ابـن حـزم(٣٦) فيضيـف فـى الجمهرة قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الأندلس، وهى، مغيلـة وملزوزة، ونفزه وأربـة ومعموذة ويذكر أيضا أن أمراء الثغر كانوا على **الوجه التالى :**

بنو هذيل	ليسوا من بنى رزين ولكن من مديونة بسنت برية	
بنو عيدوس	من سرته	من صدينة
بنو غزلون	من تيروال	فى شاطبة
بنو عميرة	من إلهاصة من نفرة	فى شاطبة
بنو رزين	من هوارة	فى السهلة
بنو ذى النون	من هوارة	فى وبذة
بنو فرة فرن	من هوارة	فى ماردة ومدلين
بنو نبيه وبنو أبى الأخطل		فى شذونة
بنو الفرج	من مصمودة	فى قصر مضى
بنو رسين	من مصمودة	
بنو عزون	من زنانة	فى سنتيرية

---

(٣٦) ابن حزم : أبو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسى- جمهرة أنساب العرب، تحقيق، عبد السلام هارون، ص ٤٩٩، ٥٠٠.

- الاصطخرى - أبو اسحاق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، تحقيق محمد حامد عبد العال، ص ٣٦.

بنو زروال	من مغيلة	فى شذونة
بلال	من نفزة	فى إلهاصة

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن حزم، كانوا أمراء على نواحيهم، مما يدل على كثرة بربرية فى تلك الأماكن ، ولما كـانت معظـم هذه المنـاطق مـن الثغـور، فالواضح أن معظم النواحى الشمالية كانت منازل للبربر فى ذلك الوقت.

الموالـــى :

يمكن أن نرجع أصل هؤلاء الموالـى بـالأندلس إلـى عدة أصـول أولهـا الذين اعتنقـوا الإسـلام فـى المشـرق، ورافقـوا الشـاميين الذيـن جـاءوا إلـى الأندلس(٣٧) برفقة بلج بن بشـر القشيرى(٣٨)، أمـا الأصـلان الثـانى والثـالث، فيرجعـان إلـى شـمال إفريقيـا ، حيـث كـان بعضـهم وهـم قلـة مـن الأفارقــة ، والبعض الآخر من البربر الذين دخلوا الإسلام ودخلوا فى ولاء بنـى أميـة أو عمالهم، ونلاحظ أن من بني هؤلاء قبيلتين بربريتين كاملتين، هما بنو الخليـع، موالـى يزيـد بـن عبـد الملـك، وبنـو والسـوس مـن موالــى عبـد العزيـز بـن مروان(٣٩).

---

(٣٧) منهم أمية بن يزيد الذى كان جده مولى لمعاوية بن مروان بن الحكم - ابـن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٤ ، ٥٣ .

(٣٨) يذكر ابن القوطية، ص ٤٠، وصاحب أخبار مجموعة ، ص ٣٦، أن كلثـوم بن عياض قدم إلى افريقية ، بصحبة بلج بن بشر، وثعلبـة بـن سـلامة العـاملى فـى عشـرة آلاف من بنى أمية، وعشـرين الفـا مـن بيوتـات العـرب، والمـراد هنـا ببنـى أميـة هـؤلاء، مواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس، لأنهم كانوا على اتصال وثيق بالأسرة الحاكمـة، فعرفوا بموالى بنى أمية، وكانت منطقة تركزهم الكبرى فى منطقتى إلبيرة وجيان .

(٣٩) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٤، ٥٣ .

أما الأصل الرابع للموالى ، فيرجع إلى أصول اسبانية ، فقد لحق بعض القوط أثناء فتح الأندلس بالشام، مثل قسى قومس(٤٠) الثغر وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك، فكان ينتمى بولائه إليه واستمر أبناؤه، موسى وزاهر فى هذا الولاء للأمويين فيالأندلس، وكان مطرف بن موسىبن فرتون،آخر الولاة المسلمين على (بنبلونة) حتى ثار عليه أهلها وقتلوه عام (١٨٣هـ - ٨٩٨م) .

وبقى هؤلاء الموالى إلى جانب الشاميين ، حتى أقبل أبو الخطار ويبدو أنه فرقهم فى النواحى فيمن فرق من الشاميين فتفرقوا فى نواحى رية وشذونة وتاكرنا، إلا أن غالبيتهم العظمى بقيت فى قرطبة وفيها زعماؤهم من أمثال، يوسف بن بخت وأمية بن يزيد وغيرهم (٤١) وكانت حالة هؤلاء الموالى بأصولهم المتعددة جيدة، بعكس ما كانوا عليه فى المشرق، حيث خدمتهم تلك الظروف المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال عصر الولاة وانصرافهم إلى النزاع فيما بينهم، فظل الموالى كتلة واحدة، يسعى اليمنيون والشاميون إلى كسب ودها وتأييدها، وسنحت لهم الفرصة أكثر بدخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، فاجتهدوا فى اقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه، ومنذ ذلك الوقت أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء بالأندلس واحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة، كلما طالت بالبيت الأموى الأيام فى الأندلس(٤٢). إلى جانب الحديث عن العناصر

---

(٤٠) قومس : كلمة لاتينية : والقومس فى الأصل مرافق الملك ونديمة، ثم صارت هذه التسمية فى أيام القوط بأسبانيا خاصة بولاة الكور .

- ابن حزم : المصدر السابق ، ص ٥٠٢ .

(٤١) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٦.

- أخبار مجموعة ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤٢) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

الإسلامية والأساسية السابقة العرب والبربر والموالى ، لابد لنا أيضا أن لا نغفل عناصر اخرى تشكل الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس، المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

المسالمـــة :

كانت سياسة الإسلام السمحة والحكيمة التى اتبعها المسلمون فى أعقاب الفتح لها أثر كبير فى إسلام عدد هائل من الإسبان لأن الفاتحين العرب لم يدخلوا تلك البلاد كما دخلها القوط، حكاما يباعدون بينهم وبين عامة الناس، حفاظا على سلامة عنصرهم أو لهيبة سلطانهم، بل دخلوها لنشر الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى، فلم يدمروا ما نزلوا به من مدائن وما مروا به منشآت، رغم ما دار بينهم من إسراف فى الخصومة، على هذا النحو الذى رأيناه، فظلت تلك المدن التى نزلوها قائمة عامرة، تدور الحرب بظواهرها، أو بعيدا عنها وهى أمنة، بل إنهم اعتبروا الصراع فيما بينهم، أمرا خاصا بهم، لا شأن لأهل البلاد به، فلم يؤذوهم أو يسيئوا إليهم، وقد يكون نزول هؤلاء واستقرارهم بتلك البلاد أيضا، رغبة فى العيش فى سلام إلى جانب أهل تلك البلاد(٤٣)، وقد أدى ذلك بالطبع إلى اعتناق عدد هائل من الأسبان الإسلام، أما بحثا وراء مصلحة شخصية، أو ايمانا صادقا بهذا الدين الذى ضمن للمسالمة الوقوف مع العرب على قدم المساواة، وقد دخل معظم هؤلاء الإسلام بمحض إرداتهم، لأن الذمى إذا أسلم كانت له حقوق المسلم دون تفريق أو تمييز، وإن كان ذلك على نقيض ما كان يحدث فى المشرق الإسلامى(٤٤) وهكذا أصبح فيما بعد يشكلون جزاء لا يستهان به من سكان

---

(٤٣) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤١٧، ٤٢٠ .

(٤٤) د. عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

الأندلس، ويبدو أن الجماعات الأولى من هؤلاء الأسبان التى اعتنقت الإسلام كانت تنتمى إلى طبقات فقيرة ومعدمة لا سيما رقيق الأرض والعبيد نظراً لأن أحوال هؤلاء فى العهد القوطى، كانت على درجة كبيرة من السوء بحيث وجدوا فى الإسلام المنفذ الوحيد، من تلك المتاعب والظروف العصيبة التى كانوا يحيون فى كنفها، فدخلوا الدين الإسلامى دون اكراه، أو إجبار، وليس معنى هذا أنهم الفئة الوحيدة التى اقتصر عليها الدخول فى الإسلام، بل إن هؤلاء كان منهم أيضا من ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، منهم النبلاء وأهل المدن والزراع والصناع وغيرهم، فتساووا جميعا فى رحاب الإسلام وأطلق على أولادهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين(٤٥) .

المولــدون :

لقد جاء الفاتحون العرب والبربر إلى الأندلس بدون نسائهم، وأقبلوا على مصاهرة الإسبان، أهل البلاد، وجاورهم، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام والثقافة العربية انتشاراً كبيراً، ونشأ من ذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين.

وكان أول من فعل ذلك عبد العزيز بن موسى بن نصير، إذ تزوج من إيخيلونا أرملة لذريق(٤٦) ولم يقتصر ذلك على عبد العزيز بن موسى، بل أن الخليفة هشام ابن عبد الملك عندما قصدت إليه سارة القوطية ابنة المنذ بن غيطشة متظلمة من عمها أرطباش، أكرمها وأنكحها من عيسى بن مزاحم جد

---

(٤٥) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٤٦) كان العرب يطلقون عليها اسم أم عاصم واسمها (أبله) وسكن معها إشبيلية .

- ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص ٢١٢ .

- ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

- أخبار مجموعة ، المصدر السابق، ص ٢٧ .

ابن القوطية، فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها، وولد له منها ولدان، إبراهيم واسحاق، وبعد وفاته (١٣٨هـ / ٧٥٥م) تزوجها عمير بن سعيد، وولدت له، حبيب بن عمير، جد بنى سيد وبنى حجاج وبنى مسلمة، وبنى حجز الجرز، وهؤلاء من أشراف ولد عمير باشبيلية(٤٧) وكذلك زياد بن النابغة الذبيانى الذى تزوج من إحدى أميرات إسبانيا(٤٨) وقد احتفظ كثير من المولدين بأسمائهم القديمة امثال: بنو أنجلين وبنو شبرقة وبنو الجريح وبنو لنتق وبنو القبطرنة وبنو مردنيش وبنو غرسية، وبنو ردف(٤٩) .

ومن أمراء الثغور من المولدين، بنو قسى بتطيلة، ووناط وأرنيط، وبنو عمروس يوشقة، وبنو سبراط، وهم بنو الطويل بوشقة وبريشتر(٥٠) .

ورغم إسلام هؤلاء إلا أنهم تعصبوا لأصلهم الاسبانى وتحالفوا مع العجم أو النصارى فى الأندلس، أيام الأمير عبدالله وثاروا فى نواحى مختلفة من الأندلس، حيث غلب عمربن حفصون على بشتر، وثار عبد الرحمن بن مروان،

---

(٤٧) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٤٨) يذكر صاحب أخبار مجموعة ، ص ٢٨، وابن عذارى، جـ٢، ص ٢٣، والمقرى ، ص ٢٣٤ أن تلك الأميرة التى تزوجها زياد بن النابغة التميمى هى التى دخلت على عبد العزيز بن موسى بن نصير وكان جالسا بجانب زوجته لابسا التاج على رأسه، فأخبرت زوجها بذلك، وطلبت منه أن يقلد عبد العزيز فى ذلك ، فأخبر به حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، فقيل أن ذلك من أسباب قتله، يذكر ابن عبد الحكم أن زيادا هو الذى حز رأس عبد العزيز ابن موسى، بعد فشل حبيب بن أبى عبيدة فى ذلك، ويذكر ابن عذارى جـ ٢ ، ص ٣٤ أن الذى قتله هو زياد بن عذرة البلوى ، وكان يقول (قد حقت عليك يا ابن الفاعلة) وكان مقتله فى رجب (٩٥هـ) بمسجد رفينة.

(٤٩) د. عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص ١٢٨،ص ١٣٨ .

(٥٠) ابن حزم ، المصدر السابق ، ص ٤٩٩، ٥٠٠ .

المعروف بابن الجليقى فى ماردة وبلطيوس، وكانت دعوته عصبية المولدين على العرب، أما فى شنت مرية باشكونية، فثار بها يحى بن بكربن ردف(٥١).

العجم (المستعربون) :

لقد أطلق لفظ العجم أو عجم الأندلس على نصارى الإسبان الذين عاشوا مع المسلمين فى الأندلس، كما كانوا يسمون أيضا بعجم الذمة أو أهل الذمة، وقد تعلم هؤلاء اللغة العربية وتكلموا بها واستخدموها إلى جانب لغتهم الأعجمية الدارجة المعروفة بالرومانسية، وهى لغة عامية مشتقة من اللاتينية وتكونت منها اللغة الإسبانية، وقد احتفظ هؤلاء بدينهم، لذلك سموا أيضاً بالمستعربين، وإن كانت هذه التسمية لم تظهر إلا فى زمن متأخر عن الفترة التى نؤرخ لها(٥٢) .

وكان من الطبيعى أن هؤلاء قد شكلوا جمهرة سكان البلاد فى سنوات الفتح الأولى، إلا أن عددهم بدأ يقل شيئا فشيئا، كلما قدم عهد الإسلام فى الأندلس، حتى أصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والبربر والمسالمة والمولدين، ويلاحظ أن هؤلاء قد عوملوا معاملة كريمة، حيث تمتعوا بحرية كبيرة فى اقامة شعائر دينهم، وأقروا على أموالهم ودينهم بأداء الجزية(٥٣)، وأقام عليهم العرب رئيسا منهم لقبوه بقوس الأندلس، أو زعيم نصارى الذمة، وجعلوه مسئولاً أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى، وأحاطوه بما يليق به من الإحترام، وكان أول من تولى ذلك أرطباش بن ملك القوط السابق غيطشة ، ويبدوا أن الوظيفة كانت قديمة والجديد هو اللقب(٥٤) ، كما

---

(٥١) د. عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٥٢) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

(٥٣) عبد الواحد المراكشى ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٥٤) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .

كان لهم قاض خاص "نصرانى" يفصل فيما بينهم ، يعرف بقاضى العجم، أما إذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين، فإن القاضى الذى يفصل بينهم، كان قاضياً مسلما يعرف بقاضى الجند، ثم سمى بعد ذلك بقاضى الجماعة(٥٥).

اليهـــود :

لقد كان ملوك القوط الغربيين يعاملون اليهود مثل ما كان يعـاملهم أهل سائر البلدان النصرانية فى أوربا، وكانت العامة تعاملهم أيضاً بغايـة الاحتقار والوحشية، لما يسمعون فـى حكايـة الإنجيل وفـى مواعـظ القسيسـين ، وكـان رجال الكنيسة والدولة ينهبون ويتلفون أموالهم بلا حياء ولا رحمة(٥٦) عـلاوة على ذلك فقد بلغ هذا الاضطهاد أشـده، حيث قـرر المجمـع الطليطلـى الثـامن ضرورة تعميدهم، وحرموا عليهم إقامة شعائرهم الدينية، ثم أرغموا فـى عهد الملك إرفيج على التنصر، فبـدأ اليهـود يتـآمرون سـراً ضـد القـوط، فـازدادت قسوة القوط عليهم واعتبروهم جميعا أرقاء يجب توزيعهم على المسيحيين بـل عملوا على فصل أولادهم وتنصيرهم .

وكـان هـؤلاء اليهـود يسـمون اليهـود فقـط أو الذميين، ويشـكلون أحـد عناصر السـكان فـى شـبه الجزيـرة الأيبيريـة(٥٧) وقـد تركـز هـؤلاء بالدرجـة الأولى فى غرناطـة التى سميت غرناطـة اليهود ، واليسان وباجة وغيرهـا مـن المدن(٥٨).

---

(٥٥) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص ١٣١ .

(٥٦) جوزيف ماك كيب ، مدينة العرب فى بلاد الأندلس ، ترجمـة د. تقـى الديـن الهلالى ، ص ٣٣ .

(٥٧) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٢٤.

(٥٨) أخبار مجموعة ، المصدر السابق، ص ٢٥ .

- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

ولتلك الظروف الصعبة، وقف اليهود موقفا إيجابياً من الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس، واشتركوا معهم فى حماية المدن التى سيطروا عليها بعد الفتح، ونظير ذلك لقى اليهود معاملة حسنة، وتسامحا كبيرا من قبل المسلمين، سواء فى عصر الولاة، أو فى العصور اللاحقة، حتى سقوط الخلافة الإسلامية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى .

العلاقات السياسية والاجتماعية بين عناصر السكان المختلفة :

رأينا كيف كان المجتمع الأندلسى يتألف من عناصر عدة، ومما لا شك فيه أن تلك العناصر قد إختلفت اختلافاً كبيراً فى المواقف والاتجاهات حيال ما واجه المجتمع الأندلسى من قضايا ومشكلات ويرجع ذلك بالقطع إلى تباين الأصول التى انحدرت منها تلك العناصرفالعرب مثلا وكانوا ينتمون إلى قبائل متعددة يمنية وقيسية، فالأقلية القيسية التى كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة مع جيش بلج بن بشر، ينازعه تلك العصبية، وبدأت تظهر شجاعتهم وتضامنهم عندما استطاعوا القضاء على ثورة البربر فى زمن قصير(٥٩) ومهد هذا الإنتصار إلى انتزاع الولاية من اليمنيين الذين كانوا يمثلون الجانب الأكبر من البلديين ، بل أنهم استطاعوا التخلص من زعيم البلديين عبد الملك بن قطن، الذى لم يكن يمنيا صرفا، بل كان فهريا ينتسب إلى مضر(٦٠)

---

(٥٩) أخبارمجموعة، المصدر السابق،ص٤٣-ابن القوطية، المصدر السابق ص٤١. د. عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٦، ٣٥٧ .

(٦٠) يذكر صاحب أخبار مجموعة ، ص ٤٥، وابن عذارى ، جـ ٢، ص ٣٢، وابن عبد الحكم ، ص ٢٢١ أن بلج بن بشر، لم يوافق أهل اليمن فى بادئ الأمر بقتله، ولما خاف فسادهم وتفرق كلمتهم، أمر به فأخرج من سجنه ، وهو ابن تسعين سنة فأكثر وكان قد حضر الحرة فى المدينة مع أهلها، ومنها فر إلى إفريقية، فأخرجوه إلى رأس القنطرة، فقتلوه وصلبوه على رأس الطريق، وصلبوا عن يمينه خنزيرا وعن يساره كلبا .

وبذا أصبحت اليمن على يد واحدة فى كل نواحى الأندلس، ونهضت لتحارب القيسيين الدخلاء، لتسعتيد منهم الزعامة ولتخرجهم من البلاد[٦١] ولكن ما تلى ذلك من أدوار الصراع بين الجارتين، لم يكن صراعا خالصاً بينهم بل كان صراعاً بين كبيرين، غالبية الأول من القيسية وغالبية الثانى من الكلبية، وانضم إلى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب[٦٢]، مشاركة فى الصراع على السلطة والنفوذ، ورغبة فى المصالح والامتيازات، بغض النظر عن الأصول العشائرية والعصبية القبلية، التى لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب .

وفى شوال عام(١٢٤هـ / ٧٤٢م) التقى رجالهما فى موقعة (أقوة مبررطورة) انتصر الشاميون انتصاراً حاسماً[٦٣]، وصارت إليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين، إلى قيام الدولة الأموية ، ولم ترفع للبلديين رأس ، إلا بعد أربعة عشر عاما، بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته (١٣٨هـ / ٧٥٦م) فى خلافة أبى جعفر المنصور[٦٤] .

ومن الواضح أن البربر الذين كانوا يشكلون كتلة كبيرة ومستقرة من عناصر سكان الأندلس ، والذين تسابقوا أيضاً إلى الإسلام، وتحمسوا له حماسة لا تقل عن حماسة العرب أنفسهم، شعر هؤلاء أن بعض ولاة

---

(٦١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ ٢، ص ٣٢ - ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٦٢) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

(٦٣) يذكر ابن القوطية، ص ٤١، أن الحرب انتهت بمقتل عشرة آلاف من أصحاب عبد الرحمن بن علقمة اللخمى ، وألف من أصحاب بلج بن بشر.

(٦٤) أخبار مجموعة، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

الأندلس ، بالغوا فى ارضـاء ميولهم بالتمتع والاغـراق فى النعيم ، مما أثـار هـؤلاء ، فـى وقـت كـانوا يجدون فيـه تأييـدا مـن العلمـاء والفقهاء الذيـن غضبوا كذلك من أفعال هؤلاء الولاة وقد تأثر هؤلاء البربر ، بوثيق اتصـالهم باخوانهم فى الساحل بتلك الثورة التى هبت هناك على يد ميسـرة السقاء عـام (١٢٢هـ - ٧٤٠م) وما تلاها من أحداث(٦٥) وكان يتغلغل فـى نفوسـهم حسد قديم للعرب لأنهم نالوا نصيب الأسد من غنائم إسبانيا ، التى لـم تـدن قطوفهـا إلا بسيوف البربر ورماحهم(٦٦)، علاوة على ما عانوه من بـرد قـارس بجبـال ليون الثلجية، التى تختلف ظروفها المناخية عن إفريقية حيث وجدوا أنفسـهم كحامية دفاع بين حلفائهم العـرب ونصـارى الشـمال ، تـأثر البربر بكـل تلـك الأحداث، وأثمر ذلك عن قيام "مونسة" البربرى أحـد قـواد طـارق بـن زيـاد، وحاكم منطقة شرطانية، فأشعل نـار الثـورة لمـا أصـاب اخوانـه بإفريقيـة مـن الظلم(٦٧)، وما لبثت تلك الثورة أن هبت عارمة فى الولايات الشمالية بإسبانيا، وحمل السلاح بربر غالسية ومـارده وقوربـة وتقدمـوا للهجـوم علـى طليطلـة وقرطبـة والجزيـرة الخضـراء، وصمموا علـى الأبحـار منهـا إلـى إفريقيـة للأتصال بأبناء وطنهم .

---

(٦٥) ابن الأثـير، المصـدر السباق، جـ٥، ص ١٩١ - ابـن عبـد الحكم المصـدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٦٦) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧١ .

(٦٧) كان "مونسة" قد تزوج من ابنة الدوق "أودو" دوق اكتانيـا فـى جنـوب فرنسـا وكان على علاقة طيبة به فى ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى .

- أخبار مجموعة ، المصدر السابق، ص ٤٣ - ابن عبد الحكم، المصدر السـابق، ص ٣٢٧، ٢١١ .

(٦٨) د. حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص ٢٠٠، ٢٠١ .

كان الموقف شديداً وخطيراً، وجد فيه عبد الملك بن قطن الفهرى والى الأندلس نفسه أمام مشكلة تكاد تستعصى على الحل، لأنه رفض أن يمد يدى المساعدة لجنود الشام بسبتة الفارين أمام البربر(٦٨) فأصبح أمام أمرين، إما أن يخضع للبربر العصاة، وإما أن يستجدى معونة جنود الشام، الذين رفض مساعدتهم ومعاونتهم والذين ربما يكونون أشد خطراً ووبالا من البربر، إذا قدموا إلى الأندلس، إلا أنه اضطر آخر الأمر الاستعانة بهم(٦٩) وما أن انتهت مهمة هؤلاء بالقضاء على ثورات البربر، وتعقبهم فى كل مكان، وفى معاقلهم الجبلية ، حتى رفضوا العودة من حيث أتوا، ورفضوا أن يستبدلوا بالمروج الخضراء والحدائق الفيحاء، صحراء إفريقية التى قدموا منها ، حيث رماح البربر المتغلبين ، فتحدوا عبد الملك بن قطن وقتلوه(٧٠) واختاروا للأندلس أميرهم (بلج بن بشر، الذى لم يهنأ بولايته، وقتل على يد عبد الرحمن بن علقمة اللخمى عام (١٢٤هـ / ٧٤٢م) بعد أن أحد عشر شهراً(٧١) وقد أتاحت تلك الأحداث، خلق هوة شاسعة ، بين العرب والبربر أثرت تأثيراً كبيراً على

---

(٦٩) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١ - ابن الأثير ، المصدر السابق جـ٤، ص ١١١ .

(٧٠) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(٧١) يذكرصاحب أخبار مجموعة، ص٤٧،٤٨، وابن عذرى، جـ٢، ص٣٣، ٣٤، أن أهل الأندلس ولوا عليهم ، ثعلبة بن سلامة العاملى، وثار من بقى من البربر وبعض العرب بماردة ، فاستطاع الانتصار عليهم، وأسر منهم نحو الألف، وسبى ذراريهم، وأقبل حتى نزل المصارة بقرطبة، بعشرة آلاف منهم، وأخذ يبيعهم فيمن ينقض بهم، وقيل أن صاح على، ابن الحسن وكان رجلا من أهل المدينة، وعلى الحارث بن أسد من جهينة من أهل المدينة، فقال من يخسر علىهذين الشخصين؟ فقال قائل: أحدهما عندى بعشرة دنانير، فقال الصائح من ينقص، فلم يزل يصيح، من ينقص، حتى باع أحدهما بكلب والأخر بعتود (العتود من أولاد المعزى وهو ما أتىعليه الحول) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٩٧.

علاقاتهم التى اتسمت دائما بالحيطة والحذر وعلى النقيض من ذلك فقد تميز الموالى بمكانة جيدة فى المجتمع الأندلسى وكان لهم نفوذا وهيبة بين عناصر السكان المختلفة بالأندلس، وبدوا كقوة سياسية ترجع إلى دخول بلج بن بشر الأندلس، نظرا لإنضمام من كان فى الأندلس إليهم، من موالى بنى أمية ومن دخل بعدهم، ثم من دخل أيضاً فى ولاء البيت الأموى من أهل البلاد(٧٢) ونستطيع أن نقول أن موالى بنى أمية بشكل خاص، قد تميزوا عن بقية الموالى، حيث أصبحوا يشكلون كتلة متماسكة فى البلاد، لها مركزها الاجتماعى المرموق الذى لا يقل عن العرب ، بل أن بعض العرب كانوا يميلون إلى أن يعتبروا أنفسهم موالى .

وعلى صعيد آخر نرى أن هؤلاء الموالى قد لعبوا دوراً هاماً فى التمهيد لدخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس والدليل على ذلك أن بدراً أتى بوصية

---

(٧٢) يذكر ابن القوطية ، ص٥٨، ٥٩، ٦٠، أن أرطباش عليه عشرة من الشاميين فيهم أبو عثمان ، وعبد الله بن خالد، وأبو عبدة، ويوسف بن بخت، والصميل ابن حاتم، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه، فلما أخذوا مقاعدهم، وحيا بعضهم بعضا، دخل ميمون العابد، جد بن حزم البوابين، وهو أحد الموالى الشاميين، فلما رآه أرطباش داخلاً، قام إليه والتزمه، وجعل يقوده إلى كرسيه الذى قام منه وكان مكسوا بالذهب والفضة، فأبى الرجل الصالح الجلوس عليه وقال لايحل لى هذا. فجلس فى الأرض وجلس معه ثم ذكر ابن القوطية أن ميمونا طلب منه إحدى الضياع مناصفة إلا أن أرطباش ملكه إحدى الضياع دون مناصفة بعدها قال الصميل يا أرطباش ما يعجزك عن سلطان أبيك إلا نفاذ الطية، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالأندلس، ويدخل أصحابى هؤلاء معى وهم سادات الموالى بالأندلس، فلا تزدنا من الكرامة على القعود على العيدان... الخ، أى أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموالى، وابن القوطية يذكرهم عشرة من الشاميين فقط، مما يوضح أن الشاميين كانوا يعتبرون وصفهم بالموالى شرف لهم، وقيل أن أرطباش وهبهم مائة ضيعة لكل واحد منهم عشر ضياع ، ووصفهم بالملوك.

مولاه عبد الرحمن واستتر عند بنى وانسوس، موالى عبد العزيز بن مروان ببلاد البربر، فقصد أبا عثمان شيخ الموالى فى هذا الوقت فى قرية طُرَش من كورة إلبيرة، فبعث أبو عثمان إلى صهره عبد الله بن خالد(٧٣)، فتكلم معه فيما جاء به بدر، وكان يوسف الفهرى(٧٤) متأهباً للخروج للغزو، فطلب من بدر التمهل حتى تنقضى تلك الغزاة ويجتمع بأصحابه، وقيل أيضاً أن أبا عثمان وعبد الله بن خالد قدما قرطبة ودخلا على الصميل(٧٥) بن حاتم الكلابى وأبلغاه الكلابى وأبلغاه أن عبد الرحمن بن معاوية يسأله الأمان فى نفسه، ويتوسل إليه بما قد علمته وأنت ذاكر له، فقال نعم وكرامة، وأبدى رغبته فى مطالبة يوسف الفهرى أن يزوجه ابنته، ويشركه فى سلطانه وإلا ضربت صلعته بالسيف(٧٦) وتركوه على ذلك وذهباً إلى أصحابهما كيوسف بن بخت، وأمية ابن يزيد وغيرهم، وعندما هموا بالعودة، ذهبوا إلى الصميل ليودعاه فقال لهما : فكرت فيما عرضتما على، فعلمت أن عبد الرحمن من نسل قوم، لوبال أحدهم فى هذه الجزيرة لغرقنا فى بوله ، ولكن خار الله لكما فى مولاكما، وعلى ستر ما أودعتمانى فستر عليهما وانصرفا(٧٧) .

---

(٧٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة، ص ٦٥، أنهما حضرا شقندة مع يوسف والصميل ومعهم يوسف بن بخت وخيار بنى أمية عام (١٣٠هـ) .

(٧٤) قيل أن يوسف الفهرى كان يسمى بنى أمية موالينا، وقيل أيضا أنه كان يشركهم معه فى غزواته - ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٤، ٤٥.

(٧٥) يذكر صاحب أخبار مجموعة ص ٦٩، أن الصميل كان صاحب خمر يد من عليها لا يكاد أن يبيت ليلة إلا سكران.

(٧٦) ابن القوطية، المصدر السابق، ص٤٦ - أخبار مجموعو، المصدر السابق ص٦٦، ٧٠.

(٧٧) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٤٦، ٤٧ - ابن عذارى، المصدر السابق، جـ٢، ص٤٤ .

وبهذا التحول المفاجئ من الصميل، أدرك الموالى ألا خير هناك يرجونه من يوسف والصميل والمضرية جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى، اتجهوا نحو اليمنيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة.

أما العلاقات التى سادت بين عناصر السكان من المسلمين وأهل البلاد، فيمكن القول بأنها كانت علاقات جيدة، حيث أن الفاتحين سواء من العرب أو البربر، لم يدخلوا إلى تلك البلاد، وفى ذهنهم العيش فى رفاهية وإساءة معاملة أهل البلاد، بل استقروا معهم وعاشوا جميعا فى سلام، دون التدخل فى حياتهم الشخصية وممارساتهم العقائدية، ولم يكن ذلك كل ما حدث بل أننا لاحظنا أنهم اختلطوا بهم، اختلاطا كبيراً بالزواج، كما فعل كبار القادة البارزين من العرب كما أسلفنا مثل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وزياد ابن النابغة الذبيانى، وعيسى بن مزاحم، والقائد البربرى منوسة وغيرهم، ولا شك أن غالبية المسلمين فى الأندلس، قد حذوا حذوهم، فأدى ذلك إلى جريان الدماء العربية فى عروق أبنائهم، ونتج عن ذلك جيل جديد عرف بالمولدين كما سبق أن ذكرنا.

وقد أدى ذلك بالتأكيد إلى انتشار الإسلام والثقافة العربيةإلى حد كبير، فلم يكد عنصر الولاة يأتى على نهايته، حتى أصبحت بلاد الأندلس بلدا إسلاميا، استقرت قواعد الإسلام فيه(٧٨). أما عن العهود، فقد احترم المسلمون عهودهم مع أهل تلك البلاد ولا سيما عقود الصلح التى بدأها عبد العزيز بن موسى(٧٩)

---

(٧٨) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق، ص ٤٢٤ .

(٧٩) يذكر ابن عذارى، جـ ٢، ص ١٥، أن معاهدة عقدت بين موسى بن نصير فى ماردة فى الغرب، وصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الغائبين بجليقية وأموال الكنائس، ذلك كله للمسلمين، فى شوال ٩٤هـ.

فى إقليم مرسيه الذى حاضرته أوريوله حيث كان يحكم قائد قوطى يسمى "تدمير" ابن غبدوش، وكان رجلا نصرانيا مثقفا استطاع بعلمه أن يكسب احترام المسلمين وظل فى ولايته لم يفعل شيئا لمقاومة المسلمين ، مثله مثل غيره من أنصار غيطشة، وظل على هذا الحال، حتى أتى إليه عبد العزيز ابن موسى، فعقد معه صلحا على نفسه وأهل بلده ، فصارت تدمير جميعها صلحا(٨٠) .

واستطاع تدمير أن يحصل على ما ضمن له بقاء شئ من السلطان فى بلاده، فقد نصت المعاهدة، اعترافاً من جانب المسلمين، باستقلال تدمير فى مدائنه السبعة "أوريولة وبلنتلة ولقنت ومولة وبفسرة وأنه ولورقة" ما دام يحافظ على حقوق المسلمين ويدفع لهم الجزية السنوية التى مقدارها ديناراً واحداً على أصحابه، مع كميات معلومة من المحاصيل العينية لكل فرد حر من رعيته، والعبد نصف ذلك(٨١) مع تعهده بعدم مساعدة أعداء المسلمين ، بل ينقل أخبارهم إليهم(٨٢) .

---

(٨٠) يذكر ابن عذارى ، جـ ٢، ص١١، أخبار مجموعة، ص ٢٢، أن تدمير عندما رأى أنه لا قبل له بجيوش المسلمين، أمر النساء فنشرن شعورهن، وأعطاهن القصب، وأوقفهن على سور المدينة، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش ، حتى عقد على نفسه، ثم هبط كهيئة الرسول فأستأمن فأمن وانعقد له الصلح ولأهل لبده ، فافتتحت مدينة تدمير صلحا، ولما أنعقد الصلح وتم ، أبرز لهم نفسه وقال: أنا "تدمير" صاحب المدينة ثم أدخلهم البلد، فلم يروا فيه أحدا عنده مدفع، فندم المسلمون وأمضوا على ما أعطوه من الأمان .

(٨١) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٨٢) جون جلوب، المرجع السابق، ص ٢٥٢ .

وعلى الجانب الآخر تعهد المسلمون بألا يقتلوا أو يسبوا أولادهم ولا نساءهم، ولا يجردوا أحداً من أهل البلاد عن أملاكه ، وأن يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية الخاصة ، وتعهدوا أيضاً باحترام كنائسهم وعدم احراقها أو تدميرها .ومن بنود هذ الصلح الذى احترمه المسلمون نرى أن العلاقة بين الطرفين، ظلت طيبة، خاصة أن بنود الصلح تلك لم تنص على سريانها على أولاد تدمير من بعده(٨٣)، علاوة على أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الاقليم، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك، بل كانت حصونا فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها، على أن يؤدى على أهلها الجزية، وأتاح ذلك أيضا للعرب التوغل فى جنوب شرقى الجزيرة والاستقرار جنوب شرقى الجزيرة والاستقرار فى بعضها دون حرج(٨٤) .

ومن الواضح أن المسلمين قد ساروا على سياستهم الحكيمة تلك فى مناطق أخرى، فعندما أراد الوالى عبد العزيز بن موسى، بناء مسجداً فى اشبيلية، التى اتخذها عاصمة للبلاد، لم يحول كنيسة رُبسة إلى مسجد، بل اختار جزءا قريبا من باب الكنيسة، وابتنى فيه المسجد الذى قيل أنه قتل فيه بعد ذلك، وظلت بقية كنائس المدينة باقية دون أن يتعرض لها أحد(٨٥)، وقد احترم المسلمون الملكيات الخاصة لغالبية أهل البلاد، فقد سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين السابقين فى بعض المناطق الاحتفاظ بأراضيهم، كما حدث بالنسبة لتدمير ولم يمس المسلمون من الممتلكات إلا ما كان لبيت لذريق، أو الذين قتلوا فى الحرب مع المسلمين ، وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه

---

(٨٣) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١١١.

(٨٤) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ١١٦ .

(٨٥) ابن القوطية ، المصدر السابق، ص ٣٧ – ابن عذارى ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٤ .

كلها غنيمة أخرج خمسها، فجعل ملكاً للدولة ، وترك الباقى بيد من كانوا يزرعونه، يؤدون عنه خراجه، فيئا للجماعة الإسلامية كلها، وقد أتاح ذلك زيادة عدد صغار المزارعين زيادة كبيرة، وترك لهم حرية تطوير أرضهم، على النحو الذى يشاؤون ، شريطة دفع ما عليها من التزامات(٨٦) أما عن اليهود والنصارى الذين ظلوا على دينهم والذين كانوا يمثلون نسبة عالية من سكان البلاد، فقد كان القوط الغربيون يدينون بالمذهب الأريوسى، ثم تحولوا بعد ذلك إلى مذهب غالبية سكان البلاد فى عهد ريكاردوس ملك القوط(٨٧) وبجانبهم كان هناك مدد لا بأس به من اليهود ، وقد أشرنا إلى تلك الحالة السيئة التى كان عليها هؤلاء، واضطهادهم فى ظل حكم القوط الغربيين. وما أن دانت بلاد الأندلس للفتح الإسلامى، حتى تغيرت الصورة بشكل ظاهر سريع، فقضى الإسلام على الظلم والاستغلال ، وطبق الحرية والمساواة لجميع عناصر السكان بلا تفرقة ، فتركهم وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وتركوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية واتباع قوانينهم و الخضوع لقضائهم ، وكان أداء الجزية هو كل ما يطلب منهم لقاء حمايتهم، سواء كانوا يهود أو نصارى، ومن أسلم منهم جميعا أصبحوا مسلمين ، يتمتعون بنفس الحقوق، ومن لم يسلم منهم فأهل ذمة(٨٨) ، أحرارا ينظمون أمورهم على النحو الذى يرغبون فيه، حيث نظامهم المدنى الخاص، المستند إلى القانون القوطى القديم، واستمر القائمون عليه يشرفون على كل ما يتصل بمصالح رعايا أهل الذمة، فكان يعين لهم القضاة الذين يبيتون فى مشاكلهم، ويشرفون على كنائسهم بل يجمعون ضرائبهم، ويؤدونها إلى بيت المال نيابة

---

(٨٦) جون جلوب ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧، ٢٥٨ .

(٨٧) نفس المرجع ، ص ٢٤٠ .

عنهم، أى أنه وجد منذ بداية الأمر نظامان إداريان، جنبا إلى جنب، أحدهما للمسلمين والآخر للنصارى(٨٩) .

أما القضايا التى تقع بينهم وبين المسلمين، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام، كما سمح للنصارى فى كل ناحية من الأندلس، باختيار رئيس منهم يدعى بالقومس كما أسلفنا(٩٠) وإلى جانب هذا القومس كان هناك وظائف أخرى، تولاها أهل الذمة بموافقة المسلمين لخدمة بنى ملتهم مثل، قاضى العجم "ما يشبه العمدة فى القرى" ، صاحب المدينة: وهو حاكم المدينة وزمامها وهو ماعرف فىالنظام الإسلامى بالكورة:

المشرف : ويوكل بشئون المال بالناحية .

مستخرج الخراج : أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب عامل الخراج المعروف فى النظم الإسلامية.

صاحب الشرطة : وهو المكلف بحفظ الأمن فى المدينة .

الأميــــن : الذى كان على رأس كل نقابة من نقابات أهل الحرف.

العريــف : وهو من تمييز بدقة الصنعة والمهارة بين الصناع وكان غالباً ما يطلق على رؤساء البنائين .

وبالنسبة لـلزراع من أهل الذمـة ، فقد تحسنت أحوالهم، حيث ألغى النظام القوطى الذى جعلهم أشبه ما يكونون بالرقيق، وكذلك أطلق المسلمون ، أسرى النصارى فى أراضى الخمس ليعمروها فأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان ، فأدى ذلك إلى تحسين أحوالهم ،

---

(٨٨) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٦٥، د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٣٧ .

(٨٩) نفس المرجع ، ص ٤٤٧ .

(٩٠) د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٤٥٩ .

ونعموا بالحرية الاستقلال(٩١) .

أما عن الكنيسة فلم يتدخل المسلمون فى تنظيمها، ولم يفكروا فى نقل كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة إلى قرطبة، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى ثم حرصوا فى نفس الوقت على أن يكون المطران قريباً منهم فى العاصمة، بل عقدت مجامع طليطلة فى قرطبة وذلك اجراء بسيط لم يؤثر فى أحوال النصارى، ولم يمس نظام الكنيسة بل استدعاه الصالح العام، ولربما يكون رجال الدين أنفسهم قد حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، بل ظلت الكنائس تؤدى وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية، فعقدت بها مراسيم الزواج وتعميد المواليد واختيار الأسماء لهم، وتسجيل المبايعات والعقود بين الناس، وأبقى المسلمون كذلك على كل المؤسسات الدينية المسيحية ، دون أن يمسوها بأذى، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم ، بل أن الكثيرون منهم، أخذوا أسماء عربية يعرفون بها بين الناس، وإن كان لكل منهم اسمه الكنسى اللاتينى أو الاسبانى(٩٢) .

ولا يفوتنا أن نشير إلى العلاقة الطيبة التى كانت بين كبار عرب الأندلس، وكبير نصارى الذمة أرطباش، وكيف كان الأمر صداقة بين الجانبين، ليس هناك سيادة من طرف على الطرف الآخر ، ولو أن العرب غاضبين لما احتاج ميمون أن يطلب أرضا من أرطباش على تلك الصورة التى سبق أن أوضحناها .

---

(٩١) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق، ص ٧٤ .

(٩٢) د. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٤٩٥، ٥٠٠ .

أما اليهود ، فلا جدال أنه كان لهم قوانينهم الخاصة بهم وقضائهم الذين يفصلون فى مشاكلهم ، وكان المسلمون لا يتدخلون فى شئونهم الخاصة كذلك، بل كان للجماعة اليهودية الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات، وفى الخلافات بين المسلمين واليهود كان الأمر يرفع لقاضى المسلمين ، وكان لهؤلاء بيعهم التى تقام فيها صلواتهم، بل أنهم كانوا أحراراً لا يعرض لهم المسلمون فى شئ، بل كانت العلاقة بين الطرفين علاقة طيبة(٩٣) مما جعل اليهود يسارعون بالإندماج فى الجماعات الإسلامية، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع مرور الأيام ، ولا ننسى أن هؤلاء اليهود الناقمين على مضطهديهم السابقين من القوط، مثلوا فى تلك الفترة، أدوار العيون والمخبرين والمستشارين للمسلمين ضد القوط، ولا ننسى أيضا أنهم أدوا دوراً هاماً فى العلوم العربية فى الأندلس، فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية، ونبغ كثيرون منهم، فى الطب والفلسفة والفلك والكيمياء، فكان عصرهم الذهبى، حيث لم يكن هناك بلد فى الدنيا فى عالم هذا الوقت يكرم فيه العلماء والأدباء، ويكافئون بالجوائز العظمى مثل ما كان بالأندلس.

---

(٩٣) جون جلوب ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(٩٤) عبد الواحد المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧ .

د. عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص ١٣٣.

المصادر العربية القديمة :

- - **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ)

الكامل فى التاريخ - بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- - **الاصطخرى** : أبو اسحاق ابراهيم (ت : النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .

المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر الجينى، القاهرة،١٣٨١هـ/١٩٦١م.

- - **ابن بطوطة** : شرف الدين أبو عبد الله .

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دار صادر بيروت - ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.

- - **ابن حزم** : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد

جمهرة أنساب العرب، تحقيق ، عبد السلام هارون القاهرة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

- - **ابن حيان** : أبو مروان حيان بن خلف

المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق ، عبد الرحمن على الحجى ، القاهرة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

- - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ)

العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

- - **ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله**

فتوح مصر وأخبارها - ليدن - ١٣٥١هـ / ١٩٣٠م .

- - **عبد الواحد المراكشى**

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

- **ابن عذارى المراكشى :** أبو عبد الله محمد
البيان المغرب فـى أخبـار الأندلـس والمغـرب - **تحقيـق ليفـى بروفنسـال ،** بيروت - د. ت.

- **ابن القوطية أبو بكر :** محمد بن محمد
تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الابيارى ، بيروت د. ت.

- **المقــرى :** أحمد بن محمد
نفح الطيب من عصن الأندلس الرطيب - تحقيق ، احسان عباس، بـيروت - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- **مؤلف مجهول :**
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها - تحقيق، إبراهيم الإبيارى، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

المراجع العربية الحديثة :

- **السيد عبد العزيز سالم :**

تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس - الإسكندرية ١٩٨٢م

- **حسين مؤنس :**

فجر الأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الأموية - القاهرة ١٩٥٩م.

- **محمد عبد الله عنان :**

دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح حتى بداية عهد الناصر، القاهرة ١٩٦٩م.

- **على الجارم :**

قصة العرب فى إسبانيا - القاهرة ١٩٤٧ .

المراجع الأجنبية المعربة :

- - **جون جلوب :**

امبراطورية العرب ، تعريب خيرى حماد - بيروت -١٩٥٣م.

- - **زامباور ادوارد :**

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة - أخرجه ، زكى محمد حسن حسن أحمد محمود.

- - **ماك كيب جوزيف :**

مدنية العرب فى بلاد الأندلس - ترجمة تقى الدين الهلالى بغداد ١٩٥٠م.

المهالبة من المشرق إلى المغرب

د. محمد بركات البيلى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

المهالبة اسم ذائع الصيت فى التاريخ الإسلامى، كانوا من ذوى النباهة فى الدولة الإسلامية فى عصرى الأمويين والعباسيين، وقد أرسى دعائم نباهتهم وشهرتهم رأس أسرتهم الذين ينسبون إليه وهو المهلب بن أبى صفرة الذى عرف بالحكمة والفطنة والشجاعة والمهارة فى الحرب والسياسة وذاع صيته بما حقق من انتصارات على الخوارج وإن كانت جهوده فى خدمة الخلافة الإسلامية لم تقتصر على ذلك وإنما امتدت إلى ميادين أخرى .

كان المهلب بن أبى صفرة أعظم الأزد وأشهرهم قاطبة(١) على الرغم من انتمائه إلى أزد عمان الذين وضعهم العرب من حيث النسب فى مرتبة أدنى من أزد شنوءة بالسراة، وكان رهط المهلب قبل الإسلام يسكنون دبا (دبى الحالية) وقد أسلموا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيل أنهم ارتدوا بعد وفاته ثم عادوا إلى حظيرة الإسلام(٢) .

نزل المهلب - أو أبوه - البصرة فيمن نزلها من قومه(٣) وارتفع شأنه

---

(١) يرى فلهوزن (تاريخ الدولة العربية ص ٦٥) أن المهلب أعلى من شأن أزد عمان جميعاً وجعل لهم مكانة مرموقة فى الدولة الإسلامية.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ص ٤٣٢ .

- تنكر الرواية العمانية ردة قوم المهلب وتثبت أن وفدا منهم جاء إلى أبى بكر معلناً عن ولائه وطاعته .

(السالمى : تحفة الأعيان ، جـ١ ص ٦٢ وابن دريد : الاشتقاق ، ص ٣).

(٣) قيل إن أبا صفرة كان أصله فارسياً قطع إلى عمان فانتسب إلى الأزد ثم كان بعد سائسا لعثمان بن أبى العاص الثقفى ومعه هاجر إلى البصرة. (ابن رستة: الاعلاق =

بها حتى نسبت البصرة نفسها إليه فقيل لها بصرة المهلب لما كان له من فضل فى حمايتها من الخوارج(٤)، وجدير بالذكر أن ارتقاء المهلب بن أبى صفرة إلى هذا الشرف لم يتسن له دفعة واحدة وإنما ارتقى إليه تدريجيا بعدما أبان عن حميد مناقبه وعظيم كفايته فى انجاز ما أسند إليه من أعمال عز على غيره القيام بها فى كثير من الأحيان.

ولد المهلب بن أبى صفرة فى تاريخ شبه متفق عليه ، فقد ذكر ابن خلكان أنه ولد قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بسنين(٥) وذكر الذهبى أنه

= النفيسة ص ٢٠٥) وقيل إنه أرسل فى سبى أزد دبا إلى أبى بكر غلاماً لم يبلغ وأعتقهم أبو بكر وأذن لهم بالتفرق فنزل أبو صفرة البصرة (ابن خلكان: المصدر السابق جـ٤ ص ٤٣٢) وقيل إن أبا بكر لم يره قط ولكن أبا صفرة وفد على عمر بن الخطاب شيخاً أبيض الرأس واللحية فأمره عمر أن يخضب. وذكر ابن قتيبة (المعارف ص ٣٩٩) أن أبا صفره جاء فى السبى غلاماً لكن الذى أعتقهم هو عمر بن الخطاب لكنه من الصعوبة بمكان قبول القول بأن أبا صفرة كان غلاماً فى خلافة أبى بكر أو شيخاً يخضب فى خلافة عمر ليس فقط لأن الرواية العمانية (السالمى جـ١ ص ٦٢ وابن دريد : الاشتقاق ص ٣) تجعله رجلاً راشداً وإنما أيضا لأن ابن الأثير (الكامل جـ٣ ص ٢١) ذكر أن أبا صفرة شارك فى فتح اصطخر سنة ٢٨هـ قائداً لإحدى مجنبتى المسلمين فكيف يكون شيخاً طاعناً فى خلافة عمر ثم يقوى على القتال قائداً بعد نحو عشر سنوات؟! وكيف يكون غلاماً لم يبلغ فى خلافة أبى بكر؟! وقد ذكر ابن خلكان نفسه - وآخرون - أن ولده المهلب قد ولد فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفضلاً عما سبق فقد ذكر ابن كثير (البداية والنهاية جـ٩ ص ٤٧) أن السبى الذى جاء إلى أبى بكر كان فيه أبو صفرة وابنة المهلب غلاماً لم يبلغ الحدث .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٩١ وابن خلكان : المصدر السابق جـ٤ ص ٤٣٢.

(٥) وفيات الأعيان ، جـ٤ ص ٤٣٢ .

ولد عام الفتح - ٨هـ - لكنه استدرك بقوله "وقيل بل ذلك أبوه"(٦) وذكر ابن كثير أنه ولد عام الفتح(٧). ومعنى ذلك أن المهلب لم يولد بالبصرة التى لم تكن قد مصرت بعد ولكنه نزلها مع أبيه فيمن نزلها من أزد عمان .

ظهر المهلب بن أبى صفرة فى ميادين الفتوح الإسلامية لأول مرة فى فتح سجستان سنة ٤٢هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان(٨) بعد أن جاوز العقد الثالث من عمره واشتد عوده ، وفى سنة ٤٤هـ غزا المهلب السند وكانت له القيادة فيما يبدو فأظهر فيها كفاءة ومهارة(٩) . وظهر المهلب منذ سنة ٤٧هـ على مسرح خراسان عدة مرات فصحب عامذاك الحكم بن عمرو الغفارى فى غزو بعض جبال الترك وأظهر مهارة وحسن تصرف أنقذت

---

(٦) سير الأعلام النبلاء، جـ٤ ص ٣٨٤ .

(٧) البداية والنهاية ، جـ٩ ص ٤٧ .

(٨) ذكر البلاذرى (فتوح البلدان، جـ٢ ص٤٦٥) "عن المهلب بن أبى صفرة قال: حاصرنا مناذر فأصبنا سبياً فكتب عمر....." . ولو صح ذلك لتقدم ميلاد المهلب كثيراً إذ لا يعقل أن يشارك فى الفتوح وعمره لم يتجاوز عشر سنوات لكنه من الواضح أن نص البلاذرى فيه نقص كما أن هذه الرواية وردت عند بخشل (تاريخ واسط ص ٥) بصيغة لا تستوجب أن يكون المهلب ممن حضروا حصار مناذر حتى وإن كان راوياً قال بخشل "عن المهلب بن أبى صفرة قال : كان بين أهل مناذر وأهل البصرة قتال فأصابوا منها سبياً فكتب فى ذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب عمر.....".

(٩) خليفة بن خياط : تاريخه جـ١ ص ٢٠٦ والبلاذرى: فتوح البلدان جـ٢ ص٤٨٨، وابن الأثير: الكامل جـ٣ ص ٢٢١، والنويرى : نهاية الأرب، جـ٢٠ ص ٢٦٦ وابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص ٤٧.

المسلمين من شرك وقعوا فيه(١٠) وفى سنة ٥٦ هـ صحب المهلب سعيد بن عثمان عامل خراسان حينذاك فى عبوره إلى ما وراء النهر وغزا معه بخارى وسمرقند(١١) وفى سنة ٦١هـ صحب المهلب بن أبى صفرة سلم بن زياد عامل خراسان فى عبوره أيضاً إلى ما وراء النهر وشتى معه هناك لأول مرة فى تاريخ فتوح ما وراء النهر ووجهه سلم إلى موضع يجتمع فيه ملوك تلك النواحى ففاجأهم فى ستة آلاف وأجبرهم على أن يطلبوا منه الصلح فصالحهم المهلب على نيف وعشرين ألف ألف أو تزيد حظى بها المهلب عند سلم وحظى سلم ببعضها عند يزيد بن معاوية أرسلها إليه صحبة المهلب نفسه(١٢) لكن المهلب سرعان ما عاد إلى خراسان إذ كان بها حين وفاة يزيد بن معاوية وحضر بيعة أهلها لسلم بن زياد على الرضا إلى أن يستقيم الناس على خليفة لكنهم ما لبثوا أن نكثوا بيعته فخرج سلم عن خراسان واستخلف عليها المهلب بن أبى صفرة(١٣) لكن المهلب واجه منافسة شديدة

---

(١٠) ابن الأثير : الكامل جـ٣ ص ٢٢٦ والنويرى : نهاية الأرب جـ٢٠ ص ٢٦٧ ويجعل الطبرى (تاريخ ، جـ٥ ص ٢٥١) هذه الغزاة سنة ٥١هـ بينما يشير اليعقوبى (تاريخ ج٢ ص ٢٢٢) إلى أن الحكم بن عمرو قد تولى على خراسان سنة ٤٤هـ .

(١١) خليفة بن خياط : تاريخه جـ١ ص ٢٢٤ والبلاذرى : المصدر السابق جـ٣ ص ٥٠٨.

(١٢) الطبرى : تاريخه، جـ٥ ص ٤٧٢ وخليفة بن خياط : تاريخه، جـ١ ص ٢٦١ وابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ص ٣٠٤.

(١٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٣٣١.

(١٤) روى ابن خلكان (وفيات الأعيان ، جـ٤ ص ٤٢٢) أن عبد الله بن الزبير خلا بالمهلب ليشاوره فدخل عليهما عبد الله بن صفوان فقال من هذا الذى شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا. قال أما تعرفه هذا سيد أهل العراق المهلب بن أبى صفرة .

ى ولاية خراسان من عبد الله بن خازم السلمى فرأى المهلب ألا ينزلق إلى م ستنقع الفتنة وآثر مغادرة خراسان تاركاً إياها لعبد الله بن خازم وتوجه المهلب إلى عبد الله بن الزبير بمكة إذ كان ابن الزبير حينذاك يخاطب بالخلافة وينادى بأمير المؤمنين وكانت كفته أرجح من بنى أمية الذين كانوا لم يحسموا أمرهم بعد، فدخل المهلب فى طاعة ابن الزبير الذى أعلى من شأن المهلب(١٤) وعهد إليه بولاية خراسان(١٥) .

هكذا تصاعدت مكانة المهلب وتزايدت خبرته وكفايته فى الوقت الذى كان الخوارج قد عاودوا الخروج على الطاعة واندفعوا نحو البصرة يريدون اقتحامها والبصريون لا يستطيعون لهم دفعا بينما كان المهلب فى طريقه إلى خراسان ليلى أمرها بعهد ابن الزبير(١٦) وعلى الرغم مما كان فى البصرة وقتذاك من خلاف وتنافس بين أزدها وتميمها فقد أشار الأحنف بن قيس التميمى على أهل البصرة بأن يولوا المهلب بن أبى صفرة الأزدى حرب الخوارج لأنه الأقدر على حربهم وصدهم عن البصرة(١٧)، واحتال أهل البصرة حتى وافق المهلب على تولى حرب الخوارج لكنه إشترط عليهم أن يجعلوا له ما غلب عليه وأن يعطوه من بيت المال ما يتقوى به وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم من أحب، فقبلوا شروطه كلها وكتبوا له بذلك عهداً على الأخماس وأوفدوا إلى عبد الله بن الزبير يخبرونه بما انتهوا إليه فأجازه وأمضاه(١٨).

---

(١٥) اليعقوبى ، تاريخه جـ٢ ص ٢٦٤ .

(١٦) الطبرى: تاريخه، جـ٥ ص ٦١٤ .

(١٧) نفس المصدر، جـ٥ ص ص ٦١٥ : ٦١٦ .

(١٨) والمبرد : الكامل فى اللغة والأدب حـ٢ ص ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، وابن الخوزى: المنتظم ، حـ ٦ ص ٤٠ - لأبى حنيفة الدينورى (الأخبار الطوال ، جـ١ ص ص ٢٧٠ : ٢٧١) . رواية مختلفة فى بعض تفاصيلها عما أثبتناه إذ يذكر أن الحارث =

تمكن المهلب بن أبى صفرة من صد الخوارج عن البصرة ودفعهم أمامه مرحلة بعد اخرى حتى انتهوا إلى موضع بالأهواز يدعى سلى وسلبرى(١٩) فنزل المهلب بجيشه فى مواجهتهم وخندق عليه ووضع عليه المسالح والعيون وأبقى جنده على مصافهم وتعبيتهم كيلا يفاجئه الخوارج فلم يستطع الخوارج أن يباغتوه حتى وقع اللقاء الحاسم . وشد الخوارج فى البداية شدة منكرة على جند المهلب فجفل أهل البصرة وفروا منهزمين لا يلوون على شئ لكن المهلب القائد المحنك أسرع ليقطع الطريق على الفارين وناداهم إليه فاجتمع إليه منهم ثلاثة آلاف من قومه وأظهر المهلب مهارته وقدرته على الأبتكار فأمر كل جندى من آلافه الثلاثة أن يحمل عشرة أحجار ثم انقض بهم على الخوارج وقد أمنوا وظنوا أنهم انتصروا فلم يشعروا إلا والمهلب ينقض عليهم وأخذ جنوده يرمون الخوارج بالحجارة فى وجوههم فيدمونهم ويشلون حركتهم ثم يطعنونهم حتى انتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً وقتلوا الكثير منهم عبد الله بن الماحوز قائد الأزارقة ثم وضع المهلب كمائن تخطفت الخيل العائدةمن مطاردةفلول البصريين فانهزم الخوارج هزيمة منكرة أجبرتهم على التقهقر إلى كرمان بينما آثر المهلب عدم مطاردتهم وأقام بالأهواز حتى قدوم مصعب ابن الزبير والياً على البصرة(٢٠).

= ابن عبد الله عامل البصرة لابن الزبير استشار وجوه أهل البصرة فى رجل يوليه حرب الخوارج فأشاروا عليه بالمهلب ويظهر في رواية أبى حنيفة أن المهلب كان فى خراسان - وليس فى الطريق إليها - وأنه جاءه أمر من ابن الزبير بأن يستخلف عليها رجلاً من اهل بيته وأن يسير هو إلى البصرة ليلى حرب الخوارج .

(١٩) الطبرى : تاريخه، جـ٥ ص ٦١٦ وابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ص ٤١ .

(٢٠) الطبرى : تاريخه جـ٥ ص ص ٦١٧ : ٦١٩ .

وابن الجوزى : المصدر السابق ، جـ٦ ص ٤١ .

يبدو توقف المهلب عن مطاردة الخوارج وعدم إجهازه عليهم بعد هزيمتهم المنكرة عند سلى وسلبرى مثيراً للتساؤل : فهل آثر المهلب السلامة لينعم بخراج الأهواز وليجنى ثمار النصر أم أنه كان لا يستطيع ملاحقة الخوارج بمن تبقى بعد المعركة من آلافه الثلاثة الذين لم يكن بامكانهم انزال الهزيمة بالخوارج لولا مهارة المهلب وقدرته على الابتكار واستغلال عنصر المفاجأة. لعل الأمرين معاً أقعدوا المهلب عن مطاردة الخوارج ولعله اكتفى بانجاز مهمته الأساسية التى عاهد عليها أهل البصرة وهى صد الخوارج ولعله اكتفى بانجاز مهمته الأساسية التى عاهد عليها أهل البصرة وهى صد الخوارج عن البصرة وحمايتها منهم .

على أى حال ، فبعدأن وقى المهلب البصرة شر الخوارج ودفعهم عنها، حول حهوده إلى ميدان آخر إذ طلب منه مصعب بن الزبير أن يشاركه فى حرب المختار بن أبى عبيد الثقفى، فأقبل المهلب على المصعب فى جمع كبير وهيبة جليلة لم تسبق مثلها لأحد من أهل البصرة فجعله المصعب على ميسرته(٢١) وهكذا تحول المهلب من محاربه الخوارج الأزارقة إلى محاربة الشيعة الكيسانية مما يجعله من حماة السنة والمدافعين عنها ضد أتباع الفرق المناوئة .

أبلى المهلب بن أبى صفرة فى حرب المختار بلاء حسناً بل كان له أكبر دور فى هزيمة حيش المختار ثم حصار المختار فى قصره بالكوفة حتى لم يجد المختار مفراً من القتال فخرج من قصره وقاتل حتى قتل(٢٢) فلما رأى مصعب بن الزبير أن المختار قد طويت صفحته وأن الخوارج قد صار

---

(٢١) الطبرى : تاريخه جـ٦ ص ٩٤ وابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ٦٤.

(٢٢) الطبرى : تاريخ ، جـ٦ ١٠٥ وابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ٦٥ .

خطرهم بعيداً وواهناً، وجه المهلب بن أبى صفرة عاملاً على الموصل والجزيرة وأرمينية وأدريبجان سنة ٦٧هـ(٢٣).

لكن الأزارقة اغتنموا فرصة ابتعاد المهلب إلى الموصل فانحطوا على فارس فى العام التالى ٦٨هـ، ومع أن عامل فارس تمكن من صدهم وأجبرهم على التقهقر ثانية إلى خراسان إلا أن خطرهم ظل قائماً وتوجهوا نحو البصرة من جديد فوجدوا مصعب بن الزبير قد تجهز لهم بينما جاء عامل فارس فى اثرهم فخافوا الوقوع بين شقى الرحى فانحاز بهم قائدهم الزبير بن الماحوز إلى المدائن وارتكب فيها فظائع يندى لها الجبين(٢٤) لكنهم خسروا قائدهم الزبير بن الماحوز الذى قتل فبايعوا بعده قطرى بن الفجاءة(٢٥)، فرجع قطرى بالخوارج إلى كرمان ليعيد تجميعهم وتنظيم صفوفهم ثم نزل بهم الأهواز فكتب عامل البصرة إلى مصعب بن الزبير وهو بالكوفة إن الخوارج نزلوا الأهواز وليس لهم إلا المهلب بن أبى صفرة فكتب المصعب إلى المهلب وهو على الموصل والجزيرة أن يسير إلى قتال الخوارج،فلما جاء المهلب إلى البصرة انتخب الناس وسار بمن أحب منهم فالتقى بالخوارج عند سولاف سنة٧٢هـ وقاتلهم قتالاً شديداً لنحو ثمانيةأشهر(٢٦)وفى أثناء ذلك كان

---

(٢٣) الطبرى : تاريخه، جـ٢ ص ١١٦ وابن الجوزى : المنتظم، جـ٦ ص ٦٦ .

(٢٤) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ١٢٠ وابن الجوزى : المنتظم ،جـ ٦٩ .

(٢٥) قيل إن الفجاءة أمه وكانت من بنى شيبان (ابن خلكان : وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٣٦) بينما ذكر ابن حزم (الجمهرة ص ٢٠٠) أن الفجاءة لقب لأبيه واسمه جعونه سمى الفجاءة لأنه غاب إلى اليمن ثم عاد إلى قومه فجأة .

(٢٦) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ١٢٧ وابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ص ١١٧ وابن كثير : البداية والنهاية، جـ٨ ص ٣٤٨ .

- لأبى حنيفة الدينورى (الأخبار الطوال ص ٢٧٣) رواية مختلفة وبمقارنتها برواية الطبرى تبدو رواية أبى حنيفة مضطربة وأقل دقة .

عبد الملك بن مروان قد سار إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير فكتب مصعب إلى المهلب يستشيره فطلب المهلب من الصعب أن يشترك معه فى قتال عبد الملك لكن المصعب خشى إذا ترك المهلب قتال الخوارج أن ينصرف أهل البصرة عن محاربة عبد الملك من ناحية ومن ناحية أخرى ينفتح الطريق أمام الخوارج لمهاجمة البصرة من ناحية أخرى فتضطرب صفوف المصعب ويصبح بين جبهتين لذلك أمر المهلب بأن يبقى فى مواجهة الخوارج وأن يكفيه ناحيتهم ليتفرغ هو لقتال عبد الملك(٢٧) لكن المعركة أسفرت عن انتصار عبد الملك ومقتل مصعب الزبير(٢٨) ولما بلغ خبر ذلك إلى المهلب بايع هو ومن معه لعبد الملك بن مروان فعيرهم الخوارج بهذا التقلب وسألوهم فى سخرية عن المصعب وعبد الملك : أيهما المحق وأيهما المعتدى فرد عليهم أصحاب المهلب : رضينا بذاك إذ كان ولى أمورنا ونرضى بهذا كما رضينا بذاك (٢٩).

وقد عبرت هذه العبارة الموجزة عن سياسة المهلب وموقفه الثابت من الولاء للخلافة على الرغم مما يبدو فى الظاهر من تقلبه، فهذا التقلب الظاهرى كان فى حقيقته تمسكاً بطاعة الخلافة مهما تغيرت شخصية الخليفة أو نسبه سواء كان أموياً أو زبيرياً .

وأغلب الظن أن انتماء المهلب بن أبى صفرة إلى أزد عمان الذين وضعهم العرب فىمرتبة أدنى من أزد شنوءة هو الذى دفعه إلى الالتزام التام

---

(٢٧) ابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ١٠ .

(٢٨) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٩ .

(٢٩) الطبرى : تاريخه جـ٦ ص ص ١٦٨ - ١٦٩ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص١٠.

بطاعة الخلافة وخدمتها ليحرز بذلك من المجد والشرف ما ينسى العرب فكرتهم عن تواضع نسب أزد عمان .

تولى عبد الله بن خالد بن أسيد على البصرة من قبل عبد الملك بن مروان فجعل المهلب على خراج الأهواز وجعل المغيرة بن المهلب على اصطخر بينما عهد بحرب الخوارج إلى أخيه عبد العزيز بن عبد الله بن خالد فهزمه الخوارج وسبوا امرأته(٣٠) فكتب عبد الملك بن مروان إلى عامله على البصرة يقبح رأيه أن جعل أخاه على حرب الخوارج وترك المهلب بن أبى صفرة يجبى الخراج وهو – على حد قول عبد الملك – "الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسى لها" وأمر الخليفة عامل البصرة أن يخرج للقاء الخوارج بنفسه على ألا يعمل فيهم برأى حتى يحضره المهلب ويستشيره فيه(٣١) .

كان الخليفة عبد الملك بن مروان على اقتناع كامل بأن المهلب هو أقدر القادة على حرب الخوارج لذلك أمر أخاه بشر بن مروان حينما ولاه على العراق أن يجعل المهلب على حرب الخوراج "ولينتخب من أهل مصره

---

(٣٠) جـ٦ ص ص ١٦٩ : ١٧٠ وابن الأثير: الكامل ، جـ٤ ص ١٥. الصنعانى: مسالك الأبصار ص ٩٢.

(٣١) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ١٧١ وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ص ٢٠ .

– كان هناك فيما يبدو تقدير متبادل بين عبد الملك بن مروان والمهلب ابن أبى صفرة إذ ذكر خليفة بن خياط (تاريخه، جـ١ ص ٢٦١) أن المهلب كان يتوقع وصول الخلافة إلى عبد الملك ويحكى أنه لما قدم على يزيد بن معاوية رسولاً لسلم بن زياد دخل عبد الملك بن مروان على الخليفة يزيد بن معاوية فلما انصرف قال يزيد للمهلب: زعم أهل الكتب أن عبد الملك سيملك فقال المهلب الله أعلم، والله لئن ملك إنه لعفيف فى الإسلام واسط فى العشيرة فبلغت عبد الملك عن المهلب فكان يشكرها له .

وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فإنى أوثق شئ بتجربته ونصيحته للمسلمين"(٣٢).

عز على بشر بن مروان أخى الخليفة أن جاءت امرة المهلب على حرب الخوارج من قبل الخليفة فلا يكون له على المهلب سلطان فعمل بشر ابن مروان على ان يضع العراقيل على طريق المهلب فحرض عبد الرحمن ابن مخنف الذى بعثه على أهل الكوفة مدداً للمهلب أن يخالف المهلب ولا يسمع له لكن ابن مخنف لم يمتثل لرغبة بشر بن مروان الذى لم يلبث أن توفى سنة ٧٤هـ وكان المهلب قد سار بأهل البصرة حتى نزل على الخوارج برام مهرمز ولحق به ابن مخنف بأهل الكوفة فلما وصلهم نعى بشر بن مروان انصرف عن المهلب وابن مخنف كثير من جندهما(٣٣).

عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بأمر العراق إلى الحجاج بن يوسف الثقفى فلما دخل الحجاج المصرين - الكوفة والبصرة - توعد أهلهما أن يسفك دم من وجده بعد ثلاثة أيام من جند المهلب وأمر العرفاء أن يلحقوا الناس بالمهلب وأن يأتوه بالبراءات من الملهب بموافاتهم فسارع أهل المصرين إلى المهلب خوفاً من بطش الحجاج(٣٤) فتزايد جند المهلب وجند ابن مخنف وتحسن موقفهما فى مواجهة الخوارج عن ذى قبل فأجليا الخوارج عن رامهرمز فى العشرين من شعبان سنة ٧٥هـ وطارداهم حتى كازرون

---

(٣٢) الطبرى : تاريخه جـ٦ ص ص ١٩٥ - ١٩٦ واليعقوبى: تاريخه ، جـ٢، ص ٢٧٢ .

(٣٣) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ١٩٧وابن قتيبة : الامامة والسياسة، جـ٢ ص ٩٤ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ٣٠ .

(٣٤) الطبرى: تاريخه، جـ٦ص ص ٢٠٤ - ٢١٠ وابن الأثير: الكامل، جـ٤ ص٣٦.

فخندق المهلب على جيشه كما هى عادته دوماً ونصح ابن مخنف أن يخندق مثله على جنده لكن الكوفيين أصحاب ابن مخنف استنكفوا أن يخندقوا وقالوا لقائدهم إنما خندقنا سيوفنا، فلما أراد الخوارج أن يبيتوا المهلب ليلاً وجدوه آخذاً حذره فما لوا إلى ابن مخنف وانقضوا عليه فانهزم عنه أصحابه لكنه ظل يقاتل فى قلة منهم حتى قتل(٣٥) .

بعث الحجاج عتاب بن ورقاء ليخلف ابن مخنف على جنده وامره أن يسمع ويطيع للمهلب إذا ضمتهما الحرب لكن عتاباً أنف من ذلك فاستدعاه الحجاج إليه وجعل للمهلب قيادة الجندين معاً فأقام المهلب ابنه حبيباً على جند الكوفة(٣٦) .

ظل المهلب يقاتل الخوارج بناحية سابور نحو عام بعد ما جمع له الحجاج قيادة جند المصرين وتمكن من اجلائهم عن فارس فوجه الحجاج عماله إلى فارس ليجبوها لكن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر الحجاج أن يترك للمهلب خراج فارس وكورة فسا ودرابجرد وكورة اصطخر ليستعين بجبايتها على تقوية جيشه(٣٧) .

عز على الحجاج فيما يبدو أن يأخذ المهلب فارس من يده بأمر من الخليفة فأراد أن يظهر سلطانه على المهلب فكتب إليه يتهمه بالتكاسل عن قتال الخوارج وأرسل بكتابه البراء بن قبيصة ليستطلع أحوال المهلب وليحثه على قتالهم فشهد البراء من قتال المهلب للخوارج وبلاء المهلب وبنيه ما

---

(٣٥) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ٤١٣ وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ص ٤٠ . والصنعانى : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٣٦) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ص ٢٠٤ - ٢١٠ وابن الأثير : الكامل، جـ٤ ص ٣٦ .

(٣٧) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ٣٠١ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ٦٤ .

أقنعه بسلامة موقف المهلب والتمس لـه العذر فيما يلقاه من شدة مقاومة الخوارج وصلابتهم وعاد إلى الحجاج ليخبره بما رأى(٣٨) .

طال القتال بين المهلب والخوارج عند سابور لثمانية عشر شهراً حتى وقع الخلاف بين الخوارج وانقسموا على أنفسهم فخرج أكثرهم على قطرى ابن الفجاءة وخلعوه وبايعوا عبد ربه الكبير ولم يبق على بيعة قطرى منهم إلا أقل من ربعهم وقاتل بعضهم بعضاً(٣٩) .

بينما كان الحجاج يرى أن يبادر المهلب إلى قتال الخوارج للإفادة مما بينهم من خلاف كان المهلب يرى عدم التدخل طالما يقاتلون بعضهم بعضا ففى ذلك هلاكهم أو اضعاف شوكتهم فإذا ما أضعفوا أنفسهم بأيديهم أجهز عليهم وعلى ذلك ترك المهلب الخوارج يقتتلون فيما بينهم شهراً دون تدخل منه كيلا يعاودوا تجميع أنفسهم ضده ونجحت خطة المهلب فى اضعاف الخوارج إذ خرج قطرى بن الفجاءة فى القلة التى اتبعته نحو طبرستان بينما بقى عبد ربه الكبير فى أكثرهم وقد وهنوا فنهض المهلب لقتال عبد ربه الكبير ومن معه وأجهز عليهم حتى أنه لم يبق منهم إلا القليل(٤٠) أما القلة التى صحبت قطرى بن الفجاءة فقد وجه إليهم الحجاج جيشاً من أهل الشام وتمكن هذا الجيش بمعاونة جند من أهل الكوفة كانوا بطبرستان أن يلحقوا بقطرى فى شعب من شعاب طبرستان وانتهى الأمر بهزيمته وقتل وتفرق أصحابه سنة ٧٧هـ(٤١) .

---

(٣٨) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ٣٠٢ .

(٣٩) نفس المصدر، جـ٦ ص ٣٠٣ .

(٤٠) اليعقوبى : تاريخه جـ٢ ص ٢٧٥ .

(٤١) خليفة بن خياط: تاريخه ، جـ١ ص ٢٧٦ والطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ٣٠٩ واليعقوبى : تاريخه جـ٢ ص ٢٧٦ .

وهكذا تم القضاء على الأزراقة. فلما فرغ المهلب منهم قدم على الحجاج سنة ٧٨هـ فأكرمه وأجلسه بجانبه وأحسن إلى أهل البلاء من أصحابه وزاد فى أعطياتهم ثم عهد إلى المهلب بولاية خراسان(٤٢)، لتبدأ مرحلة جديدة فى خدمة المهلب للخلافة والدولة الإسلامية. ومع أن خراسان لم تكن ميداناً جديداً على المهلب إلا أنه جاءها مجدداً كوال يمكنه أن ينهض فيها إلى ما يريد لكنه كان قد بلغ من الكبر عتياً مما جعله اكثر اعتماداً على أبنائه فى تنفيذ ما يخطط له من عمليات حربية لذلك بادر بارسال ابنه حبيباً على مقدمته إلى خراسان ليضبطها له حتى يلحق به(٤٣) ولما وصل المهلب خراسان جرى على عادة الولاة قبله فى عبور النهر فعبر إلى ما وراء النهر سنة ٨٠هـ وغزا كش ونسف(٤٤) لكنه لم يتعد كش ومكث بها نحواً من سنتين متخذاً منها مركزاً لعمليات محدودة كان يخطط لها ويقوم أبناؤه على تنفيذها فغزا ابنه يزيد الختل وسار ابنه حبيب لقتال ربنجن صاحب بخارى فوجده فى إحدى قراها فأثخن فى جنده وأحرق القرية التى سميت لذلك بالمحترقة(٤٥) لكن المهلب الذى أوهنه الكبر عزف عن مزيد من القتال فلما توفى ابنه المغيرة نائبه على مرو اشتد به الجزع فعجل بمصالحه أهل كش على فدية

---

(٤٢) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ص ٣١٩ - ٣٢٠ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ٦٦، ص ٧٨ .

- بلغ من تشريف الحجاج للمهلب أن قال : يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب.

(٤٣) ابن الأثير : الكالم جـ٤ ص ٧١ .

(٤٤) خليفة بن خياط : تاريخه ، جـ١ ص ٢٧٩ .

(٤٥) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ص ٣٢٥ - ٣٢٦ والنويرى : نهاية الأرب جـ ٢١ ص ٢٠١ .

ارتضوها وعاد إلى مرو سنة ٨٢هـ لكنه توفى فى الطريق إليها عند قرية تدعى زاغول من قرى مرو الروذ بعد أن أوصى من حضره من أبنائه بالتكاتف وعدم التفرقة واستخلف عليهم ابنه يزيد وأمرهم بالطاعة له(٤٦) .

وهكذا انتهت حياة رأس أسرة المهالبة الذى نال من ثناء معاصريه وتقديرهم ما لم يحظ به كثير من أقرانه ونسبت إليه الفضائل كلها حتى أن حساده لم يجدوا ما ينتقدونه فيه إلا أن يسمى بعضهم ما كان يقوم به فى الحرب من خدعة كذباً مع أن خدعة الحرب لا تعد كذباً على الإطلاق بل تحمد فى الحرب الخدعة .

خلف يزيد بن المهلب أباه على خراسان(٤٧) وأصبح بو حية أبيه زعيماً للمهالبة . وبادر يزيد بن المهلب بالتصدى لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٣هـ الذى كان قد أعلن الثورة على الحكم الأموى قبيل وفاة المهلب، ويبدو أن يزيد بن المهلب كان يريد تجنب الصدام بابن الأشعث ريثما يوطد الأمور لنفسه فى أول ولايته فكتب إلى ابن الأشعث أن "ارتحل إلى بلد ليس لى فيه سلطان فإنى أكره قتالك وإن أحببت أن أمدك بمال لسفرك أعنتك به"، ويبدو أن ذلك قد أطمع ابن الأشعث فى ابن المهلب أو أنه لم يرد الابقاء عليه خلفه شوكة فى ظهره فسار إليه يزيد بن المهلب وقاتله فانكشف جيش

---

(٤٦) الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ص ٣٥٠ - ٣٥٣ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ص ٨٢ - ٨٣ .

- يجعل خليفة بن خياط (تاريخه ، جـ١ ص ٢٧٩) ثورة ابن الأشعث سبباً لعودة المهلب إلى مرو سنة ٨١ إذ عاد حينما أتاه كتاب ابن الأشعث يدعوه إلى خلع الحجاج .

(٤٧) يرجع اليعقوبى (تاريخه جـ٢ ص ٢٧٦) ولاية يزيد إلى غير رغبة أبية وإنما "استخلفه على كره منه لصلفه وتيهه إلا أن الحجاج كتب إليه بذلك" .

الأشعث لكن يزيد أمر أصحابه بالكف عن ابن الأشعث وسمح له بالأفلات بعدم أخذ ما كان فى عسكره وأسر من جنده بعض الأسرى(٤٨) .

يبدو أن يزيد بن المهلب أبقى على ابن الأشعث ليكون شوكة فى حلق الحجاج ينشغل بها عن التدخل فى شئون ابن المهلب فلم ينس الحجاج له ذلك ووجد عليه فى نفسه حتى عزله سنة ٨٥هـ(٤٩) بل حرص الحجاج على اذلال يزيد والمهالبة ومن معهم من أهل المصرين بخراسان بعد أن أذل اخوانهم بالعراق ، إذ لم يكن الحجاج يتخوف إلا من يزيد بن المهلب بخراسان(٥٠) .

---

(٤٨) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ص ٣٧١ : ٣٧٣ .

(٤٩) ذكرت أسباب عديدة لعزل الحجاج ليزيد بن المهلب عن خراسان فقد ذكر اليعقوبى (تاريخه، جـ٢ ص ٢٧٦) أنه أنكر عليه أشياء بلغته عنه، وأشار آخرون (الطبرى : تاريخه، جـ٦ ص ٣٩٣، وابن الأثير: الكامل، جـ٤ ص ٩٦) إلى أن أحد الرهبان تنبأ للجحاج بأن من سيلى بعده رجل يقال له يزيد فوقع فى نفسه يزيد بن المهلب وخشى منه على سلطانه، وذكر الطبرى أيضاً (تاريخه، جـ٦ ص ٣٨) أن الحجاج غضب على يزيد بن المهلب منذ أن حرضه عليه أحد أسرى قيس الذين بعثهم إليه ابن المهلب فقال له الأسير : لا رأت عيناك يا حجاج الجنه إن أقلت يزيد بما صنع فسأله وما صنع فأنشده قائلاً:

لأنه كاس فى أخلاق أسرته وقاد نحوك فى أغلالها مضرا
وقى بقومك ورد الموت أسرته وكان قومك أدنى عنده خطرا

فأطرق الحجاج ملياً ووقرت فى قلبه ولم تزل فى نفسه حتى عزل يزيد عن خراسان ويفيد ذلك بوجود نوع من التنافس القبلى بين الحجاج الثقفى (قيسية) وبين المهالبة الأزد (كلبية) .

(٥٠) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ٣٩٦ .

لم يكن عزل يزيد بن المهلب عن خراسان أمـراً هيناً وإنما كـان أمـراً خطيراً قد لا تحمد عواقبه ولذلك خطط الحجاج لهذا العزل تخطيطاً محكماً يمتص غضب الخليفة عبد الملك بن مروان من جهة ويحـول دون تمـرد ابـن المهلب وثورته من جهة أخرى. ولذلك مهد الحجاج بأن دس لدى الخليفة عبد الملك الذى كان حسن الرأى فى المهلب لم يقبل من الحجاج طعناً فى المهالبـة ولم ير نقصاً فيهم أن أطـاعوا ابـن الزبـير بـل رأى أن وفـاءهم لابـن الزبيـر يدعوهم إلى الوفاء لعبد الملك، فكتب الحجاج ثانية إلى عبد الملك يخوفـه مـن غدر ابن المهلب فأدرك الخليفة أن الحجاج لن يمل حتى يوافقه على عزل ابن المهلب فوافقه(٥١).

وبعد أن حصل الحجاج على موافقة الخليفة خطط لاخراج ابن المهلب من خراسان لكيلا يمتنع عليه فيها واحتال لذلك الأمر فبدأ بأن تزوج مـن هنـد بنت المهلب أخت يزيد ليطمئن إليه يزيد ولا يشك فى نواياه ثـم كتـب إليـه أن يقدم عليه ويستخلف أخاه المفضل فلمـا قدم إليـه عهد الحجـاج إلـى المفضـل بولاية خراسان بدلاً من أخيه يزيد(٥٢) ليقطع علـى يزيـد طريـق العـودة إلـى خراسان مـن ناحيـة ومـن ناحيـة أخـرى يبـذر الشـقاق والتنـافس فـى صفـوف المهالبة فيضعفهم ويسهل عليه ابعادهم عن السلطة وتصفيتهم.

وقد حقق الحجاج فـى هـذه الخطـة نجاحـاً كبيراً فعـزل يزيـد وحبسـه وعـزل المفضل عن خراسان بعد ثلاثة أشهر فقط من ولايته وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان وعزل عبد الملك بن المهلب عن شـرطته(٥٣) ثـم حبس المفضـل وعبد الملك مع أخيهما يزيد بل وطلق هند بنت المهلب بعد أن أظهرت تعاطفاً

(٥١) الطبرى: المصدر السابق حـ٦ ص ٣٩٥. وابن الأثير: الكامل حـ٤ ص ٩٩. والصنعانى : المصدر السابق ص ١٨١.

(٥٢) اليعقوبى : تاريخه ، جـ٢ ص ٢٧٦ .

(٥٣) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ٤٢٦. والصنعانى : المصدر السابق ص١٨٣.

مع أخوتها وأغرم المهالبة ستة آلاف ألف طالبهم بأدائها وبذلك تمكن الحجاج من أن ينزل بالمهالبة ما يمكن تسميته نكبتهم الأولى فى العصر الأموى، لكن المهالبة المحبوسين فى سجن الحجاج تمكنوا من الهرب بمساعدة أخيهم مروان بن المهلب ففزع الحجاج لهربهم وأمر برصد طريق خراسان ظناً منه أنهم سيسلكونه إلى خراسان وكتب إلى عامله عليها وقتذاك قتيبة بن مسلم أن يستعد لهم لكن يزيد واخوته خيبوا ظن الحجاج فلم يتجهوا شرقاً إلى خراسان وإنما اتجهوا غرباً إلى حيث يوجد سليمان بن عبد الملك أخى الخليفة الوليد - وكان قد تولى الخلافة بعد أبيه - فاستجاروا به فأجارهم سليمان أخو الخليفة وولى عهده(٥٤) .

وجد المهالبة الحماية والأمن فى كنف سليمان بن عبد الملك وكف الحجاج عن المهالبة وعما يطالبهم به من أموال وتوفى الحجاج سنة ٩٥هـ بعد تسعة أشهر من هرب المهالبة . ولما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٧هـ عهد إلى يزيد بن المهلب بحرب العراق وصلاتها وخراجها، لكن ابن المهلب استعفى من خراج العراق كيلا يضطر إلى أن يسير فى أهله بسيرة الحجاج ليجمع جباية كجبايته فيكرهه أهل العراق كما كرهوا الحجاج لكن صالح بن عبد الرحمن عامل خراج العراق الذى رشحه يزيد نفسه أخذ يضيق على يزيد وينتقد كثرة نفقاته فسعى يزيد حتى أم الخليفة سليمان بن عبد الملك بنقله إلى خراسان(٥٥) .

(٥٤) نفس المصدر ، جـ٦ ص ص ٤٤٨ - ٤٤٩ . وابن الجوزى : المنتظم ، جـ ص ٢٩٥ . وابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٩ ص ٨٦ .

(٥٥) الطبرى : تاريخه جـ٦ ص ص ٥٢٣ - ٥٢٨ وخليفة بن خياط: تاريخه جـ١ ص ٣١٣ وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ، ص ١٤٤ . وابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ص ص ٥٣٤ - ١٣٥ وخليفة بن خياط تاريخه، جـ١ ص ص ٣١٤ - ٣١٥ وابن الأثير: الكامل جـ٤ ص ١٤٧ - ١٤٨ والعيون والحدائق جـ٣ ص ٢٢ .

عزم يزيد بن المهلب على أن يحقق بعد توليه على خراسان ما عز تحقيقه على قتيبة بن مسلم الباهلى ليظهر أنه أعلى كعباً من صاحب الحجاج الذى اشتهر كفاتح لما وراء النهر، فاتجه يزيد بن المهلب بعد أربعة اشهر فقط من ولايته على خراسان ليغزو جرجان وطبرستان فى سنة ٩٨هـ. وبدأ يزيد بدهستان فاضطر دهقانها المسمى "صول "أن يطلب الصلح من ابن المهلب على نفسه وأهل بيته وما له وان يغادر المدينة ويتركها ليزيد فأصاب فيها يزيد من الأموال والكنوز والسبى شيئاً كثيراً ثم اتجه إلى جرجان وصاحبها المرزبان ففتحها صلحاً وولى عليها رجلا من الأزد ثم دخل طبرستان فصالحه صاحبها الأصبهبذ على سبعمائة ألف درهم منها أربعمائة ألف نقدا وما تبقى يؤدى عينا من ثياب وطيالس وزعفران وفضة وحرير وكان صلحهم قبل ذلك على مائتى ألف درهم فقط(٥٦) .

ومع أن يزيد بن المهلب نال من فتح جرجان طبرستان ما لم يسبق إلى مثله ، إلا أنه كتب إلى سليمان بن عبد الملك بخبر تلك الفتوح مبالغاً أشد المبالغة أشد المبالغة فى تقدير ما حصل عليه حتى قال إنه حصل عنده من الخمس فقط أربعة آلاف ألف(٥٧) ولم يدر ابن المهلب أنه سيحاسب يوماً على مبالغته هذه وتهويله وأن الخليفة عمر بن عبد العزيز سيطالبه بأداء هذه الأموال التى كتب عنها إلى سليمان بن عبد الملك .

---

(٥٦) الطبرى : تاريخه ، جـ٦ ص ص ٥٣٤ - ١٣٥ وخليفة بن خياط: تاريخه ، جـ١ ص ص ٣١٤ - ٣١٥ وابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص١٤٧ - ١٤٨ والعيون والحدائق جـ٣ ص ٢٢ .

(٥٧) الطبرى : تاريخه ، جـ ٦ ص ص ٥٤١ - ٥٤٢ .
وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ص ١٥٠ .

نكث اهل جرجان صلحهم مع يزيد بن المهلب أثناء انشغاله بفتح طبرستان، فلما صالح الأصبهبذ سار مجدداً إلى جرجان فحاصر صاحبها المرز بان سيعة أشهر حتى رضخ أهل جرجان لابن المهلب ثانية ونزلوا على حكمه فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وانتقم منهم أشد انتقام(٥٨) .

علا شأن يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك علواً كبيراً وارتفع معه شأن المهالبة وولوا على كثير من الولايات ، فتولى مروان بن عبد الملك على البصرة وظل عليها حتى وفاة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ، وتولى على سجستان مدرك بن المهلب ثم معاوية بن يزيد بن المهلب، وجمع لحبيب بن المهلب حرب السند وخراجه فقام هناك ببعض الفتوح، وتولى زياد بن المهلب على عمان(٥٩) .

وهكذا كانت خلافة سليمان بن عبد الملك من أزهى أيام المهالبة التى بلغوا فيها من النفوذ والجاه أمداً بعيداً، فلما تولى الخلافة عمر بن بعد العزيز سنة ٩٩ هـ لم يكن رأيه فيهم كرأى سلفه ولكنه كان يبغض يزيد وآله المهالبة ويراهم جبابرة تجب محاسبتهم وكف أيديهم عن الرعية، فاستدعى الخليفة عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب وأمره أن يستخلف على عمله ويقدم عليه فاستخلف يزيد ابنه مخلداً على خراسان وأقبل حتى نزل واسطا واتجه منها نحو البصرة لعله يعتز بأهلها ويجد فيهم ملاذاً لكن عامل البصرة عدى

---

(٥٨) خليفة بن خياط : تاريخه ، جـ١ ص ٣١٥ والعيون والحدائق ص٢٣.

(٥٩) خليفة بن خياط : تاريخه جـ١ ص ص ٣١٧ - ٣١٩ .

والبلاذرى : فتوح البلدان ، جـ٣٣ ص ٥٥٤٠ .

وفلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٠٢ .

ابن ارطأه أمسك به وأوثقه واقتاده إلى الخليفة فسأله عمر بن عبد العزيز عن الأموال التى كتب بها قبلا إلى سليمان بن عبد الملك فزعم يزيد بن المهلب أنه كتب بها مبالغاً ومباهياً ليسمع الناس به ثقة فى أن سليمان لم يكن ليأخذه بها لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بحبسه حتى يؤدى ما كتبه بنفسه وأودعه حصن حلب فظل محبوساً فيه حتى مرض الخليفة عمر بن عبد العزيز(٦٠) .

اشتد مرض عمر بن عبد العزيز وخشى ابن المهلب من أن يقضى الخليفة نحبه فتصير الخلافة إلى ولى عهده يزيد بن عبد الملك، وكان بين اليزيدين - ابن المهلب وابن عبد الملك - من الخصومة والتباعد ما خشى منه ابن المهلب على نفسه(٦١) فدبر للهرب من حبس الخليفة المريض ورشا فى سبيل ذلك عامل حلب والحرس المكلفون به حتى مكنوه من الهرب فاتجه إلى البصرة(٦٢). وفى أثناء هرب يزيد بن المهلب توفى عمر بن عبد العزيز وآلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ فكتب الخليفة الجديد الى عامل البصرة عدى بن أرطأه أن يأخذ حذره من يزيد بن المهلب وأن يحبس جميع من بالبصرة من المهالبة فقام عدى بحبس المفضل وحبيب ومروان بنى المهلب ووصل يزيد بن المهلب البصرة فدخلها بعد أن استمال أهلها بما أغدقه

---

(٦٠) خليفة بن خياط : تاريخه جـ١ ص ٣٢ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ١٥٧ والعيون الحدائق جـ٣ ص ٥٠ .

(٦١) كان يزيد بن المهلب قد أساء إلى آل أبى عقيل أصهار يزيد بن عبد الملك وعذبهم ولم يقبل شفاعته فيهم فتوعده يزيد بن عبد الملك ليقطعن منه عضواً إذا صارت إله الخلافة فتوعده ابن المهلب إذا حدث ذلك أن يثور عليه فى مائة الف مقاتل .

(٦٢) الأزدى : تاريخ الموصل ، ص ٣٣ وابن الأثير : الكامل جـ٤ ص ١٦ وابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧ ص ٦٤ .

عليهم من أموال فكثر اتباعه ولم يقو عدى بن أرطأه على صده بل أرسل ابن المهلب إلى ابن ارطأه أن يطلق سراح اخوته على أن يصالحه على البصرة ويتركه وإياها حتى يأخذ لنفسه من يزيد بن عبد الملك ما يحب غير أن عدى لم يوافقه على ذلك فحاربه يزيد بن المهلب واقتحم عليه قصر الإمارة وأعلن خلعه طاعة الخليفة يزيد بن عبد الملك وبعث بعمال من قبله إلى خراسان والأهواز وكرمان(٦٣) .

هكذا أظهر يزيد بن المهلب العصيان والخروج عن طاعة الخلافة متراجعاً بذلك عن سياسة طالما التزم بها أبوه المهلب ولم يكن يزيد بن المهلب نفسه قد أقدم على شئ من ذلك قبلا حتى أيام محنته فى حبس الحجاج كما أنه تقبل حبس عمر بن عبد العزيز له دون أن يفكر فى عصيان الخلافة ولم يقدم على ما أقدم عليه إلا خوفاً من يزيد بن عبد الملك مما يدل على شدة التباعد بينهما ، لكنه كان بالإمكان تلافى ذلك الخروج على الخلافة لو علم ابن المهلب مبكراً أن ابن أخيه حميد بن عبد الملك بن المهلب كان قد حصل لعمه يزيد وللمهالبة جميعا على الأمان من الخليفة يزيد بن عبد الملك، لكن حميد وصل بالأمان من الخليفة متأخراً قليلاً بعد أن سبق السيف العزل وشق عمه ابن المهلب عصا الطاعة وأشعل الفتنة(٦٤).

أدت فتنة المهلب إلى مواجهة جديدة بين أهل الشام وأهل العراق كان بالإمكان أن تضر بالدولة الإسلامية ، إذ وجه الخليفة أخاه مسلمه بن عبد

---

(٦٣) الأزدى : المصدر السابق ، ص ص ٨ - ٩ وخليفة بن خياط : تاريخه ، جـ١ ص ٣٢٢، وابن الأثير : الكامل ، جـ٤ صص ١٦٨ وابن الجورى : التنظيم ، جـ٧ ، ص ٦٧ . وفلهوزن : المرجع السابق ، ص ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٦٤) الأزدى : المصدر السابق، ص ٩ وابن الأثير : الكامل، جـ٤ ص ١٦٩، وفلهوزن - المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

الملك وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك على رأس سبعين ألف مقاتل من أهل الشام والجزيرة لحرب ابن المهلب بينما شحن يزيد بن المهلب أهل البصرة وخرج بهم إلى واسط وأرسل طلائعه إلى الكوفة بقيادة أخيه عبد لملك بن المهلب ويبدو أن كان يريد تجميع أهل المصرين ضد جند الشام لكن العباس بن الوليد حال دون ذلك بهزيمته لعبد الملك بن المهلب بينما سار مسلمة بن عبد الملك حتى نزل على يزيد بن المهلب فى موضع يسمى الوقرة من أرض بابل ودارت بينهما معركة حامية استمرت ثمانية أيام ثم انجلت عن هزيمة منكرة للمهالبة ونكبة شديدة لهم أشد وأنكى من نكبتهم الأولى زمن الحجاج ففى هذه النكبة الثانية قتل يزيد بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب(٦٥) وهرب من تبقى منهم بحراً حتى نزلوا جبال كرمان ثم حملوا عيالاتهم وأموالهم واتجهوا شرقاً يتقدمهم المفضل بن المهلب ، لكن مسلمة بن عبد الملك أرسل من تعقبهم حتى أدركهم وقاتلهم فقتل بعضاً ممن صحبهم لكن المهالبة الناجين وصولوا إلى قندابيل فمنعوا من دخولها ولحق بهم هلال بن أحوز الذى ارسله مسلمة بن عبد الملك فقاتل المهالبة وقتل منهم المفضل وزياد ومروان بنى المهلب ومعاوية بن يزيد بن المهلب والمنهال بن أبى عيينه بن المهلب وعمرو والمغيرة ابنى قبيصة بن المهلب وأسر بعض المهالبة فأرسل قتلاهم وأسراهم إلى مسلمة الذى أرسلهم إلى اخيه يزيد بن عبد الملك(٦٦) .

---

(٦٥) الأزدى : المصدر السابق ، ص ص ٩ - ١٢ وخليفة بن خياط: تاريخه جـ١ ص ٣٢٥ . وابن الأثير : : الكامل جـ٤ ص ص ١٧٠ - ١٧١ وخالد بلانكنشب: المرجع السابق ص ٢٦٠.

(٦٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ، ص١٧٥ .

هكذا وقعت بالمهالبة نكبة مروعة سنة ١٠٢هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك لم ينج منها إلا قلة قليلة منهم ممن تمكنوا من الفرار أو ممن كانوا بعيدين عن الأحداث وكان لتلك النكبة أثرها في انصراف من تبقى من المهالبة عن الولاء لبنى أمية وتحولهم بالولاء إلى اعدائهم خاصة العباسيين.

كانت الدعوة العباسية قد بدأت سراً سنة ١٠٠هـ قبل عامين فقط من نكبة المهالبة على يد يزيد بن عبد الملك لذلك لم يكن غريباً أن ينضم بعض بقايا المهالبة إلى العباسيين وأن يشاركوا في الثورة العباسية ضد الحكم الأموى، فكان أبو سعيد بن معاوية بن يزيد بن المهلب على مقدمة أبى مسلم الخراسانى حين دخل ينسابور سنة ١٣١هـ ، ووجه قحطبة قائد الجيش العباسى عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب ومعه عمر بن حفص هزار مرد إلى عين التمر سنة ١٣١هـ، وكان أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ممثلاً لقحطبة في التفاوض مع أهل الشام ودخل نهاوند سنة ١٣١هـ(٦٧) . وبذلك دخل المهالبة في دور جديد من أدوار خدمتهم للخلافة لا يدفعهم إليه رغبتهم في الانتقام من الأمويين فقط وإنما يدفعهم إليه أيضا إدراكهم أن الخلافة الأموية إلى زوال وأن الخلافة القادمة عباسية .

وبعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ ، أشرك الخلفاء العباسيون المهالبة في إدارة الدولة الجديدة واستعملوهم على كثير من الولايات ليس فقط كمكافأ لهم على ما أسهموا به من جهود لنجاح الثورة العباسية وإنما أيضاً لكفايتهم وخبراتهم العريضة التى ورثوها عن اسلافهم ذوى النباهة في العصر الأموى ، وتميز الدور الجديد للمهالبة في خدمة الخلافة بأنه لم يقتصر على المشرق الإسلامى وإنما امتد أيضاً إلى المغرب الإسلامى .

---

(٦٧) خالد بلانكنشب : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

استعمل الخلفاء العباسيون كثيراً من المهالبة على ولايات المشرق، فقد استعمل ابو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين عمر بن حفص هزار مرد على البصرة لما للمهالبة من رصيد في نفوس أهلها لكنه عزله عنها سنة ١٣٣هـ(٦٨) ثم استعمله على البحرين(٦٩)،

واستعمل أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب على البصرة سنة ١٣٧هـ ثم استعمل عليها بعده عمر بن حفص هزار مرد سنة ١٣٨هـ لكنه أبدله بأزدى آخر هو عبد العزيز بن عبد الرحمن لكن هزار مرد أعيد إلى البصرة مرة أخرى سنة ١٤٢هـ لمدة عام نقلل بعده إلى ولاية السند سنة ١٤٣هـ(٧٠) واستلم عمر بن حفص السند عنوة من عاملها قبله عيينة بن موسى الذى امتنع عن تسليمه اياها لكن هزار مرد حاصره أحد عشر شهراً حتى أجبره على تسليمه اياها فاستقامت السند لهزار مرد(٧١) حتى جاء عبد الله الأشتر بن محمد ذى النفس الذكية داعياً لأبيه سراً واستمال هزار مرد إلى دعوته سراً وأخذ هزار مرد يعد الرايات والأعلام البيض لإعلان الدعوة العلوية في الوقت المناسب ويبدو أنه كان ينتظر الأخبار عن انتصار ذى النفس الذكية في الحجاز لكن رسولاً من زوجته خليدة بنت المعارك جاء قبل يوم واحد من إعلان الدعوة العلوية يخبره بمقتل ذى النفس الذكية فلجأ عبد الله الأشتر بن محمد ذى النفس الذكية

---

(٦٨) خليفة بن خياط : تاريخه ، جـ١ ص ٤١٢ .

(٦٩) نفس المصدر ، جـ١ ص ٤١٣ .

(٧٠) نفس المصدر، جـ١ ص ٤٣١ .

(٧١) نفس المصدر ، جـ١ ص ٤٣٣ .

إلى أحد ملوك الصغد لكن خبره وصل إلى أبى جعفر المنصور فكتب إلىهزار مرد يستوضحه الأمر وأسقط فى يد هزار مرد لولا أن رجلا من أهل بيته قدم نفسه فداء له وطلب من هزار مرد أن يلقى عليه وزرها ويقيده ويحبسه وطلب المنصور هذا الرجل وضرب عنقه لكن المنصور لم يطمئن لبقاء هزار مرد فى السند فنقله إلى إفريقية(٧٢) .

وبينما كان هزار مرد المهلبى ينتقل من ولاية إلى أخرى فى المشرق حتى انتهى به المطاف إلى إفريقية فى المغرب كان هناك فرع آخر من المهالبة يسير على نفس المنوال هو فرع حاتم بن قبيصة بن المهلب ممثلاً فى ولديه يزيد بن حاتم وروح بن حاتم اللذان تنقلا أيضاً فى ولايات المشرق وانتهى بهما المطاف أيضاً إلى إفريقية بالمغرب واحداً تلو الآخر .

المهالبة فى المغرب :

كانت بلاد المغرب فى منتصف القرن الثانى الهجرى تموج بفتن وثورات لا تكا د تنقطع يشعلها حيناً جند الخلافة العباسية ضد الولاة العباسيين أنفسهم أو يشعلها حيناً آخر متمردو البربر خاصة الخوارج منهم(٧٣) مما دعا الخليفة أبا جعفر النمصور إلى أن يتخير لولاية إفريقية بعد مقتل الأغلب بن سالم التميمى سنة ١٥٠هـ رجلاً على مستوى الأحداث الخطيرة التى تشهدها بلاد المغرب هو عمر بن حفص المهلبى من ولد أبى قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب بن أبى صفرة أملاً فى أن يتمكن

---

(٧٢) الطبرى : تاريخه ، جـ٨ ص ص ٣٣ - ٣٤ .

والأزدى : تاريخ الموصل ، ص ٢١٣ .

(٧٣) ابن عذارى البيان المغرب ، جـ١ ص ص ٧٣ - ٧٤ .

والنويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٤ ص ص ٧٦ - ٧٨ .

هـذا الوالى المهلبى من القيام فى المغرب بدور شـبيه بما قام بـه رأس المهالبـة فى المشـرق فيقضى على خـوارج المغرب مثلما قضى المهلـب على الأزارقة من قبل(٧٤) .

وصل عمر بن حفص إلى القيروان سنة ١٥١هـ، وكان له من شـجاعته التى اشتهر بها ولقب بسببها هزار مرد (ألف رجل) ولـه من صيت المهالبـة الذائع ما يجعل مثيرى الفتن والثورات يهابونه ويحسبون له كل حسـاب(٧٥) . وبادر عمر بن حفص الذى حنكته التجـارب بعد دخولـه القيروان إلى تهدئـة خواطر الجند وتسكين نفوس الأهالى فاجتمع بوجوه النـاس ووصلهم وأحسن إليهم فاستقامت له الأمور بإفريقية أكثر من ثلاث سنوات(٧٦) .

وبينما كان عمر بن حفص هزار مرد يوطد حكمه فـى إفريقيـة ويقـوى وضعه فيها كأساس للانطلاق نحو مهمتـه الأساسية وهـى التصـدى لخـوارج المغرب، كان هؤلاء الخـوارج أنفسـهم يراقبـون هـزار مـرد ويعـدون أنفسـهم للصدام المرتقب معه والـذى يكفـى اسـم أسـرته وصيت رأسـها – المهلـب – ليفطن الخوارج إلى مهمته الحقيقية فى بلادهم .

كان خوارج المغرب فرقتين رئيسيتين هما: الأباضية والصفرية وكـان

---

(٧٤) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٥ وابن الأثير : الكـامل، جـ٥ ص ٣١ والنويرى : المصدر السابق، جـ٢٤ ص ٧٩ والسلاوى : الاستقصا، جـ١ ص ١٣٠.

(٧٥) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، حـ١ ص ٣٥١ .

والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٢٦٤.

(٧٦) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٤ ص٧٩ وابن الأثير: الكامل جـ٥ ص ٣١.

وابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة ، ص ٤٨ .

والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٦٤ وعبد العزيز الثعالبى : تـاريخ شمال إفريقية ص ١٧٩ .

لكل فرقة منهما حينذاك جناحان ، فالأباضية كان لهم جناح فى طرابلس يتزعمه أبو حاتم الملزوزى. وجناح آخر فى المغرب الأوسط كان أبرز زعمائه عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة بنى رستم الأباضية فى تيهرت(٧٧). أما الصفرية فكان جناحاهم فى المغرب الأوسط أحدهما فى شماله وأبرز زعمائه أبو قرة اليفرنى فى تلمسان(٧٨) والآخر فى جنوبه فى واحة تافيلالت حيث قامت دولة للصفرية فى سجلماسة(٧٩) لكن دولة سجلماسة الصفرية كانت بحكم موقعها النائى فى أقصى الجنوب بعيدة عن المشاركة فى أحداث إفريقية(٨٠) وكأن بينها وبين ولاة العباسيين فى إفريقية هدنة غير مكتوبة .

لم يلبث الصراع أن تجدد فى إفريقية بعد هدوء السنوات الثلاث الأول من ولاية عمر بن حفص هزار مرد ، وكان مثار الصراع أو قدح زناده بسبب خروج هزار مرد إلى طبنة قاعدة الزاب لتسويرها وتحصينها(٨١).

---

(٧٧) محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج فى المغرب الإسلامى ص٦٦ .

(٧٨) نفس المرجع ، ص ص ٥٨ - ٥٩ .

(٧٩) نفس المرجع ص ٨٥ .

(٨٠) نفس المرجع ، ص ٩٤ .

(٨١) ذكر ابن عذارى (البيان المغرب جـ١ ص٧٥) وابن الاثير (الكامل جـ٥ ص ٣١) والنويرى (نهاية الأرب جـ٢٤ ص ٧٩) أنه خرج لبناء طبنة بينما ذكر آخرون (السلاوى: الاستقصاء جـ١ ص١٣٠) أنه سورها وحصنها، وعند البكرى (المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب، ص٥٠) أن مدينة طبنة كبيرة سورها من بناء المنصور أبى الدوانيق - أى أبى جعفر المنصور - يقال أن الذى بناها عمر بن حفص المهلبى المعروف بهزار مرد... وقال محمد بن يوسف إن قصر طبنة قديم أولى كبير مبنى بالصخر" وقد يعنى ذلك أن عمر بن حفص بنى سور المدينة وعلى الأكثر استكمل بناءا لمدينة التى كانت موجودة أصلاً قبل ولايته على إفريقية.

إذ يبدو أن هزار مرد كان يريد اتخاذها قاعدة لمهاجمة خوارج المغرب الأوسط أباضية وصفرية(٨٢) ولعله ارتكب بذلك خطأ استراتيجياً جسيماً إذ ترك القيروان عرضة لهجوم أباضية طرابلس وكانت لهم أطماعهم في القيروان منذ أيام أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى، وقد تجدد خطرهم بعد أن تحول أبو حاتم الملزوزى من إمامه الدفاع (الستر) إلى امامة الظهور وسيطر على كثير من نواحى طرابلس - إن لم يكن طرابلس نفسها - منذ سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م(٨٣)، وإذا كان الأمر بالخروج إلى الزاب قد جاءه من أبى جعفر المنصور(٨٤) فقد كان من الواجب على هزار مرد أن يراجع الخليفة ويخبره بحقيقة الأوضاع فى ولايته لأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب" على حد تعبير مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية(٨٥) .

أدى خروج عمر بن حفص هزار مراد إلى اقليم الزاب إلى اضطراب أحوال افريقية وإثارة القلاقل فيها من جديد باندلاع ثورة الخوارج فى انحاء كثيرة من المغرب(٨٦) ومع أن ترتيب أحداث تلك الفتة من الصعوبة بمكان

---

(٨٣) أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة، ص ص ٧٨ - ٨٠ .

- يحدد محمود إسماعيل عبد الرازق (المرجع السابق ، ص ٦٧) سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م تاريخاً لا ستيلاء أبى حاتم الملزوزى على مدينة طرابلس لكن رواية أبى زكريا التى يستند إليها لا تعطى هذا التحقيق الزمنى الدقيق لدخول أبى حاتم مدينة طرابلس وفضلاً عن ذلك فإن الوقائع والأحداث تظهر أن طرابلس كان عليها عامل لعمر بن حفص هو الجنيد بن سيار .

(٨٤) ابن وردان : المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٨٥) قال مروان هذه العبارة فى كتاب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان ابان الثورة العباسية (ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ٢ ص ١٣٨).

(٨٦) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٥١ .

لورودها فى المصادر مجملة وبلا ترتيب(٨٧) فقد يكون بالإمكان تقديم سياق معقول لتلك الأحداث .

بدأت الثورة فى إفريقية بعد خروج هزار مرد إلى أقليم الزاب، وتصدى حبيب بن المهلبى وتصدى حبيب بن حبيب المهلبى نائب هزار مرد على القيروان لتلك الثورة التى لم تحدد المصادر هوية القائمين بها لا سياسياً ولا مذهبياً، وقد نجح هؤلاء الثوار فى هزيمة حبيب المهلبى وقتله(٨٨) فتشجع أباضية طرابلس على الثورة بقيادة أبى حاتم المزوزى، لكن الجنيد بن سيار عامل طرابلس وجه جنداً لقتال الأباضية فانتصر الأباضية واستمد الجنيد بن سيار هزارمرد فأرسل إليه مدداً بقيادة خالد بن يزيد المهلبى فاجتمع خالد والجنيد معاً لقتال أبى حاتم الملزوزى لكنه هزمهما فتقهقرا إلى قابس فأرسل هزار مرد جنداً آخرين بقيادة سليمان بن عباد المهلبى فالتقى سليمان بأبى حاتم عند قابس فاقتتلا فانهزم سليمان إلى القيروان التى انفتح الطريق إليها أمام أبى حاتم الملزوزى فسار حتى وصل إليها وحاصرها بينما كان هزارمرد مقيماً بطبنة سنة ١٥٣هـ(٨٩) .

أدى نجاح أبى حاتم الملزوزى فى انزال الهزائم بجند هزارمرد وقعة بعد أخرى حتى حاصر القيروان إلى تشجيع خوارج المغرب على الخروج لقتال هزار مرد الذى رأوا وجوده فى طبنة تهديداً لهم، يقول السلاوى إن الخوارج لما سمعوا أخبار أبى حاتم "انتقضوا من كل ناحية ونبغت رؤوس

---

(٨٧) نفس المرجع، جـ١ ص ٣٠٢ ومحمود إسماعيل : المرجع السابق ، هامش ٢٥٧ من هوامش الباب الثانى .

(٨٨) ابن عذارى:المصدر السابق، جـ١ ص٧٥.وابن الأثير: الكامل،جـ٥ ص ٣١.

(٨٩) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٤ ص ص ٧٩ - ٨٠ .

ومحمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

الفتنة من كل وجه وعادت هيف إلى أديانها، وكانت هذه الفتنة هى زبدة الفتن التى مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الخفير إلى الآن فإنهم زحفوا إلى عمر بن حفص وهو بطبنة من أرض الزاب فى اثنى عشر عسكراً(٩٠) .

حشد الخوارج فى المغرب كل قواهم للاجهاز على عمر بن حفص واشترك الأباضية والصفرية فى القتال جنباً إلى جنب لأول مرة فى بلاد المغرب(٩١) فجاء من الأباضية عبد الرحمن بن رستم فى قواته وعاصم السدرانى والمسور بن هانى فى قواتهما وحتى أبو حاتم الملزوزى ترك حصار القيروان مؤقتاً واتجه إلى طبنة ليشارك فى حصار عمر بن حفص. وجاء من الصفرية أبو قرة اليفرنى فى قوات كثيرة وقوات بقيادة عبد الملك ابن سكرديد الصنهاجى وجرير بن مسعود المديونى وغيرهم(٩٢) وأطبقت قوات الخوارج التىجاوز تعدادها مائة الف مقاتل بكثير(٩٣) على قوات عمر ابن حفص التى لم تتعد بضعة آلاف(٩٤) لكن عمر بن حفص الذى كان قد سور طبنة وحصنها صمد لحصار الخوارج له ولعله استفاد فىذلك من أن أبواب المدينة كان يصعب اقتحامها إذا كانت كلها من الحديد(٩٥) ويبدو أن هزارمرد كان قد أضاف إلى سور المدينة سوراً أمامياً يحمى فحص المدينة

---

(٩٠) الاستقصا : جـ ١ ص ١٣٠ .

(٩١) محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٩٢) ابن عذارى: المصدر السابق ، جـ١ ص ٧٦ وابن الأثير : الكامل جـ٥ ص ٣٢ والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص٨٠ والسلاوى: المصدر السابق جـ١ ص ١٣٠.

(٩٣) وصلوا فى تقدير البعض إلى اكثر من ٣٥٠ ألف مقاتل .

(٩٤) يتراوح تقديرهم بين خمسة آلاف وخمسمائة عند النويرى (نهاية الأرب، جـ٢٤ ص ٨٠) وخمسة عشر الفا وخمسمائةعند ابن عذارى(البيان المغرب، جـ١ص ٧٦).

(٩٥) البكرى : المصدر السابق ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

ويمكنه من الافادة من جداول مياهها وزروع فحصها وغراس بساتينها(٩٦) مما أعطى للمدينة قدرة على الصمود وصعب على الخوارج اقتحامها ، وعلى الرغم من ذلك فقد شدد الخوارج الحصار على طبنة وضيقوا عليها الخناق وبحث هزار مرد عن وسيلة للخلاص فلجأ إلى عادة المهالبة فى استخدام الحيلة والدهاء للإيقاع بين الخصوم والحصول منهم بالحيلة على ما عز عليهم نيله بالسيف(٩٧) .

دس عمر بن حفص رجلا من مكناسة إلى أبى قرة اليفرنى الذى كان يرأس أكبر اجنحة الخوارج الصفرية المحاصرة لطبنة وعرض المكناسى على أبى قرة أن ينسحب بقواته مقابل أربعين ألف درهم وكسا كثيرة، لكن أباقرة رفض تلك الرشوة فتحول المكناسى إلى ابن أبى قرة - أو أخيه - وعرض عليه رشوة أقل من التى عرضت على أبى قرة لكنه قبلها ولم يشعر أبو قرة إلا وقد ارتحل عسكره منصرفين إلى بلادهم فأسقط فى يده واضطر إلى أن يلحق بهم(٩٨) .

أدى انسحاب أبى قرة وعسكره إلى انفراط عقد الخوارج وفشل حصارهم لطبنة. إذ تبادلوا الاتهامات فيما بينهم ودب الخلاف بين الأباضية والصفرية فانسحب أبو حاتم الملزوزى بقواته ليعاود محاصرة القيروان بينما انسحب عبد الرحمن بن رستم إلى تهودة(٩٩) ولما كانت قوات ابن رستم هى

---

(٩٦) البكرى : المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٩٧) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ص ١٣٢ .

(٩٨) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٦ وابن الأثير : المصدر السابق جـ٥ ص ٣٢ . والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٩٩) محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ص ٦٧ - ٦٨ .

الأضعف فقد بادر هزارمرد بتوجيه بعض قواته لتلحق بابن رستم فلحقت بـه وأنزلت به هزيمة أجبرته على التقهقر إلى تيهوت(١٠٠) .

ارتفعت الـروح المعنويـة لهزارمـرد وقواتـــه فقـرر أن يســارع إلــى القيروان ليفك عنها حصار أبى حاتم الملزوزى بعد أن ساءت أحوال القرويـن من شدة الحصار ونفذت مـيرتهم وطعـامهم وأجهدهـم الجـوع واضطـروا إلـى أكل الدواب والكلاب وخرج بعضهم من المدينة وانضم إلى معسكر أبى حـاتم وصار يخشى على القيروان أن تستسلم للأباضية(١٠١) .

علم أبو حاتم الملزوزى باقبال عمـر بـن حفـص نحـو القـيروان فخـرج للقائه وقطع الطريق عليه لكن هزارمرد قام بمناورة ذكية تجنب بها لقـاء أبـى حاتم إذ غير مساره إلى تونس بعيداً عن الموضع الذى ينتظره فيه أبو حاتم ثم اتجه من تونس إلى القيروان فدخلها قبل أن يتنبه له أبو حاتم وأخـذ هزارمـرد فى شحن القيروان بالمؤن والميرة اسـتعداداً للحصـار وحفـر خندقـاً علـى بـاب الربيع لتقوية الدفاع من تلك الجهة(١٠٢). وعاد أبو حاتم إلى حصار القـيروان وطال الحصار حتى نفذت الأقـوات والمـيرة التـى لـم يكـن الوقـت قـد اسـعف هزارمـرد لشـحن مـا يكفـى منهـا فـأكل القرويـون الـدواب والسـنانير وحدثـت بالمدينة مجاعة مات منها خلق كثير وزاد الغـلاء مـع نـدرة الطعـام حتـى بلـغ الملح أوقية بدرهم وانخفضت الروح المعنوية للمدافعيـن عـن القـيروان وسـاء خلق هزارمرد وفقـدت الثقة بينه وبين جنـده(١٠٣) ورأى هزارمرد أن يخرج

---

(١٠٠) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٦٧ .

(١٠١) النويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٨١ .

(١٠٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٦ .

(١٠٣) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٤ ص ٨٢ .

وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٥٦ .

فى مغامرة جريئة لإقتحام الحصار المحكم على القيروان لكن الجند اليائسين تقاعسوا عن تنفيذ ما عزم عليه هزارمرد فازداد حنقا وسخطاً فى الوقت الذى وصل إليه كتاب من خليدة بنت المعارك امرأته تخبره هذه المرة بأن الخليفة أبا جعفر المنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم المهلبى فى جيش كبير لنجدته(١٠٤) فكبر على هزارمرد أن يخرجه رجل من الحصار حتى لو كان من أبناء عمومته، وعز عليه أن يقال إن يزيداً أخرجه من الحصار" فخرج ليقاتل قتال المستميت حتى قتل فى منتصف ذى الحجة سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م(١٠٥) .

لم يستطع أبو حاتم الملزوزى اقتحام القيروان رغم مقتل هزارمرد إذ قاوم جميل بن صخر أخو هزار مرد لأمه والذى خلفه على المدينة مقاومة شديدة، لكن جميلاً أدرك صعوبة الاستمرار فى المقاومة إلى أن يصل يزيد ابن حاتم المهلبى والى إفريقية الجديد ورأى أن الحصول على صلح مشرف خير من أن تقتحم المدينة عليه ، فطلب الصلح من أبى حاتم الذى كان من جانبه يخشى صمود القيراون حتى وصول يزيد بن حاتم المهلبى فلا يستطيع وقتذاك دخولها لذلك قبل مصالحة جميل بن صخر على ألا يخلع جميل

---

(١٠٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٧٦ . وابن الأثير : الكامل : جـ٥ ص ٣٢ . والنويرى : المصدر السابق ، جـ٢٤ ص ص ٨٢ – ٨٣.

(١٠٥) السلاوى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٣١ .

وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٥٦ .

ويجعل ابن الجوزى (المنتظم جـ٨ ص ١٦٦) وفاة هزارمرد سنة ١٥٣هـ بينما يقول ابن وردان (المصدر السابق ص ٤٨) أن بعضهم قتله وهو نائم .

وأصحابه طاعة سلطانهم ولا ينزعون سوادهم وعلى أن كل دم أصابـه الجنـد من الخوراج هدر وعلى ألا يكره أحد مـن الجنـد علـى بيـع سـلاحه أو دابتـه، وبمقتضى هذا الصلح المشرق فتح الجميـل بـن صخـر أبـواب القيروان لأبـى حاتم وخرج أكثر الجند العباسيين إلى طبينة حيث كانت الزاب بأيدى المهالبة، وأقدم أبو حاتم الملزوزى على إحراق أبواب القيروان وأثر فـى سـورها ليس فقط لغيظـه مـن شـدة مقاومتهـا ولكـن أيضـاً لتفقد القـدرة علـى مقاومتـه مـرة أخرى(١٠٦).

وبـادر أبـو حـاتم المـزوزى بعـد استيلائه علـى القيروان بالذهـاب إلـى طرابلس ليقطع الطريق على يزيد بن حاتم ويقاتله هناك فلا شك أن لقاء يزيـد ابن حاتم بطرابلس أنسب لأبى حاتم مـن لقائـه بإفريقيـة إذ أن أبـا حـاتم أدرى بطرابلس وشعابها وأكثر فهماً لطبيعتهما مما يفيده فى إدارة المعركة لصالحـه فضلاً عن أن بعده عـن القيروان سيحول دون وقوعـه بيـن يزيـد مـن ناحيـة والقرويين من ناحية اخرى خاصة بعد رجوعـه عـن الشـروط التـى صـالحهم عليها فأنعدمت الثقة بينهما حتى أنه أمر نائبـه علـى القيروان أن يـأخذ سـلاح جندها وأن يمنع تجمعهم بل ويرسلهم إليه متفرقين واحداً وراء آخر(١٠٧).

لكن جند القيروان الذين ارتفعت معنوياتهم بقـرب قـدوم يزيـد بـن حـاتم المهلبى ثاروا على أبى حاتم لرجوعه عما صالحهم عليه وأنضم إليهم بعـض أتباع أبى حاتم الذين رفضوا الغدر بالقرويين فاتجه أبو حاتم من طرابـلس إلى

---

(١٠٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٧٦ والنويرى : المصدر السـابق جـ٢٤ ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٠٧) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ص ص ٣٢ - ٣٣ .

القيروان لمحاربتهم ثم عاد ثانية إلى طرابلس ليلقى يزيد بن حاتم(١٠٨) وقد شتت ذلك جهود أبى حاتم وأنهك قواه وأحدث فى صفوفه شرخاً بخروج بعض أتباعه عليه(١٠٩) بل انحاز بعض قواته من مليلة ونفوسه إلى يزيد بن حاتم وكانوا له عوناً على الأباضية(١١٠) فاهتزت ثقة أبى حاتم الملزوزى فى قواته وتجنب قتال يزيد بن حاتم فى أرض مكشوفة وإنما ارتد إلى جبل نفوسه" فطلب أوعر المنازل وأمنعها فعسكر فيها وخندق على عسكره فأتاه يزيد بن حاتم من جهة الخندق وقاتله حتى قتل أبو حاتم وأهل البصائر من أصحابه وانهزم الباقون فطلبهم يزيد بن حاتم فقتلهم قتلاً ذريعاً فى السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٥٥هـ. ثم أقام يزيد بن حاتم فى طرابلس شهراً يتعقب الخوارج فى كل مكان ويبث خيوله فى طلبهم فقتلهم فى كل سهل وجبل(١١١) ثم اتجه إلى القيروان فدخلها فى يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الأولى سنة ١٥٥هـ(١١٢) وأرسل رأس أبى حاتم الملزوزى إلى الخليفة أبى جعفر المنصور(١١٣) .

---

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ص ص ٣٢ - ٣٣ والنويرى : المصدر السباق جـ٢٤ ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٠٩) ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ص ١١٣ وسعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(١١٠) أبو زكريا : المصدر السابق ص ومحمود إسماعيل : المرجع السابق ص ٦٩ .

(١١١) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ص ٣٣ والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(١١٢) السلاوى : المصدر السابق جـ١ ص ١٣٢ .

(١١٣) الأزدى : المصدر السابق ص ٩١ .

كان يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أخر كبار المهالبة فى وقته وكان له من الشجاعة والجود وبعد الصيت ما يفوق هزار مرد، كان يشبه جده المهلب فى حربه وفى كرمه، وكان مقرباً من نفس الخليفة أبى جعفر المنصور(١١٤) فاستعمله على كثير من الولايات فى أرمينية والسند وأذربيجان ومصر(١١٥) مما اكسبه خبرة كبيرة بالحكم والإدارة والحرب والسياسة ولذلك نهج فى إفريقية نهجاً حسناً فأصلح أحوالها(١١٦) .

امتدت إمارة يزيد بن حاتم المهلبى على إفريقية لأكثر من خمسة عشر عاماً وهى مدة طويلة لم يتسن مثلها لغيره من ولاة إفريقية، لذلك أرسى دعائم حكم أسرة المهالبة فى إفريقية الذى كان ارهاصة بنشوء الامارة المستقلة فيها، وقد أمكنته خصاله الشخصية وكفاءته الإدارية وعلاقته الطيبة بالخلافة العباسية من تحقيق انجازات عديدة فى ولاية إفريقية يأتى فى مقدمتها إبعاده خطر الخوارج عن إفريقية نهائياً، فبعد أن تعقبهم فى طرابلس - كما ذكرنا - أرسل كلاً من المخارق بن غفار والعلاء بن سعيد المهلبى لقتال عبد الرحمن ابن حبيب بن عبد الرحمن الذى كان من أصحاب أبىحاتم وهرب بعد مقتله إلى كتامة فحاصره المخارق والعلاء فى قلعة جيجل لمدى ثمانية أشهر حتى سقطت القلعة فى أيديهما لكن عبد الرحمن بن حبيب تمكن من الهرب إلى

---

(١١٤) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٨ .
وابن الآبار : الحلة السيراء جـ١ ص ٧٣ .

(١١٥) الأزدى: المصدر السابق ص٢١٧ وابن الآبار: المصدر السابق جـ١ ص٧٣.

(١١٦) النويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٨٦ والسلاوى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٣ .

الأندلس(١١٧). وفى سنة ١٥٧هـ / ٧٧٤م ثارت ورفجومه بإقليم الزاب فسير إليهم يزيد بن حاتم جنداً بقيادة يزيد بن مجزأة المهلبى ثم أردفه بالمهلب بن يزيد بن حاتم ثم أمده بالعلاء بن سعيد المهلبى حتى تمكن المهالبة من هزيمة ورفجومة وفتكوا بالثوار(١١٨) وتجمعت فلول الأباضية بقيادة أبى يحى الهوارى فوجه إليهم يزيد بن حاتم جنداً بقيادة عبد الله بن السمط الكندى فهزمهم هزيمة منكرة(١١٩) وبذلك أخمد جميع الثورات التى أندلعت ونشر الأمن والاستقرار فى إفريقية .

لم تقتصر جهود يزيد بن حاتم فى إفريقية على اخماد الثورات ونشر الأمن ولكنه اهتم بالنواحى العمرانية فازدهرت إفريقية على عهده إزدهاراً كبيراً لم تشهده من قبل حتى أن البعض يعد سنى حكمه "الفترة الذهبية لعصر الولاة - بإفريقية(١٢٠) ولقد نالت القيروان من اهتمام يزيد بن حاتم وعنايته أوفر نصيب فجدد بناء جامعها الأعظم(١٢١) ورتب أسواق القيروان فجعل كل صناعة أو حرفة فى موضع خاص بها حتى لو قيل أنه الذى مصرها لم

---

(١١٧) ابن عذارى : المصدر السابق، جـ١ ص ١٥٦ ، والسلاوى : المصدر السابق، جـ١ ص ١٣٢ ، وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٦١ .

(١١٨) السلاوى : المصدر السابق جـ١ ص ١٣٢ .

- ويجعل ابن الأثير (الكامل جـ٥ ص ٣٣) هذه الثورة سنة ١٦٤هـ .

(١١٩) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٧٩ .

وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السباق جـ١ ص ٣٦٣ .

(١٢٠) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ص ١٧٩ .

(١٢١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

وابن وردان : المصدر السابق ص ٤٩ .

يبعد من الحق"(١٢٢) وهناك من يرى أن ترتيب يزيد بن حاتم لسوق القيروان على هذا النحو هو أساس ما عرفت به اسواق المدن الإسلامية من تنظيم بديع يقوم على اختصاص كل ناحية من السوق بسلعة أو حرفة بعينها وهو التنظيم الذى تطور حديثاً إلى المجعات الكبرى Grands Magasins ذات الأقسام المتنوعة(١٢٣). واعتنى يزيد بن حاتم أكبر العناية بالزراعة وشئون الريف(١٢٤) واهتم بالإدارة وحسن تراتيبها(١٢٥) ودقق فى اختيار القضاة فلم يعهد بالقضاء إلا لذوى العلم والورع واليقظة، وعنى بالعلم والفقه ودخل فى أيامه مذهب مالك إلى إفريقية(١٢٦) وهو المذهب الذى تمكن من نفوس أهل إفريقية حتى أصبح أحد ملامح شخصيتها الإسلامية .

وبعد حياة حافلة بالانجازات، توفى يزيد بن حاتم فى رمضان سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م بعد أن عاصر أربعة من خلفاء العباسيين إبان ولايته على إفريقية وهم : المنصور والمهدى والهادى وبعضاً من خلافة الرشيد ، وترك إفريقية تنعم بالهدوء والأمن والاستقرار واستخلف عليها ابنه داود، لكن ولاية

---

(١٢٢) النويرى : المصدر السابق ص ٢٤ ص ٨٦ .
وابن الأبار : المصدر السابق جـ١ ص ٧٣ .
(١٢٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٦٤ .
(١٢٤) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٧٩ .
(١٢٥) سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق جـ١ ص ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .
(١٢٦) نفس المرجع ، جـ١ ص ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .
وحسين مؤنس : المرجع السابق ص ص ١٨٠ - ١٨١ .

داود لم تطل لأكثر من تسعة أشهر ونصف انتقضت عليه فى أواخرها بعض النواحى مثل ثورة أباضية نغزاوة فى باجة بزعامة صالح بن نصير النفزى فوجه إليهم داود بن يزيد عبداً بقيادة أخيه المهلب بن يزيد لكنهم هزموه فوجه إليهم داود جنداً آخرين بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب فتمكن سليمان بن الصمة من هزيمة أباضية نغزاوة وقتل عدداً من كبارهم وأخمد ثورتهم(١٢٧) وعلى الرغم من نجاح داود بن يزيد فى اخماد ثورة الأباضية فى باجة فقد جاء إلى إفريقية عمه روح بن حاتم والياً عليها من قبل هارون الرشيد الذى كان فيما يبدو لا يرغب فى أن يكون للمهالبة فى إفريقية ملكا يورث فى الأصلاب ابناً عن أب حتى لا يستقل المهالبة بإفريقية، وإذا كانت الضرورة تقتضى وجود مهلبى قوى على إفريقية فقد رأى الرشيد أن يختاره بنفسه ولا يتركها لمن استخلفه أبوه مثلما استخلف يزيد بن حاتم ابنه داود وذلك حتى لا يترنح مبدأ وراثة الأصلاب فى ولاية إفريقية .

كان روح بن حاتم أكبر سناً من أخيه يزيد ولا يقل عنه خبرة ولا دراية فقد تولى مثله ولايات كثيرة فى المشرق، إذ تولى حجابة المنصور ثم ولاه المنصور على البصرة ثم ولاه المهدى على الكوفة، كما تولى على السند وطبرستان وفلسطين وغيرها(١٢٨) ولذلك كان روح بن حاتم أشهر بالمشرق الإسلامى من أخيه يزيد بينما كان يزيد أشهر من أخيه بالمغرب لطول ولايته

---

(١٢٧) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٨٢ وابن خلدون : العبر جـ٦ ص ١٣٣ والنويرى: المصدر السابق، جـ٢٤ ص ٨٥ .

(١٢٨) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٨٤ وابن وردان: المصدر السابق ص ٥٠ .

بها وكثرة انتصاراته(١٢٩) .

وصل روح بن حاتم إلى إفريقية وتسلمها من ابن أخيه داود بن يزيد بن حاتم الذى خرج إلى المشرق فأكرمه الرشيد وولاه على مصر فيما بعد سنة ١٧٤هـ ثم ولاه على السند ووجد روح بن حاتم إفريقية هادئة آمنة قد مهدها له أخوه يزيد بن حاتم(١٣٠) وابن أخيه داود بن يزيد الذى كان قد أخمد الثورة المحدودة التى اندلعت أواخر ولايته، وتقوى مركز روح بن حاتم فى إفريقية بقدوم ابنه قبيصة فى ألف وخمسمائة فارس فامتلأ الخوارج منه رهبة ومال أباضية تيهرت إلى موادعة روح بن حاتم(١٣١) فاستقرت البلاد وهدأت أحوالها وأمنت سبلها مدة ولاية روح بن حاتم التى لم تزد عن ثلاث سنوات وربع السنة، وبلغت من الأمن والسكينة أن روح بن حاتم كان يطول جلوسه لا يفعل شيأ وربما غلبه النعاس ليس فقط من الضعف والشافة كما يظن ابن عذارى(١٣٢) وإنما أيضاً لإسترخائه بعد أن ملأ الأمن والسكينة ربوع إفريقية. وهناك من رأى أن الأمن والاستقرار الذى ساد ولاية روح بن حاتم

---

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ص ٨٥ .

(١٣٠) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(١٣١) اختلف فيمن وادع روح بن حاتم من الرستميين فقيل عبد الرحمن بن رستم (ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص ١٣٣ وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ٣٧٤ وقيل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (النويرى : نهارية الأرب جـ٢٤ ص ٨٩ والسلاوى : الاستقصا جـ١ ص ١٣٤) ويصعب ترجيح أحد القولين خاصة وأن وفاة عبد الرحمن بن رستم وولاية ابنه عبد الوهاب لم تكن إلا بعد دخول روح بن حاتم إلى إفريقية.

(١٣٢) البيان المغرب ، جـ١ ص ٨٤ .

على إفريقية يرجع فى معظمه إلى سيطرته على منطقة الزاب وشحنها بالخيل والرجال فضلاً عن حسن اختياره لمعاونيه الذين استعملهم على مختلف النواحى(١٣٣) وإذا سلمنا بحسن اختياره لمعاونيه الذين كان أكثرهم من المهالبة مثل العلاء بن سعيد بن مروان المهلبى عامل طرابلس واسحاق بن يزيد بن حاتم عامل تونس والمهلب بن يزيد بن حاتم عامل طبنة ومن بعده الفضل بن روح بن حاتم فضلاً عن قبيصة بن روح عامل برقة التى ضمت إلى ولاية مصر بعد وفاة روح بن حاتم سنة ١٧٤هـ/ ٧٩١م إلا أننا لا نستطيع التسليم بأن السيطرة على الزاب كان مبعث الأمن فى إفريقية ولا يزال ماثلاً فى الأذهان كيف أن خروج عمر بن حفص هزارمرد إلى الزاب أثار من الاضطرابات فى إفريقية ما لم ينته بموته بل امتد حتى قدوم يزيد بن حاتم إلى إفريقية .

سار روح بن حاتم على نهج أخيه يزيد فى اختيار القضاة من أهل الصلاح والورع والفقه فعهد بالقضاء إلى العلاء بن عقبة ثم إلى عبد الله بن عمر بن غانم الرعينى أحد كبار فقهاء إفريقية وصلحاها، وبلغ تحسن أحوال إفريقية على عهد روح بن حاتم أن بعضهم لم يجدوا ما يأخذونه عليه إلا كبر السن فكتب صاحب البريد والقائد أبو العنبر إلى الخليفة الرشيد يخوفونه من شيخوخة روح بن حاتم وكبر سنه وأنهم يتوقعون وفاته بين لحظة وأخرى وفى هذا خطورته على أحوال إفريقية ورشحوا للولاية بعده نصر بن حبيب ابن حبيب المهلبى لحسن سيرته ومحبة الناس له. ولما كان الرشيد حريصاً على عدم توريث ولاية إفريقية فى الأصلاب فقد وافق على تولية نصر بن حبيب ليقطع الطريق على استخلاف روح بن حاتم أحد أبنائه على ولاية

---

(١٣٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ١ ص ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

إفريقية من بعده لكنه كتب بولاية نصر بن حبيب سراً كيلا تضطرب الأحوال فى إفريقية(١٣٤)، فلما توفى روح بن حاتم فى رمضان سنة ١٧٤هـ بويع بعده لأول وهلة أبنه قبيصة بن روح وجلس فى المسجد الجامع يتلقى البيعة، لكن صاحب البريد والقائد أبو العنبر ركبا إلى نصر بن حبيب وأطلعاه على عهد الرشيد إليه بالولاية وسلما عليه بالإمارة واصطحباه إلى المسجد الجامع فأقاما قبيصة بن روح من مجلسه واقعدا نصر بن حبيب مكانه وأخبرا الناس بالأمر وقرئ كتاب الرشيد بولاية نصر بن حبيب فسمع الناس وأطاعوا وبذلك صارت ولاية إفريقية إلى نصر بن حبيب المهلبى وامتدت ولايته إلى سنتين وربع السنة حسنت فيها سيرته وعدل فى أحكامه(١٣٥) .

يمكن القول إن الطريقة التى اعتلى بها نصر بن حبيب على ولاية إفريقية كانت سبباً فى اضعاف مركز المهالبة فى إفريقية، فقد استاء الفضل بن روح الذى كان عاملاً على الزاب حين وفاة أبيه من الطريقة التى عزل بها أخوه قبيصة وتولية نصر بن حبيب بدلاً منه، لذلك غادر الفضل بن روح إفريقية إلى المشرق ولزم باب الرشيد وألح فى الطلب حتى ولاه الرشيد على إفريقية بدلاً من نصر بن حبيب المهلبى، وإذا كنا لا نعرف المبررات ساقها الفضل بن روح إلى الرشيد ليوليه بدلاً من نصر بن حبيب فإننا نعرف أن التنافس الذى دب فى صفوف المهالبة قد أضعف مركزهم فى إفريقية ، ويبدو

---

(١٣٤) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٨٥ والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٨٩ .

(١٣٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ٨٠ والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٩٠ .

أن الرشيد كان يهدف إلى شئ من ذلك كيلا يقوى المهالبة على الاستقلال بإفريقية كما سبق أن أشرنا .

كتب الرشيد إلى إفريقية بعزل نصر بن حبيب عند ولايتها وأن يقوم بأمرها المهلب بن يزيد بن حاتم إلى أن يصل إليها الفضل بن روح، ووصل الفضل فى المحرم سنة ١٧٧هـ/٧٩٣، فوجد فى استقباله حفاوة بالغة وزينات منصوبة على طول الطريق(١٣٦) ويبدو أن القرويين استبشروا خيرا بحسن علاقته مع الخلافة لكنه سرعان ما أظهر عدم استحقاقه للحفاوة التى قوبل بها إذ تنكب عن نهج نصر بن حبيب وخالف سياسته التى لم يكن عليها غبار وعزل عماله واستبدلهم برجاله وكان ممن ولاهم ابن أخيه المغيرة بن بشر ابن روح الذى استعمله على تونس وكان المغيرة غراً لا خبرة له ولا تجربة ولا يرقى لمستوى الولاية على تونس التى كانت تضاهى القيروان ويعرف الخلفاء أنفسهم مكانتها ويقرنوها بالقيروان(١٣٧) لكن المغيرة أستخف بجند تونس وسار فى أهلها سيرة سيئة أنكروها فكتبوا إلى الفضل بن روح عن سوء سيرة ابن أخيه فتثاقل عن جوابهم وانضاف ذلك إلى أمور كانوا قد كرهوها من الفضل منها موفقه منهم بسبب ميلهم إلى سلفه نصر بن حبيب(١٤٠) .

---

(١٣٦) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق جـ١ ص ٧٣٨ .

(١٣٧) ابن الآبار : الحلة السيراء ، جـ١ ص ٧٧ .

(١٣٨) نفس المصدر، نفس الصفحة والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٩٠ .

(١٣٩) فسر الدكتور مؤنس (الحلة السراء، جـ١ ص ٧٧ هامش ٢) الأسلاف بأنها كانت معاونة مالية يرسلها الولاة إلى الظاهرين من أهل النواحى ورؤساء جماعاتهم ليظلوا على نصرة الولاة .

(١٤٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٥ ص ٩٥ .

أجمع جند تونس على مخالفة الفضل بن روح بعد تقاعسه عن إجابتهم وعدم عزله المغيرة عنهم وكان محرضهم الأول رجل يدعى محمد بن الفارسى أحد قواد الجند الخراسانية فى إفريقية، الذى ربما كان يهدف إلى اضعاف نفوذ الجند العربى فى إفريقية واسقاط المهالبة لذلك حرص على اشعال الفتنة وخطط لها فأشار على جند تونس بضرورة أن يقدموا على أنفسهم قائداً لأن "كل جماعة لا رئيس لها فهى إلى الهلاك أقرب" فاتفقوا على تقديم عبد الله بن الجارود للقيادة عليهم(١٤١). وأخرجوا المغيرة بن بشر المهلبى من تونس سنة ١٧٨هـ، وكتب ابن الجارود إلى الفضل بن روح مبرراً ما فعلوه بأنهم لم يخرجوا المغيرة اخراج خلاف وإنما لأسباب فيها فساد الدولة وطلب ابن الجارود من الفضل بن روح أن يولى عليهم من يرضونه وإلا نظروا لأنفسهم وأن يرسل إليهم الأسلاف كما كانت الولاة تفعل قبله معهم(١٤٢). لكن الفضل بن روح لم يستجب لطلباتهم بل أرسل إليهم عاملاً هو عبد الله بن يزيد المهلبى وكتب إلى متمردى تونس فى تحد "قد وليت عليكم عاملاً فإن دفعتموه فهو أية النكث منكم "(١٤٣) ولما وصل عبد الله بن يزيد إلى ظاهر تونس أخرج ابن الجارود جماعة من اتباعه ليلقوا العامل الجديد ويستطلعوا أحواله ويختبروا نواياه ونهتاهم عن حربه ، لكن

---

(١٤١) اختلف فى اسمه ، فقيل عبد الله بن الجارود يعرف بعبدوية الأبنارى (ابن الأثير : الكامل، جـ٥ ص ٩٥) وذكر ابن الأبار عبد الله بن الجارود العبدى (الحلة السيراء، جـ١ ص ٩١) لكن ابن عذارى انفرد بتسميته عبد الله بن عبد ربه بن الجارود (البيان المغرب، جـ١ ص ٨٩) ولعل عبد ربه تصحيف لعبدوية .

(١٤٢) النويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٩١ وابن الأبار : المصدر السابق جـ١ ص ٧٧ .

(١٤٣) النويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ٩١ .

أصحاب ابن الجارود تسرعوا - ربما بتحريض من محمد بن الفارسى ، فقتلوا عبد الله بن يزيد المهلبى وأسروا من كان معه فأسقط فى يد ابن الجارود ولم يعد أمامه سبيل إلى التراجع "واضطر إلى القيام والجد فى إزالة الفضل"(١٤٤) .

سعى محمد بن الفارسى مدبر الفتنة ومخططها إلى تحريض القواد فى مختلف نواحى إفريقية وعمال مدنها ضد الفضل بن روح وأخذ يمنى كل قائد منهم سراً بالإمارة على إفريقية إذا نجحوا فى إزالة الفضل عنها فأفسد بذلك جنداً كثيراً على الفضل وجمع منهم حشداً كبيراً لمحاربته(١٤٥). وعرف الفضل بالحشود التى اجتمعت تحت قيادة ابن الجارود فكتب إلى عماله على مختلف النواحى يستقدمهم إليه فيما خلا عاملى الزاب وطرابلس لما لوضعهما من أهمية، وخطورة ترك أى منهما بلا حامية. وبينما كانت حشود ابن الجارود تتزايد بفضل تدبير محمد بن الفارسى كانت أوضاع الفضل بن روح إلى تدهور إذ فشل فى إغراء الجند بالمال ليخلصوا له، بل إن كثيراً منهم كان يأخذ منه الأعطيات ثم ينضم إلى معسكر ابن الجاورد، وتخلى الجند الخراسانية عن الفضل ورفضوا نصرته وظهر الأمر وكأن صراعاً عصبياً أو طائفياً قد نشب فى إفريقية بين الجند الخراسانية وعرب الشام(١٤٦) .

---

(١٤٤) يسمى ابن عذارى هذا العامل عبد الله بن محمد (البيان المغرب ، جـ١ ص٨٩) .

وقد ذكر ابن الأبار (الحلة السيراء جـ١ ص ص ٨١ - ٨٢) أن عبد الله بن يزيد أخرجه الفضل لقتال ابن الجارود فتبادلا النصر والهزيمة ثم عاد عبد الله بن يزيد مفلولاً إلى القيروان فكان مع الفضل وخرج عن إفريقية مع من خرج منها من المهالبة .

(١٤٥) ابن الأثير : الكامل جـ٥ ص ٩٥ .

(١٤٦) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص ص ٢٨١ - ٣٨٢.

أرسل الفضل بن روح قواتاً كبيرة إلى تونس لقتال ابـن الجـارود لكنهـم عادوا إلى القيروان منهزمين وأتبعهم ابـن الجـارود وأصحابـه إلـى القيروان فجمع الفضل بن روح أبنـاء عمومتـه المهالبـة ليشـاورهم فـى الأمـر الـذى لا يخصه وحده - على حد قوله - وإنما هم شركاء فيه، فأشـار عليـه سـعيد بـن يزيد بن حاتم أن يسد أبواب المدينة لكها إلا باباً واحداً وإن يجهز المدينـة بمـا يلزم لحصار سنة لكن الفضل لم يأخذ برأيه(١٤٧) وكثرت الأزاء واختلفت ولم يجد الفضل بن روح من خاصته تأييداً قوياً "واضطرب الأمر عليه ولم يصـح له أمر"، بينما كان ابن الجارود قد تقدم حتى وصل القيروان وحاصرهـا يومـاً أو بعض يـوم ففتـح بعـض القـواد أبـواب المدينـة ليدخلهـا ابـن الجـارود دون مقاومة تذكر فى جمادى الآخر سنة ١٧٨هـ(١٤٨) .

لـم يـرد عبـد اللـه بـن الجـارود سـفك مزيـد مـن الدمـاء فـأمن الفضـل وأصحابه وسمح للمهالبة بالخروج عن إفريقية إلى المشرق وأرسل معهم من حرسهم إلى قابس فخرج الفضل بن روح وجماعة من المهالبة منهم عبد اللـه ابن يزيد بن حاتم وأخوه المهلب بن يزيـد ونصـر بـن حبيـب وغيرهم ، لكـن أصحاب ابن الجارود خوفوه من أن يصل الفضل بن روح إلى طرابلس فيعيد تجميع قواته ويعود بهم إلى القيروان ليقاتل ابن الجاورد ثانيـة وحرضوه على قتله فأخرج ابن الجارود صـاحب شرطته فلحق بالفضـل قبيل قابس فاقتاده إلى القيروان فحبس ثم قتل فى شعبان سنة ١٧٨هـ بعد ولاية لم تدم أكثر من سنة واحدة وخمسة أشهر(١٤٩) .

---

(١٤٧) ابن الأبار : المصدر السابق جـ١ ص ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٤٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٨٧ .

(١٤٩) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ص ٨٧ - ٨٨، وابن الأثير الكامل جـ٥ ص ٩٥، وابن الأبار: المصدر السابق جـ١ ص ص ٧٨ - ٧٩ .

وبعد مقتل الفضل بن روح أمر عبد الله بن الجارود المهالبة بالخروج نهائياً عن إفريقية إلى الشرق فانقرضت دولة المهالبة من المغرب على حد تعبير السلاوى(١٥٠) .

ولكن قتل الفضل بن روح وإخراج المهالبة عن إفريقية لم يمر دون عواقب بل أعقبته بعض القلاقل التى نجمت عن غضب اتباع المهالبة على يد ابن الجارود وجنده فثار قائد يدعى شمدون وانضم إليه بناحية الأربس قائد آخر يدعى فلاح بن عبد الرحمن الكلاعى ثم انضم إليهما عامل ميله أبو عبد الله مالك بن المنذر الذى دفعه الجند العربى إلى الثأر للفضل والمهالبة وقدم أنصار المهالبة مالك بن المنذر لقيادتهم لكنه انهزم وقتل وتراجع أصحابه إلى إلى الأربس(١٥١) فكتب شمدون إلى العلاء بن سعيد المهلبى وكان لا يزال على الزاب فأقبل العلاء إلى الأربس واجتمع مع جند الشام ثم خرج بهم لقتال ابن الجارود، لكن ابن الجارود كان قد خرج حينذاك للقاء يحى بن موسى الذى جاء ليتسلم القيروان نيابة عن هرثمة بن أعين والى إفريقية الجديد من قبل الرشيد فلم يجد العلاء بن سعيد ما يفعله إلا أن يسير إلى القيروان فقتل بها جماعة من أصحاب ابن الجارود الذى سلم إفريقية إلى هرثمة بن أعين وخرج إلى الشرق سنة ١٧٩هـ(١٥٢).

---

(١٥٠) الاستقصا، جـ١ ص ١٣٥ .

(١٥١) النويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ص ٩٢ – ٩٣ .
وابن الأبار : المصدر السابق ، جـ١ ص ص ٨٦ – ٨٧ .

(١٥٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص ص ٨٨ وابن الأثير : الكامل جـ٥ ص ٩٥ . والنويرى : المصدر السابق جـ٢٤ ص ص ٩٣ – ٩٤ .

وهكذا انطوت صفحة المهالبة من بلاد المغرب وكانت نهايتهم فيها قريبة الشبه بنهاية أسلافهم فى المشرق أواخر العصر الأموى لكنهم تركوا صيتاً ذائعاً فى كل من المشرق والمغرب على السواء وحازوا مجداً عريضاً فى العصرين الأموى والعباسى ، واقترن اسمهم بالتصدى للخوارج فى مشرق العالم الإسلامى ومغربه وكانوا رجال الخلافة وأتباعها المخلصين لاينتقص من ذلك خروج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك إذ كان تمرداً عارضاً تسببت فيه الخلافات الشخصية وهيأ المهالبة ليكونوا من رجال الخلافة العباسية ويستأنفوا من جديد سيرتهم فى خدمة الخلافة التى وجدوا عزهم فى موالاتها والتصدى لأعدائها .

مصـادر البحث ومراجعـه

١ - **ابن الآبار** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى .

الحلة السيراء

تحقيق حسين تونس — القاهرة / ١٩٨٥

٢ - **ابن الأثير** : أبو الحسن على بن أبى الكرم

الكامل فى التاريخ — بيروت / ١٩٧٨

٣ - **الأزدى** :

تاريخ الموصل

تحقيق على حبيبه — القاهرة / ١٩٦٧

٤ - **بحشل** : أسلم بن سهل الرزاز الواسطى

تاريخ واسط

تحقيق كوركيس عواد — المدينة المنورة/١٩٨٦

٥ - **البكرى** : أبو عبيدعبد الله بن عبد العزيز

المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب

نشردى سلان — الجزائر / ١٨٥٧

٦ - **البلاذرى** : أحمد بن يحى بن جابر

فتوح البلدن

تحقيق صلاح الدين المنجد — القاهرة / ١٩٥٧

٧ - **ابن الجوزى** : أبو الفرج عبد الرحمن بن على

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم

تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا

بيروت / ١٩٩٢

٨ - **ابن حزم** : أبو محمد على بن احمد الأندلسى
جمهرة أنساب العرب
تحقيق عبد السلام هارون القاهرة / ١٩٦٢
٩ - **حسين مؤنس** : .
تاريخ المغرب وحضارته جده / ١٩٩٠
١٠ - **خالد عبد الهادى بلانكنشب** :
العرب فى خراسان
رسالة ماجستير بآداب القاهرة/١٩٨٣
١١ - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت / ١٩٩٢
١٢ - **ابن خلكان** : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة / ١٩٤٨
١٣ - **خليفة بن خياط** :
تاريخ خليفة بن خياط
تحقيق أكرم ضياء العمرى بيروت / ١٩٧٧
١٤ - **ابن دريد** : أبو بكر محمد أبو الحسن الأزدى
الاشـــــــتقاق
تحقيق عبد السلام هارون بيروت / ١٩٩١
١٥ - **الدينورى** : أبو حنيفة أحمد بن داود
الأخبار الطوال

١٦ – **الذهبى** : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان
سير أعلام النبلاء جـ٤
تحقيق مأمون الصاغرجى　　　　بيروت / ١٩٨٢
١٧ – **ابن رسته** : أبو على أحمد بن عمر
الأعلاق النفيسة　　　　ليدن / ١٨٩٣
١٨ – **أبو زكريا** :
كتاب السيرة وأخبار الأئمة
تحقيق عبد الرحمن أيوب　　　　تونس / ١٩٨٥
١٩ – **السالمى** : نور الدين عبد الله بن حميد
تحفة الأعيان
٢٠ – **سعد زغلول عبد الحميد** :
تاريخ المغرب العربى　　　　الأسكندرية /١٩٧٩
٢١ – **السلاوى** :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى　　　　الدار البيضاء/١٩٥٥
٢٢ – **الصنعانى** : محمد بن صالح بن الحسن
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار
تحقيق محمد بن على الأكوع　　　　بيروت / ١٩٨٥
٢٣ – **السيد عبد العزيز سالم** :
تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى　　　　الأسكندرية / ١٩٨٢
٢٤ – **الطبرى** : أبو جعفر محمد بن حرير
تاريخ الرسل والملوك
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم　　　　القاهرة / ١٩٧٩

٢٥ - **ابن عبد ربه الأندلسى** : أحمد بن محمد

العقد الفريد — بيروت / ١٩٧٨

٢٦ - **ابن عذارى المراكشى** :

البيان المغرب فى أخبار الأندلسى والمغرب

تحقيق كولان وليفى بروفنسال — بيروت /١٩٨٠

٢٧ - **فلهوزن** : يوليوس

تاريخ الدولة العربية

ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة — القاهرة / ١٩٥٨

٢٨ - **ابن قتيبة** : أبو محمد عبد الله بن سلم

- الأمامة والسياسة — القاهرة / ١٩٦٩

- **المعارف** : تحقيق ثروت عكاشة — القاهرة /١٩٦٠

٢٩ - **ابن كثير** : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل

البداية والنهاية — القاهرة / ١٩٣٣

٣٠ - **المبرد** : أبو العباس محمد بن زيد النحوى

الكامل فى اللغة والأدب — بيروت / ١٩٨٧

٣١ - **مجهول** :

العيون والحدائق فى أخبار الحقائق

نشردى خوية — ليدن / ١٨٧١

٣٢ - **محمود إسماعيل عبد الرازق** :

الخوارج فى المغرب الإسلامى — بيروت / ١٩٧٦

٣٣ - **النويرى** : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

نهاية الأرب

تحقيق محمد رفعت فتح الله (جـ٢٠) — القاهرة / ١٩٧٥

تحقيق حسين لغبار (جـ٢٤) — القاهرة / ١٩٨٣

٣٤ - **اليعقوبى** : أحمد ابى يعقوب بن جعفر

تاريخ اليعقوبى بيروت / ١٩٨٠

٣٥ - **ابن وردان** :

تاريخ مملكة الأغالبة

تحقيق محمد زينهم القاهرة / ١٩٨٨

الصراع الدولى فى الغرب الأوربى

فى منتصف القرن الخامس الميلادى

د. أحمد عبد الكريم سليمان
أستاذ مساعد / تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بالفيوم

مقـــدمة :

تعرضت الامبراطورية الرومانية خلال القرن الخامس الميلادى لغزوات البرابرة بكثافة فاقت فى حدتها غزوات القرن الثالث الميلادى حتى وصف القرن الخامس بأنه القرن العصيب. وكان الغرب بصفة أساسية هو الذى تعرض لموجة التدمير الحادة، حتى إذا ما حلت نهاية القرن الخامس الميلادى كان الغرب الأوربى قد تفتت وتصدع على أيدى الغزاة البرابرة.

والواقع إنه من الصعب تحديد سبب واحد لحركة البرابرة فى القرن الخامس للميلاد، غير أن المحرك الأساسى لتلك الحركة يكمن فى ظهور عنصر آسيوى جديد فى شرق أوربا وهم الهون، الذين انتشروا على امتداد نهر الدانوب الأدنــى وسببوا متاعب جمة للامبراطورية الرومانية الشرقية حتى إذا كان منتصف القرن الخامس الميلادى فأقحموا فى غالة وأجزاء من الغرب وقد بلغت هجمة الهون دروتها تحت قيادة أشهر ملوكهم أتيلا Attila عندما غزا ذلك الملك غالة سنة ٤٥١م ثم إيطاليا سنة ٤٥٢م. وتعتبر غزوات الهون هذه صورة مصغرة لما كان يجرى على مسرح الغرب الأوربى فى القرن الخامس الميلادى، إذ شهد ذلك القرن حركات العديد من قبائل البرابرة

مثل : القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال واللان والبجراس والسويفى. وقد لعب كل من هذه العناصر دورا على قدر حجمه.

وقبل أن نعرض صورة ذلك الصراع الرهيب نلقى الضوء على العناصر التى اشتركت فيه، ومدى قدرتها على التأثير فى الأحداث سياسيا وعسكريا.

الامبراطورية الرومانية الغربية :

انتهت فترة الوصاية على الامبراطور الطفل فالنشيان الثالث سنة ٤٣٧م. وكان فالنشيان الثالث شابا ضعيفا غير جدير بالمنصب الامبراطورى. لقد أفسدته أمه بلاسيدا فنشأ على أنه رجل الملذات والمجون، وليس رجل المهمات الجادة، وقد اهتم فالنشيان بالمنجمين والكهان. ومنذ نهاية الوصاية على فالنشيان حتى وفاته كان القائد أيتيوس Aetius سيد الامبراطورية فى الغرب، وإليه تعزى أمور السياسة والحرب(١).

والقائد أيتيوس Aetius من أسرة رومانية من سليستريا Silstria ولد حوالى سنة ٣٩٠م، ووالده جودنتيوس Gaudentius كان جنديا ناجحا فى الحرس البرايتورى Praetorian Guard وحصل على لقب قائد الفرسان Magister equitum ، وأمه إيطالية من أسرة ثرية وانخرط ايتيوس فى شبابه فى الحرس البرايتورى أيضا، وقضى ثلاث سنوات أسيرا عند الأريك Alaric ملك القوط الغربيين ، ثم قضى فترة أخرى أسيرا لدى الهون خلال المدة من

---

(١) والامبراطور فالنشيان هو ابن بلاسيديا من القائد قسطنطيوس الذى أصبح شريكا للامبراطور هونوريوس سنة ٤٢١م. والامبراطور هونوريوس هو الذى نقل مقر الحكومة الرومانية من روما إلى رافنا . انظر :

Procopius, History of wars, Vol. 11, p. 27; Cambridge Medieval History, Vol. I, pp. 407; J.B. Bury, History of the later Roman Empire from the death of theadosiusI to the death of justinian, Vol. I, pp. 250-251.

سنة ٤١١-٤٢٣م، وارتبط معهم بصداقة متينة مكنته من تحقيق طموحاته وبسط نفوذه والتغلب على أعدائه بفضل قوات الهون التى عملت تحت قيادته. وكما كان ايتيوس جنديا ماهرا كان أيضا ناجحا فى أمور السلام، وهو آخر قائد رومانى شغل عن جدارة رتبة Magister Militum. فى الغرب(1).

وقد عمل ايتيوس فى خدمة المغتصب جون John، وبعد القبض على ذلك المغتصب انضم ايتيوس إلى جانب الحزب الراجح وهو حزب بلاسيديا ونال ثمن ذلك فى ترقيته السريعة. ومع أن بلاسيديا لم تكن علاقتها ودية مع ايتيوس لتأييده جون المغتصب ضد ابنها إلا أن نجاح ايتيوس فى النزاع مع القوط سنة ٤٢٥م جعلها تستخدمه قوة منافسة ضد طموح القائد فيلكس Felix سنة ٤٢٦-٤٢٩م وفى نفس الفترة هزم ايتيوس الفرنجة سنة ٤٢٨م فنال لقب Magister militum فى العام التالى. وخلال الصراع الذى نشب فى الحكومة الرومانية الغربية بين القائد فيلكس والقائد بونيفاس Boniface الذى كان حاكما على أفريقيا كان ايتيوس يكسب المزيد من المعارك والأصدقاء لاسيما فى غالة من طبقة كبار الملاك. وبعد مقتل فيلكس خشيت بلاسيديا من تزايد نفوذ ايتيوس فابعدته ولكنه تمكن من العودة وحقق نجاحا كبيرا وربط مصير روما بالهون بعد أن وعد روا Rua ملك الهون بإعطائه بانونيا مقابل الحصول على مساعدة عسكرية من الهون، وهى المساعدة التى مكنته من قيادة الأحداث السياسية والعسكرية خلال العشرين سنة التالية(٢).

---

(1) Gregory of Tours, The History of franks, p. 119, Camb. Mad., Hist., Vol. I, pp. 406-407; S. Painter, western Europe in the Middle eges, 300-1475, p. 51; F. Lot, The end of ancient world and the beginnings of the middle ages, pp. 206-207; Mayster equitum.

(2) J,R. Moss, *The effects of the Policies of Aetius on the History of western Europe*, in Historia, Band XX11, 1973, pp. 715-716, 719-720; Camb. Med. History, Vol. I, p.406;

القـــوط الغربيـــون :

وكان القوط الغربيون بعد هجومهم على روما سنة ٤١٠ بقيادة الملك الأرك Alaric قد أسروا بلاسيديا وفى سنة ٤١٤م تزوجها الملك أتولف Attulf الذى خلف الارك على أمل قيام حكم قوطى رومانى مشترك ودمج الشعبين فى شعب واحد. وحرص الملك أتولف على السلام مع الحكومة الرومانية حتى بعد أن طردته القوات الرومانية من مدينة بورده والمدن الأخرى فى جنوب غالة سنة ٤١٥م على يد القائد قسطنطيوس. ولكن سرعان ما اغتيل أتولف فى سبتمبر ٤١٥م، وانهارت أحلامه وسياسته وعندما اعتلى واليا Wallia حكم القوط الغربيين وتمكن من عقد معاهدة سلام مع الحكومة الرومانية سنة ٤١٦م بسبب المجاعة التى فرضها على القوط القائد قسطنطيوس. ومن خلال معاهدة الصداقة مع الحكومة الرومانية حارب واليا العناصر البربرية الأخرى فى أسبانيا. وعند وفاته سنة ٤١٨م منحت الحكومة الرومانية القوط الغربيين حق الإقامة فى تولوز والمناطق المحيطة بها فى ولاية اكويتانيا سيكوندا Aquitania Secanda بين مصب نهرى الجارون واللوار(١).

وتوفى واليا ملك القوط الغربيين سنة ٤١٨م وخلفه ثيودريك الأول Theodoric ٤١٨-٤٥١م، وكان على درجة عالية من الكفاية العسكرية والسياسية واستطاع السيطرة على مختلف فصائل القوط ذات الميول المختلفة سياسيا. وكان ثيودريك يرغب فى مد سيطرته على سواحل البحر المتوسط

---

(1) Thompson, *The visigoths from fritigern to Euric*, in Historia 9. X11, 1963, HeftI, pp. 115-118, Camb. Med. Hist., Vol. I, p.399, 404; Lot., The end of the ancient world and the beginning of the middle ages, pp. 204-205; Boak, A history of Rome to A.D. 565, p. 454, Moss, Op-cit., p. 713; J. Matthews, western Aristocracies and Imperial coutt, A.D. 364-425, p.325;

المتاخمة لممتلكاته، لذلك كانت سياسته معادية للرومان. ولطالما كان الرومان غير مشغولين بالصراع مع قبائل بربرية أخرى فإن ثيودريك ظل ساكنا لايتحرك ولكن عندما كان الرومان مشغولين بمواجهة المغتصب جون John سنة ٤٢٥م أو الوندال فى أوائل الثلاثينات من القرن الخامس أو البرجنديين والبجداس خلال الفترة ٤٣٦ - ٤٣٩م فإن تيودريك حاول الحصول على موضع قدم فى وادى الرون الأدنى وبعد فراغ الحكومة الرومانية من مشاكلها استطاعت أن تعيد ثيودريك إلى حدود مملكته الأصلية. وقد تمكن ثيودريك بصعوبة وبخسائر ضخمة من هزيمة الهون الذين كانوا يعملون تحت قيادة القائد الرومانى ليتوريوس Litorius فى تولوز سنة ٤٣٩م. وقد وجد ثيودريك بعد ذلك أن عليه مواجهة القائد الرومانى القدير ايتيوس Aetius فأضطر عندئذ ثيودريك إلى قبول شروط الهدنة التى فرضها عليه القائد الرومانى، وبمقتضاها أبقى على القوط الغربيين بصفتهم معاهدين Federates، على أن يعترفوا بالسيادة الرومانية عليهم، ويقدمون للحكومة الرومانية الغربية الخدمات العسكرية التى تطلبها، وبرغم تلك المعاهدة فقد ظلت العلاقات بين القوط خلال عهد تيودريك عدائية شأنها فى ذلك شأن البرجنديين والبجداس وشغلت انتباه القائد أيتيوس فى مناطق الحدود(١).

البرجنديـــــون :

وكان البرجنديون من بين الشعوب الجرمانية التى اضطرت إلى عبور الدانوب تحت ضغط امتداد الهون غربا عام ٤٠٥-٤٠٦م، وقد وصف افيانوس البرجنديين بأنهم مرعبون لجيرانهم ، وبلغ عددهم فى تقدير جيروم

---

(1) Thompson, The visigoths..., pp. 117-123, Bury, Op-Cit., Vol. I, p. 242, 250; Clover, *Geiseric and Attila*, in, Historia B.XX11, 1973, pp. 104-106; Camb. Med., Hist., Vol, p.279; J. Mattheus, op-Cit., p. 330.

ثمانين ألفا. واستقر هؤلاء البرجنديون عام ٤١٣م على الشاطىء الأيسر لنهر الراين بصفتهم معاهدين للرومان Feederati وضمت مملكتهم أراضــى المينز والسباير Speyer & Mayence وظل البرجنديون قابعين فـى تلـك البـلاد دون حركة ولكن فى بدايـة الثلاثينـات مـن القـرن الخـامس نتيجـة لزيـادة أعدادهـم طمعوا فـى المزيـد مـن الأراضـى، فـانتهزوا فرصـة ضعـف الامبراطوريـة الرومانيـة الغربيـة وزحفـوا تحـت قيـادة ملكهـم جندهـار Gundahar فـى سـنة ٤٣٥م لغـزو الأراضـى حـول تريـر Trier ومــتز Metz، أى أعـالى بلجيكـا الحالية(١).

الفرنجــــة :

عـاش الفرنجـة السـاليون "البحريـون" سـبعين عامـا تقريبـا فــى الركـن الشـمالى الشـرقى لبلجيكـا السـفلى فـى الإقليـم المعـروف الآن بإسـم ثورنيجيـا Thornigia حيث استقروا كمعاهدين منذ أيام الامبراطور قسـطنطيوس الثـانى وجوليان وقد عـاش الفرنجـة السـاليون فـى تلـك المنـاطق بـالقرب مـن المينـز والشلد Meuse & Scheldt فى سلام داخل الحدود التى منحهـا لهـم الرومـان، وكان يحكمهم أكثر من ملك، ولكن القبيلة الرئيسية التــى تفوقـت علـى الجميـع هى القبيلة الميروفنجية Merovingian. وقد كان الميروفنجيون هم الذيـن قـدر لهم دون غيرهم من العناصر الجرمانية الأخرى أن يصبحوا سادة غالة(٢).

---

(1) Thompson, A history of Attila and the Huns, p. 65; Lot., op-cit., p. 207; وانظر أيضا د.سعيد عاشور، مرجع سابق،ص٩٣. د.اسحاق عبيد، مرجع سابق ص١١٨

(2) Burg, OP-Cit., Vol. I, PP. 242.

وقد عرف الساليون "البحريون" بذلك الاسم بسبب استقرارهم فى القرن الرابع الميلادى بالقرب من مصب نهر الراين فى حين عرف اقرباؤهم الفرنجة البريون بسبب استقرارهم فى أعالى الراين بالقرب من تولون. انظر: د. اسحاق عبيد، مرجع سابق ص١١٨ – ١١٩ وانظـر: E. Peresrs; Europe, The world of the Middle ages pp. 102-103.

وكانت أولى خطوات التوسع على يد كلوديو Chlodio أول سلسلة الملوك الميروفنجيون. وقد استغل ذلك الملك ضعف الامبراطورية الرومانية وغزا ارتواز Artois ولكن ايتيوس الحق به الهزيمة عند فيكوس هيلانا Vicus Helenae وقبل وفاة كلوديو كان قد نجح فى مد نفوذه حتى السوم Somme بعد أن عبر غابة الكاربوناريان Carbomarian وهى الاردين Ardennes الحالية - واستولى على كمبراى cambrai ويبدو أن ذلك الامتداد قد لقى اعترافا من الحكومة الرومانية الغربية لأن الساليين أو الفرنجة البحريين ظلوا معاهدين للامبراطورية بل ومحاربين من أجلها(١).

الونــــــدال :

ربما كان الوندال أول الشعوب الجرمانية الشرقية التى عبرت البحر البلطى وقدر لها أن تجد مأوى فى تلك الأرض البعيدة فى أيبيريا، ففى عام ٤٠٥م نزلت مجموعة من الوندال والالان فى إيطاليا، ولكن الهزيمة حلت بهم على يد القائد ستيلكو Stilicho وفى العام التالى عبرت تلك المجموعات مع مجموعة من السويفى الراين بالقرب من مينز Mains ونهبوا غالة حتى منطقة Pyrenees - البرانس - حيث أوقفهم القائد قسطنطين الذى كان مسؤولا عن الدفاع عن غالة وأسبانيا. وأخيرا عندما كان ذلك القائد مشغولا بالقتل ضد أحد المنافسين له لإنهم وجدوا الفرصة لدخول أسبانيا سنة ٤٠٩م وبعد صراع عنيف مع الرومان أصبح الوندال معاهدين سنة ٤١١م ومنحوا أراض فى أسبانيا للاستقرار فيها. وقد استقر الوندال الأزدنجيان أو الأزدنج Asdingian والسويفى Suevi فى الجزء الشمالى من أسبانيا ومنح الالان Alans الجزء الأوسط، فى حين استقر الوندال السلنجيان أو السلنج Silingian

(1) Burg, OP-Cit., Vol. I, PP. 242-243; Moss, op-Cit., p.713..

فى المناطق الجنوبية. وفى عام ٤١٦م طلب القائد قسطنطيوس من واليا Walia ملك القوط الغربيين مهاجمة الوندال. وقد استطاع واليا هزيمة السلنجيان وأضعف الالان، فانضم هؤلاء إلى الوندال الأزدبخيان. ثم افاق الوندال من هزيمتهم وانتصروا على السويفى واستقروا فى بايتيكا Baetica فى جنوب أسبانيا "الاندلس"(١).

وحاز جندريك Gunderic زعيم الوندال على لقب ملك الوندال والالان، وغزا قرطاجه الجديدة وهسباليس New Carthage & Hispalis وقاد الهجمات على جزر البليار Balearic وربما أيضا موريتانيا تنجيتانا Mauretania Tingitana ثم مات سنة ٤٢٨م فخلفه أخوه جايزريك Gaiseric الذى كان يشاركه فى الحكم. وكانت الأمور مهيئة لنزول الوندال فى أفريقيا، ذلك أن بونيفاس Boniface كونت افريقيا قاد ثورة ضد الحكومة الرومانية ، وفشلت حملات عديدة للقضاء عليه، وأخيرا تمت هزيمته. وفى حالة اليأس التى أصبح فيها بونيفاس طلب مساعدة الوندال على أساس تقسيم أفريقيا بينه وبين الوندال. وتلقى جايزريك الدعوة ووافق على العرض، فنزل ما يقرب من ثمانين ألفا من الوندال والالان فى افريقيا فى مايو سنة ٤٢٩م. وكان جايزريك أكفأ القادة الجرمان دون منازع فلم يتملك المقدرة العسكرية فحسب بل السياسية أيضا وأصبحت له كلمة مسموعة فى الغرب الأوربى فترة طويلة(٢).

وسلك جايزريك فى سياسته سلوكا سيئا تجاه السكان الخاضعين لحكمه فى أفريقيا، فلم ينج أحد من العقاب، ولا الكنائس من النهب والسلب. وأرسلت

---

(1) Boak, OP - Cit,. P. 455.

(2) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 244-246; Camb. Med. Hist., Vol. I, PP. 304-305; Procopius, OP- Cit., Vol, 11, PP.29-31;

وانظر أيضا د. اسحاق عبيد، مرجع سابق، ص١٢٩.

الحكومة الرومانية الغربية القائد بونيفاس لانقاذ أفريقيا وعقد معاهدة مع جايزريك الذى قرر غزو ونهب الأقاليم الشرقية الغنية فى افريقيا، فدخل نوميديا Numidia وهزم بونيفاس وحاصره فى هيبو Hippo (حاليا بونا Bona) فى مايو ـ يونية ٤٣٠م لمدة عام. وأرسلت قوات جديدة من إيطاليا والقسطنطينية تحت قيادة آسبار Aspar أحد القادة العاملين فى خدمة الامبراطور الشرقى ثيودوسيوس الثانى، ولكن جايزريك هزم الحلفاء واحتل هيبو > من جديد ، ولم تبق سوى قرطاجة وكرتا Carthage & Cirta فى حين انسحب أسبار وبونيفاس يجران أذيال الخيبة(١).

وحدث صراع بين مختلف القادة فى الحكومة الرومانية الغربية بين سباستيان Spastian وايتيوس Aetius فاضطر الأخير للهرب إلى ألمانيا ومنها إلى بلاط صديقه الهونى روا أو روجيلا ثم عاد ايتيوس مرة أخرى إلى رافنا ليستعيد وضعه القديم وينتصر على سباستيان ويحصل على رتبة بطريق سنة ٤٣٤م Patrician "أى نبيل" وقد استغل الوندال تلك الظروف ثم انشغال ايتيوس بعد ذلك بالحرب فى غالة ضد القوط والبرجنديين ومد الوندال احتلالهم إلى نوميديا من جديد فاضطرت حكومة الامبراطورية الغربية إلى عقد معاهدة مع جايزريك سنة ٤٣٥م أصبح بمقتضاها الوندال معاهدين Foederati على أن يعيد جايزريك الولايات التى احتلها الوندال وهى موريتانيا وجزء من نوميديا، وأن يدفع جزية سنوية للامبراطور الغربى(٢).

وسرعان ما تخلى جايزريك عن معاهدة ٤٣٥م وقرر غزو افريقيا الرومانية بالكامل. وفى أقل من خمس سنوات سقطت قرطاجة فى يد الوندال

---

(1) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 248.

(2) Bury, OP Cit, Vol. I, PP. 248 - 249; Camp. Mad., Hist., Vol. I, p.306..

فـى ١٩ أكتوبـر ٤٣٩م وارتعدت فرائـص إيطاليـا لأن العدو المسيطر علـى قرطاجه سوف يهـدد شـواطئها ومدنهـا. واتخـذت الحكومـة الرومانيـة وسـائل الدفاع ضد الهجمات المحتملة على روماونابلى، واستدعى ايتيوس مـن غالـة. أمـا الامـبراطور الشـرقى ثيودوسـيوس فاسـتعد لإرسـال المسـاعدة لأن القسطنطينية شعرت أيضا بخطر الوندال على شواطئها الشـرقية كما أن أمـن التجارة قد أصبح مهددا، وتم تحصين شـواطـىء المدن البيزنطيـة وموانيها لاسيما القسطنطينية ولأن جايزريك كان على حذر من استعدادات إيطاليـا فقد هاجم صقلية ثم عاد بعد أن علم بقرب وصول اسطول بيزنطى إليها . ولكـن ما أن وصل الأسطول البيزنطى إلى صقلية سنة ٤٤١م حتى عاد ادراجه مـن جديد بسبب غزو هونى للأراضـى البيزنطيـة واضطـر الطرفـان للدخـول فـى مفاوضات انتهت بعقد سلام مع جايزريك سنة ٤٤٢م قسمت فيها ولاية افريقيا بين الوندال والامبراطورية الرومانية حاز فيها الوندال علـى المنـاطق الجيـدة مثـل بيزاسـينا Byzacena واقليم زويجتانـا Zeuqitana فـى حيـن اسـتعادت الامبراطورية الرومانية باقى افريقيا لاسيما موريتانيا(١).

وكـان اسـتقرار الونـدال فـى افريقيـا ضربـة للامبراطوريـة الرومانيـة الغربية أسوأ من سماح قسطنطيوس باستقرار القوط الغربيين فـى اكويتانيـا ، لقد ذهب اغنى اقاليم افريقيا إلى برابرة أسـوأ من القـوط. وقـد رأى ايتيـوس أن أفضل سياسة فى تلك الظروف هى الدخول فى علاقات ودية مع جايزريك حتى لايعطى ذلك الملك الطموح حجه فى الهجـوم على صقلية أو سـردينيا أو إيطاليا نفسها، لذلك اقترح ايتيوس علـى الامـبراطور فالنشـيان الثـالث خطبـة ابنة الامبراطور الكبرى ايدوكيـا Eudocia إلى هونريـك Honoric

(1) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 254 - 255; Camp. Mad., Hist., Vol. I, p.306-307; Boak, OP-Cit., pp. 455-456; S, Painter, OP-Cit., P.50;..

ابن جايزريك ولم يتم ذلك الزواج لأن هونريك كان قد تزوج حديثا من ابنة ثودريك ملك القوط. ومثل ذلك الزواج والتحالف بين القوط والوندال لم يكن موضع ترحيب من ايتيوس، فمن اهتماماته السياسية توسيع شقة الخلاف والعداء بين الشعبين لمصلحة روما فى النهاية. ومهما كان الأمر فقد انتهى ذلك الزواج بكارثة، فقد اتهمها جايزريك بتدبير مؤامرة لقتله، بالسم وعوقبت بجدع أنفها وصلم أذنيها وأرسلت إلى أبيها، فكانت تلك الحادثة سببا فى عداء متصل بين الوندال والقوط وسرعان ما وجد ثودريك حليفا جديدا بزواج ابنة أخرى له من ركيار Rechiar ملك السويفى سنة ٤٤٩م، أما هونزيك فسعى للزواج من أميرة رومانية(١).

واتخذ الوندال قرطاجة عاصمة لهم، وكان الوندال وهم أريوسيون أعداء للكنيسة الكاثوليكية، فاستولى الوندال عليها وسلموها للأساقفة الأريوسيين واتخذ الوندال لهم تقويما خاصا منفصلا عن الامبراطورية الرومانية يبدأ من ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م وهو تاريخ الاستيلاء على قرطاجة. وأنشأ الوندال اسطولا من السفن الصغيرة السريعة التى هاجمت الامبراطورية من البحر كما لم يهاجمها شعب جرمانى آخر. وحتى وفاة الامبراطور فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م فإن الحملات البحرية للوندال بدت كما لو كانت قرصنة. وبالرغم من أن جايزريك كانت له خططه الخاصة بغزو صقلية إلا أنه سرعان ما استولى على أقاليم موريتانيا التى كانت من قبل من نصيب الامبراطورية من معاهدة سنة ٤٤٢م، كما قرر الاستيلاء على سردينيا وكورسيكا وجزر البليار. وخضعت صقلية ذاتها له فترة من الوقت ولقد كان

---

(1) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 255 - 256; Clover OP-Cit., PP. 104-107; Thompson, Ahistory of Attila..., p. 126; Camp. Mad., Hist., Vol. I, pp.307-308.

جايزريك يهدف إلى إنشاء مملكة حرة فى معاملاتها مع الرومان وبعيدة عن التأثير الرومانى فى كل المجالات لاسيما المجال الدينى(١).

الهــــــون :

بدأ الهون زحفهم خلال القرنين الثانى والثالث الميلادى من موطنهم الأصلى فى شمال الصين فى اتجاه الغرب، توصلوا حتى بحر قزوين والبحر الأسود ومنطقة جنوب روسيا، ثم اتجه الهون نحو البلقان على حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية وفى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى اكتسح الهون فى زحفهم القبائل الجرمانية التى وجدوها فى طريقهم مثل القوط والالان. وكان ضغط الهون على القوط سببا فى حدوث معركة (رزنه بين القوط والرومان سنة ٣٧٨م) وهى المعركة التى هزم فيها الرومان فقتل الامبراطور فالنز. وبدأ الهون بعد تلك المعركة فى نهب ولايات البلقان، وباتت المناطق الشرقية لباتونيا تحت رحمتهم وفى سنة ٣٩٥م قام الهون بهجوم كبير على الأراضى الرومانية فى تراقيا وارمينيا وامتد تخريبهم إلى كبادوكيا وتكرر الهجوم سنة ٣٨٩م ولم يكن فى وسع الحكومة الرومانية الشرقية ايقافهم لأن الجيوش الرومانية كانت فى الغرب فى تلك الفترة ولم تصل بعد إلى الشرق واضطرت الحكومة الرومانية الشرقية إلى استدعاء فرقة من القوط لمقاومة الهون، ثم تم عقد هدنة بين الجانبين الهونى والرومانى سنة ٣٩٨م(٢).

وشهدت السنوات الأولى من القرن الخامس الميلادى اختراقا مفزعا للهون من مناطقهم الجديدةالتى احتلوها فى شمال البلقان عبر وسط أوربا فى

---

(1) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 257 - 259;

وانظر ايضا د. سعيد عاشور ، مرجع سابق جـ١ ص٨٩-٩٠.

(2) Thompson, A history of Attila, pp. 21-27.

اتجاه المغرب، فضغطوا على العناصر الجرمانية الأخرى، وتكرر مشهد عام ٣٧٦م ففى عام ٤٠٥م قاد راداجيسوس Radagaisus جيشا ضخما واخترق به ايطاليا وفى ديسمبر عام ٤٠٦م قامت موجات من الوندال والسويفى والالان باختراق جبهة الراين والاستقرار فى غالة(١).

واستأنف الهون هجماتهم على ولاية الدانوب الأدنى فى سنة ٤٠٨م بقيادة ملكهم أولديس Uldis الذى استولى على قلعة كاسترا مارتيس Kastra Martis "كولا Cola" الحديثة فى بلغاريا"، غير أن القوات الرومانية تمكنت من صده فى النهاية، كما اتخذت الاحتياطات الكافية لحراسة الدانوب لاسيما فى تجهيزات الأسطول وحماية القسطنطينية وازداد ضغط الهون فى عهد ملكهم روا أو روجيلا بعد أن تمكن من فرض سيطرته على معظم قبائل الهون وضمها فى وحدة سياسية واحدة وقد اضطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى دفع مبلغ ٣٥٠ الف ليبرا ذهبية إلى روا ملك الهون حتى يوقف نشاطه العسكرى(٢).

وكان الهون فى عهد أولديس قد بدأوا اتصالهم بالامبراطورية الغربية عندما استعان بهم ستيلكو Stilicho قائد جيش الامبراطورية الغربية فى عام ٤٠٦م فى المعركة ضد رادا جيسوس الذى غزا إيطاليا سنة ٤٠٥م وفى معركة فاسولاى Fasulae أوائل عام ٤٠٦م اظهر الهون حماسهم ومنعوا الجرمان من الحصول على المؤن. كما قام الفرسان الهون بحركة خاطفة مكنت ستيلكو من الاحاطة بالعدو وتدميره فى مذبحة كبيرة . وباع رجال أولديس فائض اسراهم بسوليدا Solida عن كل رأس وبعد سقوط ستيلكو عام

---

(1) Thompson, OP - Cit., A history of Attila ..., pp. 28.

(2) Thompson, A hhistory of Attila ..., pp. 28-30; Bury, OP-Cit., Vol. I, pp. 212-213, 271-272; Camp. Med. History Vol. I, P.360.

٤٠٨م عقدت الحكومة الغربية معاهدة مع الهون تضمنت حصولها على مساعدات من الهون مقابل اعطاء الهون رهائن من الرومان. وكان من هؤلاء الرهائن شاب صغير من باتوينا هو آيتيوس Aetius القائد الشهير فيما بعد. وعندما هدد الأريك Alaric ملك القوط الغربيين بالزحف على روما سنة ٤٠٩م اسرعت الحكومة الرومانية الغربية باستدعاء عشرة الاف من الهون جاءوا إلى ايطاليا من دالماشيا فقلب هؤلاء ميزان القوى ضد الاريك الذى اضطر على الفور للتخلى عن مشروعه بالزحف على روما، وظل اسم الهون يثير الفزع فى أوربا الغربية حتى عند اشجع العناصر (١).

وفى أثناء فتنة المغتصب جون John سنة ٤٢٥م استدعى ايتيوس حوالى ستين ألفا من الهون، غير أنهم وصلوا إيطاليا بعد موت جون بثلاثة أيام فأعاد ايتيوس الهون إلى بلادهم بعد أن منحوا كمية من الذهب وقد اعتبرت الامبراطورة بلاسيديا والامبراطور فالنشيان الثالث نجاح ايتيوس فى إبعاد الهون عن إيطاليا نجاحا كبيرا وعقدا معه معاهدة منحوه بمقتضاها رتبة كونت Count وهكذا يمكن القول بأن الهون فى تلك الفترة لم يكونوا أعداء فقط للرومان بل حلفاء أيضا عند الحاجة إذا تطلب الموقف ذلك. كما لم تكن خدمات الهون تقدم للحكومات فقط بل عملوا مرتزفة أيضا عند بعض الأفراد مثل القائد روفينوس Rofinus الذى كان منافساً للقائد ستيلكو، وقد شكل روفينوس جيشا خاصاً له من الهون(٢).

اضطر ايتيوس أيضا فى سنة ٤٣٢م للاستعانة بالهون الذين كان يقودهم روا أو روجيلا فى اثناء الصراع الذى دار بين ايتيوس من جهة

---

(1) Thompson, A history of Attila ..., pp. 32-34.

(2) Thompson, A history of Attila ..., pp. 35-36; Bury, OP-Cit., Vol. I, P.272 .

وبونيفاس كونت افريقيا من جهة أخرى ثم مع سباستيان Sebastian خليفة يونيفاس وزوج ابنته واظهر الهون في هذه المرة ايضا اخلاصا لايتيوس، ولكن ذلك الاخلاص لم يكن دون مقابل فقد تنازل ايتيوس وفقا لاتفاقية عقدت سنة ٤٣٣م بينه وبين الهون عن جزء من ولاية بانونيا لهم. ومهما كان الأمر من هذه الاتفاقية فالخلاصة أن ايتيوس دعم مركزه في إيطاليا في حين فرسباستيان إلى القسطنطينية وظلت الامبراطورية الغربية آمنة لمدة خمس عشرة سنة من ازعاج الهون(١).

واستخدم ايتيوس الهون أيضا في كسر حدة الشعوب الجرمانية المناوئة في الغرب الأوربي مثل البرجنديين والبجداس، فالبرجنديين الذين غزوا أعالي بلجيكا عام ٤٣٥م لم يقدروا قوة خصومهم التقدير المناسب، فجاء ذلك الغزو كارثة عليهم، إذ سرعان ما أرسل ايتيوس جيشا من الهون استطاع هزيمة البرجنديين وذبح حوالي عشرين ألفا منهم سنة ٤٣٦م، ٤٣٧م، وكان الملك جندهار Gundahar ملك البرجنديين من بين القتلى، وبذلك انتهت مملكة البرجنديين من القتلى، وبذلك انتهت مملكة البرجنديين الأولى في ورمز Worms في غالة. وبعد سنوات قليلة منحت الحكومة الرومانية بقايا البرجنديين حق الاقامة في منطقة سافوى Savoy جنوب بحيرة جينيفا Geneva عام ٤٤٣م(٢).

وحدثت تطورات داخلية في دولة الهون، فقد مات روا أو روجيلا سنة ٤٣٤م وخلفه ابنا أخيه منديوش Mendeuch وهما بليدا Bleda وآتيلا Attila حاكمين مشتركين وإن ظل اتيلا يقود الأحداث للعشرين سنة التالية. وتمكن

---

(1) Thompson, A history of Attila ..., p. 64; Bury, OP-Cit., Vol. I, P.272

(2) Bury, OP-Cit., Vol. I, p.249; Thompson, A hhistory of Attila ..., p.65; Moss., OP-Cit., p.713, 721; Hoyt & Chodorow, OP-Cit., PP. 66-67; Camp. Med. Hist., Vol. I, PP.361-362.

اتيلا من فرض شروطه على الامبراطورية الشرقية فى اتفاقية مارجوس سنة ٤٣٥م فأصبح بذلك لديه الوقت الكافى لتوسيع حدود مملكته(١). وخلال السنوات من سنة ٤٣٥م إلى سنة ٤٤٠م ساد سلام قلق على الجبهة الشمالية للامبراطورية الشرقية. أما فى الامبراطورية الغربية فإن اتيلا استمر فى تطبيق سياسة عمه روا من قبل فالتوات التى سبق أن أرسلها روا إلى أيتيوس استمرت تخدم أغراض القائد الرومانى فى غالة حتى دمرها القوط الغربيون على أبواب تولون ٤٣٩م ولم تحل قوات هونية أخرى محلها لأن ظروفا جديدة نشأت على ضفاف الدانوب وضعت الامبراطورية الشرقية فى المركز الأول من اهتمام اتيلا(٢).

وبعد أن وجه اتيلا العديد من الضربات إلى الامبراطورية الشرقية وصلت إلى قمتها فى هزيمة القوات الرومانية الشرقية فى معركة خيرسون Chersonsus وأجبرها على عقد سلسلة من المعاهدات المذلة للامبراطور الشرقى ثيودوسيوس الثانىعرفت باسم معاهدات اناتوليوس Anatolius الأولى سنة ٤٤٣م والثانية ٤٤٨م والثالثة ٤٥٠م، بعد تلك الأحداث شعر اتيلا بأنه أقوى رجل فى أوربا(٣). لقد امتد نفوذ أتيلا واصبح يشمل الأراضى المعروفة

---

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP.2-2; Thompson, A hhistory of Attila, pp. 72-73; 74 - 75.

(٢) وقوات الهون التى دمرت سنة ٤٣٩م على يد القوط الغربيين كان يقودها ليتوريوس نائب ايتيوس فى غالة . انظر :

Thompson, A hhistory ... pp. 76- 77; OP-Cit., Vol. I, 76 - 77.

(3) Thompson, A hhistory of Attila... pp. 78- 79; 79-81, 81-86- 86-93, 98-99, PP. 106-107, 123-124; Bury, OP-Cit., Vol. I, pp. 273-274, 275-276; Camb. Med. Hist., Vol. I, P. 363; Ostrogorsky, History of the Byzantine state, p.57.

وازاء التدخلات المستمرة لاتيلا فى شئون الامبراطورية الشرقية وابتزازه لها فى عهد الامبراطور ثيودسيوس الثانى فكر أحد المقربين للامبراطور فى تدبير مؤامرة –

حاليا باسم النمسا Austria والمجر Hungaria، ورومانيا Roumania وجنوب روسيا. أما حدوده الشمالية فلا تعرف على وجه التحديد. وقد خضعت تحت حكم اتيلا عدة شعوب ساعدته واشتركت معه فى القتال مثل الجبداس Gepids التى سكنت الأقاليم الجبلية شمال داكيا، والقوط الشرقيون الذين هاجروا فى اتجاه الغرب من منازلهم القديمة على البحر الأسود، والروجيان Rugians بالقرب من الـ Theiss وكان أرداريك Ardaric ملك الجبداس المستشار الأكثر قربا وثقة لدى اتيلا، ويليه فى المرتبة والأمير Walamir أحد ملوك القوط الشرقيين ، فعلى هذه الشعوب اعتمد اتيلا فى عملياته العسكرية(١).

ونتيجة للنجاح الذى حققه اتيلا فى صراعه مع الامبراطورية الشرقية وفى بسط سيطرته على كل قبائل الهون وبعض العناصر الجرمانية الأخرى، نتيجة لذلك النزاع نظر اتيلا إلى نفسه على أنه السيد الأعلى فى أوربا بما فيها الامبراطورية الرومانية سواء الشرقية أو الغربية. لقد دفع له ثيودسيوس الثانى الامبراطور الشرقى مبلغا كبيرا كل سنة، ودفع له أيضا فالنشيان الثالث الامبراطور الغربى.مبالغ من الذهب، فأصبح أتيلا يحلم بعد ذلك بامبراطورية تمتد حتى إلى الجزر البريطانية وإلى المحيط الاطلنطى. ويقول بريسكوس Priscus أحد السفراء الرومان لدى اتيلا: أن أتيلا اعتقد فى نفسه أنه السيد الأعلى على كل العالم بفضل اكتشافه سيف مارس اله الحرب(٢).

ويكتنف الغموض علاقة اتيلا بالغرب الأوربى خلال السنوات التى تلت هزيمة القائد ليتوريوس Litorius وقوات الهون التابعة له فى تولوز عام٤٣٩م

= لقتل أتيلا عن طريق رشوة أحد اتباعه ولكن المؤامرة انكشفت ولم تتم. انظر: المراجع عاليه.

(1) Bury, OP - Cit, Vol. I, PP. 276 - 277; Camp. Mad., Hist., Vol. I, p.361.

(2) Bury, OP - Cit, Vol. I, P 277.

على يد القوط الغربيين. ومن المؤكد أنه بعد مدبحة الهون فى تلك المعركة لم يزود اتيلا حليفه آيتيـوس بـالجيوش. لقد تغيرت مواقـف عنـاصر كثيرة فـى الغرب الأوربى ولكن عداوة ايتيوس والقوط ظلت كما هـى إلـى مـا بعـد عـام ٤٤٩م، لقد تحالف ملكا القوط الغربيين والسويفى بعلاقة مصاهرة، واشـتركت مجموعات من هذين الشعبين فى الاغارة على أسبانيا ونهب بعض بلادها. أما ايتيوس فاسكن مجموعة من الالان بـالقرب مـن أورليـانز Orleans منـذ سنة ٤٤٢م ليكونوا عيونا له على الحدود. كما أعطى ايتيوس الأذن لهـؤلاء بقيـادة ملكهم جـور Goar لمهاجمـة البجـداس Bagaudse وكـان هـؤلاء البجـداس قـد أعلنوا الثورة بقيادة ملكهم تيباتو Tibato، ولكن ثورتهم انتهت بكارثة لهم على يد الهون سنة ٤٣٧م، التابعين للقائد ليتوريوس، ولكننـا نجـد هـؤلاء البجـداس بعد ذلك يتحالفون مع الهون، كما لجـأ أحد قـادة البجـداس وهـو ايدوكسـيوس Eudoxius سنة ٤٤٨م إلى اتيلا(١).

وحدث عام ٤٤٩ ما عكر صفو العلاقات بين ايتيوس واتيـلا ممـا انـذر بأحداث مهمة فى الغرب الأوربى، لقد أرسل ايتيـوس إلـى اتيـلا رجـلا يشـغل وظيفة سكرتير للشئون اللاتينية، ولكن الرجل واسـمه قسـطنطيوس هـو الـذى افسد العلاقات بين الجانبين الهونى والرومانى، فعندمـا كـانت مدينـة سـرميوم Sirmium مهددة فـى حملـة عـام ٤٤١م عقد قسـطنطيوس صفقـة مـع اسـقف المدينة قبل سقوطها الفعلى، وقد اعطاه الاسقف طاقما ذهبيا من ثـروة كنيسته على أساس أنه فى حالة سقوط سرميوم فـى يـد الهـون واعتبـار الأسـقف مـن الأسرى فإن قسطنطيوس يقدم ذلك الطاقم فدية للأسقف، أمـا إذا قتـل الاسـقف فإن قسـطنطيوس يفدى بالطاقم عددا من سكان المدينة. ولم ينفـذ قسطنطيوس

(1) Thompson, A history of Attila ..., pp. 125-127, 129-130; Clover, OP-Cit., P. 113.

ذلك الاتفاق، بل ذهب إلى روما فى أعمال خاصة به ورهن الطاقم عند شخص يسمى سلفانوس Silvanus(١).

وعندما عاد قسطنطيوس إلى أراضى الهون اتهمه اتيلا بالخيانة وتم صلبه. وطالب اتيلا الحكومة الرومانية الغربية بتسليم سلفانوس إليه مقابل احتفاظها بالثروة المسروقة. ورفض ايتيوس والامبراطور فالنشيان الثالث تسليم سلفانوس وأرسلا إلى أتيلا بأن سلفانوس اقترض المال لقسطنطيوس وأنه أخذ الطاقم رهانا دون أن يعلم أنها مسروقة. والحقيقة أن سلفانوس باع ذلك الطاقم لبعض القساوسة الرومان. وأضاف السفراء الرومان لاتيلا بأنه إذا لم يتخل عن مطالبه فإن سلفانوس سيكون مضطرا لإرسال الطاقم الذهبى نقدا لأن الحكومة الرومانية لن تسمل مواطنا رومانيا لم يرتكب أى خطأ(٢).

لقد أصبحت صورة الموقف السياسى فى سنة ٤٥٠م هى على النحو التالى:

لقد أمن اتيلا مؤخرته بعقد معاهدات مع الامبراطورية الشرقية حتى أوائل عام ٤٥٠م وطالما كان الامبراطور الشرقى ثيودرسيوس الثانى على قيد الحياة فإن اتيلا لم يتوقع أى تحركات عسكرية على جبهة الدانوب. وقد لخص بريسكوس موقف الامبراطورية الشرقية فى نهاية عهد ثيودرسيوس الثانى بقوله "أن الحكومة الرومانية الشرقية كانت تطيع كل تعليمات اتيلا وإنها تعتبر ما يأمر به كأوامر السيد"(٣).

أما فى الغرب فقد كان ايتيوس على عدائه مع ثيودريك ملك القوط الغربيين حتى تولون. وكذلك مع البجداس أما موقف اتيلا مع القوط الغربيين

---

(1) Thompson, OP-Cit., A history of Attila..., P.128.
(2) Thompson, A history of Attila..., PP.128-129.
(3) Thompson, A history of Attila..., PP.129-130, 188-189.

فقد كان غامضا فى حين اصبح موقف اتيلا من ايتيوس والحكومة الغربية معقدا، لقد كان أيتيوس صديقا للهون منذ عام ٤٣٤م، ولكن اصرار اتيلا على تسليم سلفانوس غير من طبيعة تلك العلاقات. ثم جاءت استجابة اتيلا للجوء ايدوكسيوس Eudoxius أحد زعماء البجداس لتزيد الأمر تعقيدا وغموضا لأن تأييد ايتلا لخطوات البجداس فى الغرب معناه الدخول فى عداء مكشوف مع ايتيوس والحكومة الرومانية الغربية من جهة، ومع القوط الغربيين من جهة ثانية(١).

وتبرز هنا مشكلة جديرة بالدراسة والتمحيص وهى متى اتخذ اتيلا على وجه التحديد قراره بالهجوم على الغرب، وهل كان ذلك قرارا هونيا خالصا أم جاء استجابة لطلب جايزريك ملك الوندال فى افريقيا بالهجوم على القوط الغربيين بعد حادثة معاقبة ابنه ثيودريك وزوجة هونريك بن جايزريك. طبقا لرأى المؤرخ جوردانس Jordanes أن الوندال وقد أصابهم الخوف من انتقام ثيودريك أيدوا الهون وأن جايزريك أرسل الهدايا إلى اتيلا وأغراه بالهجوم على القوط الغربيين فى تولوز(٢).

ونحن لانعتقد أن هجوم الهون على مملكة القوط الغربيين فى تولوز لم يكن هدفه سوى مجرد خدمة جايزريك أو حتى الامبراطور فالنشيان الثالث فلم يكن من سلوك الهون المخاطرة بمركزهم فى أوربا بأسرها لمجرد ترضية أجنبى ، وهدفهم الحقيقى للزحف على الغرب الأوربى يمكن افتراضه أو

---

(1) Thompson, A history of Attila..., P130.

(2) Clover, OP-Cit., PP. 104-110.

وفى رأى كلوفران جوردانس ، كان منحازا للقوط ضد الوندال ولكن المؤرخ لرفنج شميث لايعتقد فى أن لجايزريك دور فى التأثير على اتيلا لغزو غالة.

انظر : Camb. Med., Vol. I, P. 364

تقريره فى ضوء السياسة الثابتة لاتيلا وهى الابتزاز وتحقيق المكاسب المادية والمعنوية باستغلال الصراع الناشب فى الغرب الأوربى بين المجموعات الغير ثابتة فى غالة مثل الفرنجة والقوط والالان والبرجنديين والبجداس، فهذه المجموعات ليست راسخة فى اخلاصها للمبدأ الرومانى، كما أن علاقاتها مع بعضها البعض تأرجحت بين العداء والصفاء والعلاقات بين الوندال والقوط بصفة خاصة غلب عليها العداء، وكانت معاهدة الزواج بين الجانبين مجرد استثناء فى العلاقات العدائية الدائمة بين الجانبين لاسيما أن حكومة الامبراطورية الغربية عقدت مع الوندال سنة ٤٤٢م معاهدة منحت بمقتضاها قرطاجة وأراضيها الغنية لجايزريك، هذا فضلا عن الشروع فى علاقة المصاهرة التى لم تتم بين هونريك بن جايزريك وايدوكيا ابنة فالنشيان الثالث وقد نظر القوط الغربيون بتخوف شديد من محاولات التحالف بين الامبراطورية الغربية والوندال(١).

ومهما كان الأمر فقد استقر قرار اتيلا بالزحف على الغرب الأوربى سواء كان ذلك بتشجيع جايزريك أو بدونه، وقد أرسل اتيلا رسالة إلى الامبراطور الغربى فالنشيان الثالث يؤكد فيها أنه ليست لديه خلافات مع الرومان الغربيين، وأن حملته القادمة يقصد بها القوط فقط فى تولوز. ومن الواقع أن تلك الرسالة فيها غموض لأنها لم تذكر شيئا عن ايتيوس، ولأن أتيلا يعلم أنه لن يستطيع أن يحقق شيئا فى الغرب ما لم يتمكن من ازاحة ايتيوس من طريقه والاستحواز على مكانته كبطل للغرب. لاسيما أن اتيلا حاز من قبل فى سنة ٤٤٤م على رتبة Magister Militum ، وإن كان المقصود بها أن تكون رتبة شرفيه لاغير . وبالاضافة إلى ذلك فإن اتيلا

(1) Thompson, A history of Attila..., P132; Clover, OP-Cit., PP. 106-107-111-113.

طلب من ثيودريك ملك القوط الغربيين كشف المعاهدة مع الامبراطورية الغربية التى عقدت فى سنة ٤٣٩م ، والتى سيطر بمقتضاها ثيودريك على وادى الرون الأدنى مما أثار مخاوف كل العناصر الجرمانية الموجودة فى المنطقة(١).

ومع مجىء نهاية عام ٤٥٠ كانت شبكة العلاقات فى الغرب الأوربى قد دخلت عليها عوامل جديدة، لقد تراجع فالنشيان الثالث عن وعده بزواج ابنته ايدوكيا من هونريك بن جايزريك، واختار بدلا من ذلك ابنته الصغرى بلاسيديا كأداة لنقل العرش الامبراطورى بترشيحها للزواج من ماجوريان Magorian وهو أحد القادة ولكن ايتيوس اعترض على ذلك الزواج وقرر أن يكون ابنه جودنتيوس Gaudentius هو الزوج المرشح لبلاسيديا بدلا من ماجوريان بل وطرد ايتيوس ذلك القائد من القصر الامبراطورى فى رافنا. وقد أدى ذلك إلى تخلى جايزريك عن علاقة الصداقة مع الامبراطور فالنشيان الثالث والحكومة الغربية وأن تذهب أحلامه أدراج الرياح(٢).

لقد كان طموح اتيلا فى السيطرة على الغرب الأوربى هو المحرك الأول لسياسته وهو أن أوضاع الغرب الأوربى السياسية والعسكرية هى التى شجعت اتيلا على تحقيق طموحاته وأحلامه فإن فرصة ذهبية أخرى جاءته من تلقاء نفسها لتسهل له تحقيق ما يحلم به. ونعنى بتلك الفرصة استنجاد هوتوريا أخت فالنشيان الثالث بأتيلا لانقاذها من زواج بالاكراه. لقد كانت هوتوريا امرأة طموحة ذات نفوذ قوى فى البلاط الامبراطورى مع أخيها فالنشيان الثالث وحازت على لقب أوجستا Augusta امبراطورة ، ولكن منذ

(1) Thompson, A history of Attila..., PP.131-132; Clover, OP-Cit., P. 106; Moss, OP- Cit., P.718; Camb. Med. Hist., Vol. I, P. 362.

(2) Clover, OP-Cit., P108.

مولد بنات أخيها فالنشيان تكدرت هونوريا لأن نجمها أخذ فى الأفول، وأدركت أنه لن يسمح لها بالزواج من رجل طموح يسعى للوصول إلى العرش وكانت هونوريا تجد فى نفسها كفاية وثقة فى النفس أكثر من أخيها فالنشيان الثالث. قد بلغت هونوريا سن الثلاثين عندما بدأت فترة عدم الرضا بالواقع فتآمرت مع حارسها الذى قيل بأنها كانت ترغب فى الزواج منه وهو ايوجينيس Eugenius فى سنة ٤٤٩م ولما كشفت الحكومة الرومانية المؤامرة أعدم ايوجينيس، وتمت خطبة هونوريا إلى السيناتور فلافيوس باسوس هرقل Flavius Bassus Herculance وهو رجل ثرى لايطمع فى العرش ولايشك فى ولائه(١).

وغضبت هونوريا لمصيرها، وعقدت العزم على وضع خطة للهرب من ذلك الموقف والخلاص من الزواج الاجبارى لها. وفى ربيع سنة ٤٥٠م أرسلت هونوريا Honoria أحد خدمها وهو هياكنث Hyacinth إلى اتيلا ترجوه أن يخلصها مقابل مبلغ من المال، وأرسلت خاتمها مع هياكنث لتسليمه إلى اتيلا حتى يعتقد الملك البربرى فى جدية وصحة الرسالة(٢).

لقد كانت هونوريا تهدف منذ البداية إلى أن تجعل من يوجينيس امبراطورا وأن تحكم هى كأمبراطورة، ولكن اتيلا فسر الموقف على إنها دعوة للزواج منه، وقرر ألا تفوته تلك الفرصة الذهبية فأعلن على الفور أن هونوريا أصبحت زوجته وقبل أن يزحف على الغرب الأوربى فوجىء اتيلا بوفاة الامبراطور الشرقى ثيودوسيوس الثانى فى ٢٨ يولية سنة ٤٥٠م

---

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 289-290; Thompson, A history of Attila..., P.132; Camb. Med. Hist., Vol. I, P. 364.

(2) Thompson, A history of Attila..., PP.132-133; Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 289-290; Camb. Med. Hist., Vol. I, p.415; A. H. Jones, The decline of the ancient world, p. 80.

واعتلاء مارفيان خلفه العرش فى ٢٥ اغسطس سنة ٤٥٠م وسمع اتيلا أن مارفيان قام باجراء تغييرات جوهرية فى الحكومة الشرقية، من ذلك اعدام كريسافيوس Chrysaphius الوزير الذى كان مسؤولا عن خضوع الامبراطورية الشرقية لاتيلا ودفع الجزية له، وكذلك عودة القائد أسبار Aspar إلى مركز الصدارة من جديد، وكان أسبار قد نحى عن منصبه بعد فشله فى مواجهة الهون سنة ٤٤٢ - ٤٤٣م. ولم يتردد مارفيان فى الاعلان أن وقت ايقاف الجزية لاتيلا قد حان، وأن مزيدا من الذهب لن يرسل من القسطنطينية إلى الهون(١).

وفى مواجهة ذلك الموقف المتغير أرسل اتيلا سفارتين إحداهما إلى القسطنطينية والأخرى إلى رافنا. وطلب اتيلا فى سفارته الأولى استئناف سداد الجزية التى سبق أن وافق عليها ثيودرسيوس الثانى، لكن الحكومة الرومانية الشرقية اتخذت موقفا أكثر قوة وتشددا فأعلنت إنها لن ترسل الجزية، وإذا ما ظل الهون فى سلام فإن مارفيان سوف يرسل الهدايا فقط إذا هدد اتيلا بالحرب فإن مارفيان سيقابله بقوة متكافئة. أما السفارة الثانية إلى رافنا فقد طلب اتيلا من الحكومة الغربية عدم الحاق أى ضرر بهونوريا باعتبارها خطيبة له، وأنه سوف ينتقم لها إذا ما عانت أى مكروه، وأنه يود أن يتسلم نصف الامبراطورية الغربية ميراثا له. وعندما علم اتيلا بما حدث لهونوريا استشاط غضبا وأرسل رسالة يعترض فيها على ما حدث لها وأعلن أنه قادم لأخذ حقها بالقوة من اقتسام الامبراطورية، وأن غالة ستصبح من نصيبه . وقد أرسل وزراء فالنشيان إلى أتيلا ردا يفيد بأن هونوريا لايمكن

---

(1) Thompson, A history of Attila..., P.133; Camb. Med. Hist., Vol. I, P.399; Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 286-237, 248; Clover, OP-Cit., PP. 108-111; OP-Cit., P. 88.

تسليمها إليه للزواج لأنها قد زفت حديثا لرجل أخر، وإن نصف الامبراطورية لن يسلم إلى اتيلا لان الميراث يكون فى الذكور فقط وليس فى الاناث وبالتالى فإن هونوريا ليس لها ميراث أصلا(١).

وقرب نهاية العام ٤٥٠م ظهرت مشكلة اخرى تتعلق بخلافة زعيم الفرنجةالبربريين، فقد مات الملك الفرنجى منذ فترة وجيزة ونشب نزاع بين ابنائه ولجأ الابن الأكبر إلى اتيلا طالبا التحالف معه، فى حين ذهب الابن الأصغر إلى اينيوس. وتبنى اينيوس الأمير الفرنجى كأحد أبنائه، واشترك مع الامبراطور فالنشيان الثالث فى اغراقه بالهدايا. والتحالف الذى سعى إليه الابن الأصغر سرعان ما اتفق عليه. ومن الواضح أن اينموس والحكومة الغربية كانا فى حوالى نوفمبر سنة ٤٥٠م قد دخلا فى عداء مكشوف مع الهون، وإن الطرفين كانا يبحثان عن حلفاء لهما(٢).

ونحن ندرك الصعوبة الكبيرة التى واجهت اتيلا فى تقرير أى الجبهتين يبدأ بالهجوم عليها، وبمجرد أن وصل اتيلا إلى قراره باستمرار خطته الأصلية بمهاجمة القوط فى غالة فإنه كان قد قوم الموقف فى نهاية عام ٤٥٠م وما خطط له اتيلا فى بداية الأمر اصبح يشمل الفرنجة أيضا بعد التطورات الجديدة ولجوء الابن الأكبر لملك الفرنجة إليه طالبا مساعدته.

وقد اعتبر الهون الفرنجة البربريين من اعدائهم. ومن ناحية أخرى فإن الحرب مع الرومان الغربيين لم تكن مؤكدة ولاحتمية فى نظر اتيلا حتى الان. وكان اتيلا حريصا على عدم كشف نواياه، والشىء المؤكد فى سياسة اتيلا أنه كان يسعى لعدم قيام تحالف بين الرومان والقوط، فادعى اتيلا أنه

---

(1) Thompson, A history of Attila..., PP.133-134; Clover, OP-Cit., P. 111; Bury, OP-Cit., Vol. P. 290.

(2) Clover, OP-Cit., P. 113; Thompson, Ahistory, of Attila p.134.

صديق لكليهما، فكتب إلى تولوز أن حملته هدفها اعداء القوط، كما كتب إلى رافنا أنه يعمل على معاقبة اعداء روما. وعندما دخل اتيلا غالة بالفعل فى العام التالى أعلن أنه دخلها بصفته صديقا لروما(١).

ومهما كان الأمر فقد قاد اتيلا فى بواكير عام ٤٥١م جيشا كبيرا فى اتجاه الغرب مكونا من الهون والعناصر الجرمانية الأخرى الخاضعة لهم. وقد قدر المعاصرون نتيجة للزعر الذى انتابهم جيش اتيلا بحوالى نصف مليون(٢). ومن العناصر التى اشتركت ضمن جيش اتيلا الجبداس Gepids من جبال داكيا تحت قيادة ملكهم أرداريك Ardaric والقوط الشرقيون بقيادة زعمائهم الثلاثة والأمير Walamir، تيوديمير Theodemir، وفيديمير Widimir والروجيان Rugiana، من أقاليم أعالى الـ Thelss والسكرى أو السكريون Scirians من جاليكيا Galicia، والهرولى Heruls من شواطىء البحر الأسود "Euxine" والثورنجيون، بالاضافة إلى الالان Alans وغيرهم. وعندما وصل هؤلاء إلى الراين التحق بهم فريق من البرجنديين الذين يسكنون شرقى ذلك النهر، وجزء من الفرنجة الريباريين Riparian ونزل الجيش فى الولايات البلجيكية واستولى على متز فى ٧ ابريل سنة ٤٥١م كما عاث فسادا فى مدن أخرى(٣).

وليس واضحا ما إذا كان ايتيوس Aetius قد سكن هادئا بسبب الخطاب الذى أرسله اتيلا يعلن فيه إنه لاينوى مهاجمة الأراضى الرومانية،

---

(1) Thompson, A history of Attila..., P.135; Clover, OP-Cit., PP. 111-112; Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 290-191; Camb Med. Hist., Vol. I, P. 364.

(2) Camb Med. Hist., Vol. I, PP. 279-280.

وقد بلغ الذعر مداه عند المعاصرين حتى أن المؤرخ سودنيوس ذكر ضمن جيش الهون قبائل جرمانية انقرضت قبل مجيء اتيلا بمئات السنين. أنظر:

Thompson, A history of Attila..., PP.135-136.

(3) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 291-292.

فاستعدادات ايتيوس بدت مسرعة فى اللحظات الأخيرة، والقوات التى استطاع جمعها لم تكن كافية أو ندا لمواجهة الغازى بسبب انتشار المجاعـة فـى أوربـا فى تلك الفترة كما أن المعاهدين من البرجنديين الذين لبوا دعوتـه كـان لهـم أقرباء فى جيش اتيلا. أما الفرنجة الريباريين الذين انضموا إلـى ايتيـوس فقـد لاذوا بالفرار فى مراحل الحرب الأولى. وقد انضم إلى ايتيـوس أيضـا بعض القوات من الكلت أما فرصة الانتصار الحقيقيـة علـى اتيـلا فكـانت تكمـن فـى التعاون مع القوط الغربيين وقد وضع هؤلاء القوط خطتهم على أساس تحمـل عبء الحرب بمفردهم، فعداوة ايتيوس لهم طوال العشرين عاما الماضية على ذلك الهجوم جعلهم لايثقون فيه ولايأملون فـى أى مسـاعدة منـه. وقـد استقبل ثيودريك ملك القوط الغربيين أخبار هجوم اتيلا بصبر وجلد(١).

وقد قوبلت محاولات ايتيوس التحالف مع ملك القـوط الغربييـن بمشـكلة ذات وجهين : الأولى اغراء ثيودريـك نسيان موقـف ايتيـوس طـوال العقديـن المـاضيين وأن يضـم قواتـه إلـى القـوات الرومانيـة الغربيـة. والثانيـة اقنـاع ثيودريك بتوسيع ميدان العمليات العسـكرية لأن القـوط وضعـوا خطتهـم علـى أساس الدفاع على أراضيهـم فقـط وعـن تولـوز عاصمـة دولتهـم، أمـا سياسـة ايتيوس وخططه العسكرية فكانت تقوم على أساس الدفاع عـن غالـة بأسـرها، لذلك أغرى ايتيوس الملـك القوطـى بـالزحف شـمالا وقتـال اتيـلا بـالقرب مـن الجبهة. وكان من الصعب على ايتيوس أن يجد صدى لطلباتـه لـدى ثيودريـك إلا عن طريق افتيوس Avitus الذى كـان قـد نجـح فـى عـام ٤٣٩م فـى عقـد معاهدة معه. وقد وافق ثيودريك فى تلك المرة أيضا على أن يضم قواتـه إلـى قـوات الرجل الذى حاربه طوال حيـاته . أما ايتيوس فكـان عليه أيضـا أن

---

(1) Thompson, A history of Attila..., PP.138-141; Clover, OP-Cit., P. 116, Note. 56; Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 291-292.

يحارب اتيلا صديقه من قبل. وفى تلك الظروف وقف الالان Alans مع اتيلا وساعدوه فى الاستيلاء على فالنس Valeans وكان هدف اتيلا فى المرحلة الأولى من الحرب الوصول إلى اورليانز Orleans فى حين سعى الحلفاء من القوط والرومان إلى منع الهون من الوصول إلى تلك المدينة(١).

وتتضارب الروايات التاريخية عما فعله اتيلا بعد استيلائه على متز Metz فى ٧ ابريل سنة ٤٥١م، فبعض المؤرخين يذكرون أن اتيلا حاصر مدينة أورليانز ودخلها، وأن الحلفاء القوط والرومان أجبروا اتيلا على مغادرتها، فى حين يذكر فريق آخر أن اتيلا لم يحاصر المدينة لأنه لم يصل إليها، ويضيف البعض بأن حصار اتيلا لأورليانز تدخل ضمن الأساطير الدينية(٢). ومهما كان الأمر فقد تقهقر اتيلا إلى منطقة تقع على بعد خمسة أميال من تروى Troyes، فكان ذلك المكان مناسبا للفرسان الهون أكثر من المشاة الرومان. وفى مكان ليس بعيدا عن تلك المدينة، وفى اقليم يعرف باسم سهول موريال Mouriac ويعرف أيضا باسم سهول قطالونيا Catalaunian Plains وتسميه العامة أحيانا شالون Chalons وقعت المعركة الفاصلة فى ٢٠ يونية سنة ٤٥١م(٣).

---

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 291-292; Thompson, A history of Attila..., PP.138-141, PP. 206-207, Camb. Med. Hist., Vol. I, PP. 270-280, 416.

(2) Thompson, A history of Attila..., PP.140-141: Gregory of Tours, OP-Cit., PP.116-117; Bury, OP-Cit., Vol. I, P.292; Clover, OP-Cit., P. 114.

(3) Thompson, A history of Attila..., PP.140-141; Camb. Med. Hist. Vol. I, P. 28; P.416, Not. 2; Gregory of Tours, OP-Cit., P.116; Solomon Katz, The decline of Rome and the rise of Medeival Europe, P.105; Boak, Op-Cit., P.455, 458-459, J. Mattheus, OP-Cit., P.329; Ostrogorsky, OP-Cit., P.57; A.A Vasiliev, History of the Bysantine empire, Vol. I, P.105.

وانظر أيضا : د. اسحاق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ ص١١٣ .

وبدأت المعركة بجهد من الجانبين للسيطرة على أحد التلال المشرفة على ميدان المعركة، غير أن النتيجة لم تكن حاسمة، فقد استطاع كل جيش أن يحتل جزءا من التل، فى حين ظلت قمة التل باقية دون احتلال. وعند السهل كان القوط بزعامة ملكهم العجوز ثيودريك على الجناح الأيمن، فى حين كان ايتيوس والرومان فى الجناح الأيسر، وبين الجناحين تمركز سانجيبانوس Sangibanus ملك الالان والذى كان ولاؤه للرومان موضع شك. وفى بداية المعركة الرئيسية فقد الهون الجزء الذى احتلوه من التل ثم صارت المعركة بين الفريقين، كر وفر، وتغيرت فيها المواقف وجرت الدماء بغزارة، وسقط ملك القوط الغربيين ثيودريك بين القتلى وعثر على جثمانه فى اليوم التالى. وتقهقر اتيلا تحت جنح الظلام إلى ولترة الكردون الذى أقامه خلفه. وقد شاهد الجرمان اتيلا بين فرقه وقد أعد محرقته حيث يحرق بدلا من أن يسقط فى يد اعدائه. وقد كان ضحايا تلك المعركة حسب تقدير جوردانس حوالى ١٦٥ ألف رجل على كل جانب، ومن بين هؤلاء خمسة عشر ألفا من الجبداس سقطوا فى الاشتباكات الأولى قبل المعركة الرئيسية بينهم وبين الفرنجة حلفاء ايتيوس(١).

وقد كشفت ظروف معركة سهول القطلان عن براعة ايتيوس السياسية والعسكرية وأن هدفه فى السيطرة على الغرب الأوربى بأسره لايزال هو المحرك لخططه. لقد أدرك ايتيوس أن القضاء نهائيا على اتيلا والهون حلفائه

(1) Thompson, A history of Attila...,PP.142-143: Clover, OP-Cit. PP.113-115: Camb. Med. Hist., Vol. I, P.280-281; Gregory of thurs, OP-Cit., pp. 117-118; Bury, OP-Cit., Vol. I, P. 293; Hoyt & Chodorow, OP-Cit., PP. 67-68.

وانظر أيضا : د. محمد الشيخ تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص١٠١-١٠٣

والواقع أن أوضاع اتيلا العسكرية لم تكن تسمح له باطعام كل هؤلاء العدد الكبير من الجيش مما يعنى ظلال من الشك على تقديرات جوردانس.

القدامى ليس فى صالحه فهو لا يزال يأمل فى الاعتماد عليهم فى تحقيق مآربه ضد خصومة من بقية العناصر الجرمانية، وهكذا نرى ايتيوس يقنع حلفاءه فى المعركة بضرورة الانسحاب بعد تحقيق ذلك النصر المحدود. وكان القوط الغربيون بقيادة ثوريزمود Thorismud بن ثيودريك قد أغضبهم قتل ملكهم ورغبوا فى استئناف المعركة للانتقام من الهون بالهجوم على اتيلا فى قلب معسكره والقضاء عليه، ولكن ايتيوس تدخل بمهارة واقنع ثوريزمود بضرورة الانسحاب والعودة إلى تولوز فى أسرع وقت ممكن حتى لايستولى اخوته على عرشه، وبذلك تخلص ايتيوس من أحد الحلفاء الأقوياء. كما نجح ايتيوس أيضا فى اقناع ملك الفرنجه بأن طريق عودة اتيلا سيمر حتما بجوار ممكلة الفرنجة وإن من المحتمل أن يقوم اتيلا بتنصيب الأخ الأكبر لملك الفرنجه الراحل ـ وكان الابن الأكبر قد لجأ إلى اتيلا قبل ذلك ـ على العرش، فاسرع ملك الفرنجة بالعودة بجيوشه إلى بلاده، وهنا اصبح فى امكان اتيلا أن ينسحب بقواته فى أمان وفى فسحة من الوقت بناء على تصرف وخطط ايتيوس(١).

لقد كانت معركة سهول قطالونيا معركة أو حربا أممية لاشتراك أكثر من أمة فيها، ولكن أهميتها بولغ فيها من قبل بعض المؤرخين، فهى لاتعتبر احدى المعارك الحاسمة فى التاريخ. وحملة اتيلا على غالة تقرر مصيرها بنجاح الحلفاء فى منع اتيلا من السيطرة على أورليانز ولعل أهمية المعركة تبدو قيمتها فى تدمير شخصية اتيلا كغازى لايقهر، وفى اضعاف قوته ومنعه

---

(1) Thompson, A history of Attila...,PP.142-143: Thompson, The Visigoths..., p. 123: Greg. of Tour, OP-Cit. PP.117-118; Bury, OP-Cit., Vol. I, P.293: Camb. Med. Hist., Vol. I, PP.280-281.

وانظر أيضا : موسى مرجع سابق ص٩٦.

من مد نفوذه وحملاته التخريبية وحتى فى حالة نجاحه وانتصاره فإن بقاءه فى غالة أمرا كان مشكوكا فيه وقد لعبت جغرافية أوربا دورا كبيرا فى انقاذها من الهون(١).

ولم يمض وقت طويل على الضربة التى تلقاها اتيلا فى سهول قطالونيا حتى عاد فى العام التالى ٤٥٢م لتكرار مطالبه السابقة والقديمة عن هونوريا وفى الوقت الذى ساءت علاقة اتيلا من جديد مع الامبراطور الشرقى مارفيان بسبب هجمات الهون على الليريا الشرقية فى سبتمبر سنة ٤٥١م وكان هدفها تذكير مارفيان بما يمكن أن يحدث فى المستقبل إلا أن اتيلا تراجع عن خطته فى الهجوم على أراضى الامبراطورية الشرقية بسبب استعدادات مارفيان العسكرية وقراره بالنزول بنفسه لملاقاة الهون. لقد فضل اتيلا أن يقوم بهجومه على الغرب وعلى إيطاليا بالذات لأنه أدرك أن الامبراطورية الغربية كانت السبب فى الكارثة التى حلت به فى غالة ونسى بذلك الجميل الذى أسداه إليه ايتيوس بتمكينه من الانسحاب من غالة فى يسر وسهولة، واعتبر اتيلا أن انفصال الجيش القوطى عن الرومانى الغربى ميزة عسكرية له ستمكنه من هزيمة كل جيش على حدة(٢).

ومهما كان الأمر فقد اتخذ اتيلا من قضية هونوريا حجة لتبرير غزوه لايطاليا وحشد فى ربيع عام ٤٥٢م جيشا مثل الذى قاده عام ٤٥١ واخترق به ولايات بانونيا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ويبدو أن ايتيوس قد اعتمد على ما نفذه من سياسة بعد انسحاب الهون من غالة عام ٤٥١ م بعد هزيمتهم فى سهول قطالونيا ، فأعتقد أن فى وسعه بدء المفاوضات

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, P. 214.

وانظر أيضا : موسى مرجع سابق ص٩٧.

(2) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 294-295; Thompson, A history of Attila..., P.144.

مـع اتيـلا، وأن الهـون سـيعيدونه إلـى صداقتهـم القديمـة ونتيجـة لهـذا الفهـم الخاطـىء أمر ايتيوس باخلاء ممرات جوليان فـى جبـال الألـب مـن الحاميـات الرومانية، مع أن تلك الحاميات كان فى امكانها ايقـاف هجـوم فرسـان الهـون وتعويـق عبورهـم الممـرات، وبذلـك عـبر جبـال الألـب دون اعـتراض نتيجـة لخطة ايتيوس الفاشلة. وجاءت أخبار وصول اتيلا إلى إيطاليا بمثابة الصاعقـة على ايتيوس ورجاله. وعندما افاق من ذهوله لم يكن أمامه سوى التفكـير فـى كيفية مغادرة إيطاليا مع الامبراطور فالنشيان الثـالث تاركـا إيطاليـا لمصيرهـا المحتوم مع اتيلا(١).

ونجح اتيلا فى حصار واجتيـاح اكويليـا Aquilia المؤديـة إلـى البندقيـة وقد دمرت المدينة تماما وسويت بالأرض، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك، وخـلال القـرن السـادس الميـلادى لـم يكـن لهـا أثـر. واحتـل الهـون بعـد ذلـك فيرونـا Verona وفيكنتيا Vicentia وتعرضت المدينتان للعبث من قبل اتيلا فـى حيـن اشترت كل من تكينوم Ticinum، وميديولانوم Mediolanum (ميلان الحاليـة) نجاتهما من النار والسيف وأصبح الطريق مفتوحا أمام اتيلا إلـى رومـا ويقـال بأن اتيلا شاهد فى القصر الامبراطورى فى ميلان صورة تمثل امبراطورى الشرق والغرب يجلسان على عرشيهما الذهبيين فى حين يرقد أمامهما بعـض السكيثيين Scythians المذبوحين . وقد أجـبر الهـون أحـد الرسـامين المحليين برسم صورة لاتيلا جالسا على عرشه وأمامه الامبراطوران الشرقى والغربى يمسكان جوالا يفرغانه من الذهب على قدميه(٢).

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 294-295; Thompson, A history of Attila..., PP.144-145.

(2) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP. 294-295; Camb. Med. Hist. Vol. I, P.364. 417; Thompson, A history of Attila..., PP.145-146; Greg. Of Tours, OP-Cit., p. 118.

وتشير بعض الروايات المعاصرة إلى أن اتيلا قرر الزحف على روما ذاتها ولكن اتباعه حذروه من النهاية التى تنتظره هناك كما حدث لالاريك ملك القوط الذى مات فور دخوله المدينة ونهبها. والواقع أن اتيلا انسحب من إيطاليا لأسباب أخرى دون أن تراوده مثل تلك الأفكار. لقد تراجع ايتيوس عن مشروعه بمغادرة إيطاليا وتركها لمصيرها مع اتيلا، فقد بدأ ذلك المشروع إقامة مخجلا كما ينطوى على مخاطرة بمستقبله، كما أدرك ايتيوس فى نفس الوقت أن قواته ليست كافية للدخول فى معركة حاسمة مع اتيلا، لاسيما أن ثوريزمود Therismud ملك القوط الغربيين وحليف ايتيوس فى معركة سهول القطلان كان منهمكا فى الحرب ضد الالان، ثم دخل بعد ذلك فى نزاع مع اخوته حتى انتهى الأمر بقتله. لذلك قرر ايتيوس الدخول فى مفاوضات سلام مع اتيلا وكانت السفارة التى قامت بتلك المهمة برئاسة البابا ليو Leo بصحبة الوالى السابق ترجينيوس Trygetius وكان صاحب خبرة سابقة فى المفاوضات مع الوندال فى شمال افريقيا سنة ٤٣٥م، وجنوديوس افيلونس Genadius Avienus قنصل عام ٤٥٠م، وهو أحد الأثرياء المعروفين فى ذلك الوقت(١).

وعقد اتيلا معاهدة مع أعضاء الوفد الرومانى الغربى ولم تكن تقوى وورع البابا هو الذى اقنع اتيلا بالانسحاب من إيطاليا إلى شمال الألب، إنما كانت هناك أسباب أخرى وراء ذلك الانسحاب ، فعندما كان ايتيوس يتأهب

---

(1) Thompson, A history of Attila ..., P.147; Greg. of Tours, OP-Cit., P. 118; Bury, Op-Cit., Vol. I, PP.294-296; Hoyt & Chokorow, OP-Cit., P.68.

وينسب بيورى ما أشيع عن دور البابا ليو بأنه يدخل ضمن التراث الدينى وكان قد أشيع بأنه طيفى القديس بطرس وبولس قد ظهرا لاتيلا وهدداه بسوء العاقبة ففزع منهما وانسحب من إيطاليا من ناحية أخرى فلعل فى وجود أحد الأثرياء ضمن الوفد اشارة إلى ما قد يبذل من أهوال لاتيلا نظير انسحابه ويبدو أن السفارة وعدته بارسال هونوريا له مع مهر لها. انظر: Camb. Med. Hist., Vol. I, P.417.

للذهاب إلى غالــة فـى العـام السـابق انتشـرت المجاعـة فـى إيطاليـا فـى ذلـك الوقت، فالمحاصيل لـم تكـن جيـدة، كمـا أن الغـزو الهونـى زاد الأمـر سـوءا، والنتيجة أن الأراضى التى دخلها الهون فى صيف عام ٤٥٢م كانت تجتاحها المجاعة، ولازم ذلك انتشار وباء الطاعون، ولم يكن مناسبا لاتيلا أن يخـاطر بجنوده بالبقاء فى إيطاليا فى تلك الظروف. ومهما تكن أرقام القتلى فى سهول قطالونيا فإن الهون قد فقدوا خشونتهم وعنجهيتهم، وتناقصت قوتهـم البشـرية، فإذا ضرب الطاعون قواتهم فى إيطاليا فإن مركزهم فى أوربـا يصبـح يائسـا، ويكون من عدم الفطنة فى مثل تلك الظروف عبور جبال الابنين Apennines حتى لو كانت جبهة الدانوب تعيش فى سلام. ويضـاف إلـى ذلـك فـإن وصـول قـوات مـن الشـرق أرسـلها الامبراطور مارفيـان لنجـدة إيطاليـا وضغـط تلـك القوات على مؤخرة الهون قد اقنع اتيلا باسـتحالة البقـاء فـى إيطاليـا فانسـحب منها دون أن يكون له قدم جنوب نهر البو Po(١).

ومهما كانت الأسباب التى جعلت اتيلا يبادر بالانسحاب من ايطاليا فإنـه أصر على موقفه من موضـوع هونوريـا، فهدد بأنـه سيعود مـرة ثانيـة إلـى إيطاليا ويعيث فيها فسادا مالم تسلم إليه هونوريا ونُصيبها فـى الامبراطوريـة، وأصبح الموقف حرجا بالنسبة للامبراطوريـة الشـرقية أيضـا، فقد عـاد اتيـلا تهـديداته مالم تســدد إليه الجزية المتفق عليها مع الامبــراطور ثودوسـيوس

---

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, P.296; Thompson, A history of Attila..., PP.147-148, 198;

وانظر أيضا : د. سعيد عاشور، مرجع سابق جـ١ ص٩٠-٩١.

ويثير موضوع المجاعة سؤالا عن الدور الذى يمكن لجايزريك أن يقوم به فى منع وصول القمح إلى إيطاليا. انظر تفاصيل ذلك فى :

وانظر أيضا: د. اسحاق عبيد، مرجع سابق ص ١١٣،١١٤، موس:مرجع سـابق ص٩٧.

الثانى، وضرب اتيلا معسكره فى سهول المجر "هنغاريا" ولكن القدر شاء أن ينقذ الامبراطوريتين الشرقية والغربية من تهديدات اتيلا. ذلك أن الزعيم الهونى فكر فى أن يضيف زوجة جديدة له قبل البدء فى العمليات العسكرية، وكانت الزوجة الجديدة هى الديكو Ildico وهى من أصل جرمانى. وفى ليلة زفافه شرب اتيلا حتى الثمالة، ولما تأخر فى الظهور صباح اليوم التالى دخل عليه حراسه فوجدوه ميتا على فراشه، وبجواره زوجته تبكى، لقد نزف اتيلا طوال الليل من أنفه ولم يكن جسده يحمل آثار جروح. وقد شعر الهون بذهول وحزن شديدين، فقطعوا شعورهم وجرحوا وجوههم بسيوفهم، فأعظم المحاربين فى نظرهم لايشيع بالبكاء كما تفعل النساء ولكن باسالة دم الرجال(١).

وانتشر خبر وفاة اتيلا فى كل انحاء أوربا مما جلب البهجة والسرور لكل الأمم لاسيما الرومان. وبموت اتيلا تمزقت امبراطورية الهون . ولم يكن من بين أبنائه من له نفس المقدرة العسكرية، فاقترحوا تقسيم ميراث والدهم إلى أقسام وكانت تلك فرصة للجرمان الخاضعين للهون الذين لم يسمحوا لأنفسهم أن يخضعوا لسادة مختلفين مثل قطعان الأغنام. وقاد الثورة ارداريك Ardaric ملك الجبداس ومستشار اتيلا الأول. وبعد سلسلة من المعارك استطاع الجبداس مساعدة بعض الشعوب الأخرى مثل السكرى Sciri والروجى Rugi والسويبى Suebi والهرولى Heruls من تحقيق الانتصار الكبير على الهون فى معركة كبيرة عند نهر "نيداد" Nedao فى بانونيا

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, P.296; Thompson, A history of Attila..., P.149.

وعندما وضع اتيلا فى قبره غطى جسده مع الذهب والفضة والحدد وترمز قطع الذهب إلى أنه أخذ الجزية من الامبراطوريتين أما الحديد فيرمز إلى أنه قد قهر كل الأمم ووضع فى قبره التحف التى غنمها من أعدائه. أما أولئك الذين حملوا نعشه إلى مثواه الأخير قد ذبحوا ودفنوا بجواره. انظر: Thompson, A history of Attila..., P.150.

عام ٤٥٤م ولم يشترك القوط الشرقيون فى تلك المعركة مما اكسبهم عداء الجبداس فيما بعد. ويقال بأن الهون فقدوا فى تلك المعركة حوالى ثلاثين ألفا من رجالهم، وكان من بين القتلى الاك Ellac أكبر أبناء اتيلا الذى كان حاكما على قبائل الاكانزيرى Acatziri فى حين هرب بقية اخوته مع أشلاء جيوشهم إلى ساحل البحر الأسود حيث سجلوا بداية رحلتهم إلى أوربا بانتصارهم على القوط الشرقيين من قبل(١).

وقد أدت معركة نهر نيداو Nedoo إلى تغييرات واسعة فى التوزيع الجغرافى للشعوب البربرية، فالهون انفسهم تمزقوا شر ممزق، وبقى بعضهم فى الغرب ولكن الجزء الأكبر منهم هرب شمالا إلى الدانوب الأدنى حيث نجدهم تحت قيادة اثنين من أبناء اتيلا وهم يفسدون فى ولايات تراقيا. أما الجبداس Gepids فبسطوا سيطرتهم على كل داكيا بمحاذاة السهول الواقعة بين الـ Theiss والدانوب، وهى المناطق التى كانت من قبل موطنا للهون. واصبح على الامبراطور الشرقى مارفيان أن يواجه الأمم الجرمانية على حدوده بدبلوماسية تهدف إلى ضرب احداهما بالأخرى(٢).

لقد كانت معركة نهر نبداو معركة اممية اشتركت فيها أكثر من أمة جرمانية واستمر تأثيرها أكثر من معركة سهول قطالونيا. لقد كانت كارثة بالنسبة للهون لكنها كانت عظيمة الأهمية بالنسبة للامبراطورية الرومانية سواء الشرقية أو الغربية، وكذلك بالنسبة للجرمان. وإذا كان غزو البرابرة البدو فى القرن الرابع الميلادى قد أدى إلى اندفاع القوط الغربيين من داكيا إلى البلقان مما أدى إلى كارثة أردنه فيما بعد سنة ٣٧٨م وتقرير مسير القوط

(1) Thompson, A history of Attila..., PP.152-153; Bury, OP-Cit., Vol. I, P296.

(2) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP.296-297.

فى التاريخ فإن الغزو الهونى كان أبعد أثرا فى التاريخ الأوربى. لقد ساعد الغزو الهونى على تأخير عملية قيام الجرمان بتقطيع أوصال الامبراطورية الغربية، وقد حدث ذلك بطريقتين فى المقام الأول بقيام الهون بالتحكم فى العناصر الجرمانية الشرقية وراء الدانوب وضبطها والتى عانت الامبراطورية الرومانية من أغلبها ومن ناحية ثانية باستمرار امداد القادة الرومان بالمساعدات التى كانت بالغة الأهمية ولاتقدر بثمن ضد العناصر الجرمانية المعادية. أما التخريب الذى تم فى الولايات الامبراطورية فهى خسارة تقوم على أساس المساعدات التى قدمها الهون للامبراطوية كما أن العناصر الجرمانية الأخرى كانت سترتكب نفس الأعمال وربما أسوأ منها لو لم يوجد الهون . وتأخير عملية التمزيق هذه مكنت الحكومة الامبراطورية من البقاء فترة أطول فى تلك البلاد التى قدر لها أن تصبح ممالك تيوتونية فيما بعد(١).

---

(1) Bury, OP-Cit., Vol. I, PP.297-298; Thompson, A history of Attila..., PP.212-213.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع الأوربية :

1. ***Bury, J . B . ,***
History of the later Roman Empire from the death of theodosius I to death of Justinian. New York 1958. 2 Vol.

2. ***Combridge Medival History, Vol. I.***

3. ***Clover, F.M.,***
Geiseric and Attila, in, Historia Band XXII, 1973.

4. ***R.S. Hoyt and S. chodorow,***
Europe in the middle ages, third edition, 1976, New York.

5. ***A.H. Jones,***
The decline of the ancient world London 1978 fifth Impression.

6. ***F. Lot .,***
The end of the ancient worlk and the beganning ot the middle age. London 1968.

7. ***J.R. Moss,***
The effects of the policies of Aetius on the History of western Europe, in, Historin Band XXII, 1973.

8. ***Mathews,***
Wstern Aristocracies and Imperial court, A.D364-425, oxford 1995.

9. ***G. Ostrogorsky,***
History of the Byzantine state, translated from German by J.Hussey, Great Britain, reprinted 1986.

10. ***S. Painter,***
Western Europe in the middle ages 300-1975, New York 1974.

11. *E. Peters,*
Europe, the world of the middle ages Newjersy 1977.

12. ***Procopius,***
History of the wars, Vol-11, Translated by H.B. Dewing, Harvard university pross, London.

13. ***Solomon Katz,***
The decline of Rome and the rise of Europe, New York, 1987.

14. ***W.G. Sinnigen and A.E.R. Boak,***
A History of Rome to A.D. 565 sixth edition, London, & U.S.A. 1978.

15. ***E.A. Thompson,***
A History of Attila and the Huns Osford 1943 reprinted 1975, Green word press.

16. ______________,
The visigoths from fritigern to Euric in Historia, B. XII, Heft I, January 1963.

17. ***A.A. Vasiliev,***
History of the Byzantine Empire Vol, I, Madison 1958.

ثانيا : مراجع اللغة العربية :

١ - د. اسحاق عبيد :

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية.الطبعة الأولى ١٩٧٢. دار المعارف بمصر.

٢ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول ، الطبعة التاسعة ١٩٨٣م.

٣ - كانتور "نورمان ف" :

التاريخ الوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية . ترجمة وتعليق، "قاسم عبده قاسم . الطبعة الثانية ، دار المعارف .

٤ - فشر :

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى. نقله إلى العربية د. محمد مصطفى زيادة ، د. السيد الباز العرينى . الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر.

٥ - موس :

ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨١٤م، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، د. السيد الباز العرينى ـ عالم الكتب ١٩٦٧م.

عمدة القرية Κωμαeχηs فى العصر البطلمى

دكتور / عودة عبد الواحد جودة

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تميزت مصر بالوحدة السياسية مبكرا منذ عهد الملك مينا (نعرمر) حوالى القرن الثانى والثلاثين ق.م.(١)، بيد أنها انقسمت جغرافيا وإداريا إلى قسمين الوادى (جنوبا) والدلتا (شمالا)(٢). ولأجل حسن سير الإدارة تم تقسيم هذين القسمين إلى وحدات إدارية بلغت أربعين إقليما تقريبا، كان كل منها يدعى Sepet على حد قول بعض الباحثين(٣)، أو Hesepu حسب قول آخرين(٤). وبناء على سياسة البطالمة فى الاحتفاظ بالأوضاع القديمة التى تتماشى مع سياستهم أبقوا على التقسيمات الإدارية إلى مصر العليا ومصر السفلى، وأبقوا كذلك على الأقاليم (المديريات) التى تباينت أعدادها من فترة إلى أخرى على مدار عصر البطالمة(٥).

وبسبب اتساع مساحة الأقاليم من جهة ولأجل ضمان اشراف الحكومة على أجزاء الأقاليم من جهة أخرى عنى البطالمة بتقسيم الإقليم إلى وحدات إدارية أصغر اشتهرت بأنها مراكز Toparchiai(٦)، لعلها كانت امتدادا لتقسيمات مصرية قديمة مماثلة.

إلا أن مصر البطلمية عرفت بعض التقسيمات الإدارية ذات الصفة الإغريقيةمثل الديويكيسيس dioikesis التى ظهرت فى مديرية أوكسيرونخوس وكان يسكنها أغريق(٧) ويبدو أن هذه الوحدة الإدارية قد اختفت فى القرن الثالث ق.م(٨) وكان لمديرية أرسينوى (الفيوم) تقسيما إداريا خاصا، إذ ظهر

بها أربعة أقسام Merides خلال جانب من القرن الثالث، بيد أن أحدها اختفى عام ٢٢٥ق.م(٩).

ويتضح من وثائق منتصف القرن الثالث ق.م. أن كل قسم من الأقسام سالفة الذكر كان يتكون من عدة نومارخيات Nomarchiai، يبدو أن اسم كل منها كان مشتقا من إسم أول حكامها(١٠). ورغم وجود تلك التقسيمات اغريقية الأصل عرفت مديرية أرسينوى المراكز Topoi أيضا(١١).

وبطبيعة الحال كانت المراكز تنقسم إلى قرى Kwmai(١٢). ومن ثم فإن القرى كانت أصغر الأقسام الإدارية فى منظومة الأقسام الادارية فى مصر البطلمية.

ولما كانت القرية أصغر الوحدات الإدارية، وبما أن اقتصاد مصر فى الأساس اقتصادا زراعيا فإن أغلب سكانها كانوا يحيون فى مجتمع ريفى، وبطبيعة الحال يؤدى وضع مثل هذا إلى أن يكون عدد القرى بها كبيرا(١٣). وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين فى مديرية أرسينوى وحدها ١٤٤قرية تحمل ٦٦ منها أسماء اغريقية و ٤٨ أسماءاً مصرية(١٤). وقد كان بعض هذه القرى يعود إلى عصر الفراعنة، والبعض الآخر أنشىء فى عصر البطالمة(١٥). ويضاف إلى ذلك أن عدة قرى كانت تحمل أسماءا يهودية مثل ماجدولا وساماريا، يرى هيشلهايم إنه كان يقطنها مرتزقة يهود(١٦).

ورغم تنوع وتعدد رجال الإدارة فى مصر البطلمية، بين موظفى الادارة المدنية وموظفى الادارة المالية وادارة السجلات والشرطة، فإن ما يهمنا فى هذا المقام فئة رجال الادارة المدنية، الذين تدرجت فئاتهم وفقا للأقسام الادارية، المديرية (فالقسم والنومارخية فى مديرية أرسينوى) ثم المراكز وأخيرا القرية. وقد كان لكل قسم ادارى الجهاز الادارى المشرف عليه.

ولقد سلم كل الباحثين بأن النومارخاى Nomarchiai كانوا على رأس الجهاز الإدارى للمديرية حال فتح الأسكندر الأكبر لمصر، بيد أن البطالمة وإن احتفظوا بالنومارخ فإنهم وضعوا على رأس المديرية موظف مقدونى أو أغريقى يدعى القائد Strategos مما يوحى بأنه كان ذا رتبة عسكرية، أصبح النومارخ مرؤسا له(١٧) وقد تنامت سلطات القائد بمضى الزمن حتى أصبح الحاكم العسكرى والمدنى للمديرية، وامتدت سلطاته إلى مختلف فروع الادارة(١٨). وبحلول القرن الثانى ق.م. صار حاكما مدنيا فعليا وإن ظل يحتفظ بالإشراف على الجند والشرطة فى المديرية(١٩). وصار للقائد اهتمام بصوالح الملك المالية حتى أنه أصبح يتولى وظيفة المشرف على الدخل ومنصب مساعد وزير المالية ho epi Twn Prosodwn بالاضافة إلى منصبه الأصلى(٢٠). وقد أدت الأضطرابات والثورة الدائمة فى منطقة طيبة منذ عهد بطلميوس الخامس ابيفانيس إلى أن يقيم البطالمة قائدا عاما Epistrategos عليها إمتد اشرافه إلى الصحراء العربية(٢١). وكان يشرف على كل منطقة طيبة، وتحت رياسته فئتين من الحكام أولهم القائد وكان نفوذه يمتد على أكثر من مديرية(٢٢)، وثانيهما الابيستاتاى Epistatai الذين كان كل منهم يتولى حكم مديرية واحدة(٢٣).

وبخصوص النومارخ Nomarches، فقد فقد مكان الصدارة فى إدارة المديرية ليحل محله القائد، واقتصرت مهام النومارخ على الشئون الاقتصادية، وخصوصا الجانب الزراعى منها، ويبدو من الوثائق إنه كان يعنى بالاشراف علىأرض الملك Basilike ge والأهتمام بشئون الزراعة(٢٤)، وبتنفيذ الأعمال الهامة مثل إنشاء الترع والجسور(٢٥)، واهتم أيضا بالاشراف على عمل المزارعين وشئونهم(٢٦). وفى مديرية أرسينوى كان لكل قسم من أقسامها حاكم ادارى Epistates(٢٧) وعمدته Meridarches(٢٨). وحوالى

منتصف القرن الثالث ق.م. تم تقسيم الأقسام إلى نومارخيات كان لكل منها عمدة Nomarches[٢٩] وكان لكل مركز Topos عاصمة ، حيث يقيم الحاكم الادارى Epistates والعمدة Toparches[٣٠]. وما كان النومارخ يفعله فى عاصمة المديرية كان عمدة القسم وعمدة النومارخية وعمدة المركز يفعلونه كل فى نطاق عمله[٣١].

وفيما يتعلق بالقرية فإنه كان لكل قرية حاكم ادارى Epistates وعمدتها Kwmarches وكان الابيستاتيس رئيسا لجهاز القرية الادارى، أما العمدة فكان له اختصاصات كثيرة نتناولها فى حينه.

ونسلم بأن وظيفة عمدة القرية شأنها شأن وظيفة النومارخ والتوبارخ تعود إلى العصر الفرعونى. فقد ورد ذكر حكام القرى Whyt بمعنى عام، أوعمدة القرية tsw حرفيا، ويبدو أنهم كانوا أفرادا بارزين وظيفيا واجتماعيا وماليا فى مجتمع القرية، وكانت مهامهم فى القرى تتركز فى القيام بجباية الضرائب وتسهيل مهام مندوبى الحكومة المركزية، وتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم[٣٢] ويتبدى من نقوش جدران مقبرتى تحتمس الثالث وأمنحوتب الثانى إنها كانت تحوى توجيهات مفصلة[٣٣]، من الجلى إنها كانت تعليمات من إلى الوزير Sobyet لها صفة عملية، تماثل التعليمات الواردة فى بردية تبتونيس رقم ٧٠٣ التى يعود تاريخها إلى العصر البطلمى، وتتناول بعضا من الأمور التى تناولتها الوثيقة البطلمية، مثل امدادات المياه[٣٤] وتحفيز الجهاز الادارى على توصيل المياه إلى جميع الأراضى وحرث الأرض السنوى[٣٥]، ويتولى الوزير بدوره لفت نظر عمد القرى وشيوخها إلى الاهتمام بتنفيذ هذه الأوامر والأشراف على موسم الحصاد[٣٦]. ويبدو أن عمد القرى فى العصر الفرعونى كانوا حكام القرى قولا وفعلا، ولايضيره فى ذلك أنه كان يقبع فى قاع سلم الادارة المدنية الفرعونية التى كان أعلاها وزيرا الجنوب والشمال

يليهما محافظوا المديريات ثم فئة المفتشين الذين كانوا همزة الوصل بين الادارة المركزية أو قمة الهرم الادارى، وتمثل إدارة القرية قاعدة ذلك الهرم(٣٧). ونظرا لتكوين مصر القديمة من حيث التركيز الديمغرافى والأقتصادى، وحتى عصرنا الحالى، فى الريف، إذ أن عدد سكان الريف كبيرا عن سكان المدن وسيادة الاقتصاد الزراعى، فلا بد أن يكون لعمد القرى دورا بارزا فى الإشراف على الزراعة والهيمنة على سكان القرى الذين كانوا يشكلون قطاعا عريضا من الشعب، أى أنه صار لهم ثقلا يتناسب مع أهمية دورهم فى مجتمع ريفى اقتصاده زراعى.

وفيما يتعلق بالتوصيف الدقيق لوظيفة عمدة القرية Kwmarches فى العصر البطلمى، فإنه كان حاكم القرية كما يبدو من الترجمة الحرفية للكلمة، ويبدو من وثائق العصر البطلمى أن عمدة القرية كان استمرارا لوجوده فى العصر الفرعونى . وعلة ذلك أن البطالمة قد حافظوا على العديد من مظاهر التنظيم الادارى(٣٨)، ومنها وظائف عمد القرى.

وبخصوص توليه وظيفته، شأن بقية الموظفين لم تأت الوثائق البطلمية على ذكر كيفية تولى عمدة القرية وظيفته، فلم نتبين إن كان منصبه وراثيا أم أنه كان يعين وفقا لشروط ومؤهلات معينة تحددها السلطة المركزية. بيد أن صمت الوثائق لايوصد باب الاجتهاد. فقد ورد فى وثيقتين إشارة إلى تولى عمد قرى مناصبهم، تاريخ الأولى ١٢٥ق.م. وهى عبارة عن خطاب من صاحب مقام رفيع إلى مزارعى قرية اوكسيرونخا والحراس بها ورد بها "من ثيون إلى الحراس والمزاعين فى قرية أوكسيرونخا، نما إلى علمى من مصادر عدة أن بيتوس عمدة القرية قد أساء التصرف وأضر بنفسه وحاقت به متأخرات كثيرة فيما يتعلق بالمقادير المتفق معه بشأنها، والواجبة عليه وفقا لشروط وظيفته... (أرادب) من الحنطة ، وأخرها حتى العشرين من ...

فكونت فائدة تزيد على نصفها وبالتالى أرسلت على وجه السرعة إلى حراس المحاصيل ومزارعى أوكسيرونخا.."(٣٩) وبغض النظر عن أن هذه الوثيقة مهلهلة وغير كاملة، وبصرف النظر عما تحويه من معلومات قيمة، نتناولها فيما بعد، يهمنا منها فى هذا الصدد فقرة واحدة "حاقت به متأخرات كثيرة فيما يتعلق بالمقادير المتفق معه بشأنها والواجبة عليه وفقا لشروط وظيفته". تلك التى يتضح منها أن عمدة القرية كان يتولى وظيفته وفقا لشروط معينه، يبدو أنها كانت تتمثل فى تقديم عدد معين من أرادب الغلال، فلا يبعد أن مقادير الغلال المتفق مع العمدة بشأنها وفقا لشروط وظيفته كانت نتاج عدة أروات قام العمدة بزراعتها شريطة أن يقدم عدد معين من أرادب الغلال تلك التى عندما تأخر فى سدادها أبلغ أحد كبار الموظفين المزارعين حتى يكونوا على علم بالأمر حتى لايقدموا أية مستحقات نوعية للحكومة إلى العمدة المكلف بجبايتها، وكذلك أبلغ حراس المحاصيل Genematophylakes لأجل التحفظ على أية محاصيل تخص عمدة القرية، وذلك استيفاءا لدينه من جهة، وربما لأنه كانت تتخذ الاجراءات لعزله من منصبه(٤٠).

ويعود تاريخ الوثيقة التالية إلى عام ١١٧ق.م. وهى عبارة عن خطاب من مسئول فى الادارة المالية، لعله الابيميليتيس Eplmeletes أو المشرف على الدخل ho epi Twn Prosodwn إلى أحد موظفى مكتب وزير المالية ورد بها "... إنهم ظلوا قابعين فى مناصبهم ذاتها، وقد تم تعيين غالبيتهم بدون علم وزير المالية، وإنهم احتالوا للزج بأنفسهم فى وظائف الأويكونوموس والتوبارخ والسيتولوجوس وعمد القرى، وبعض الوظائف التى تتعارض مع تخصصاتهم، وأسند آخرون مناصبهم إلى أبنائهم صغار السن وأحيانا إلى أفراد آخرين..."(٤١).

ويتضح من هذه الوثيقة إنه كان لابد من موافقة وزير المالية على تعيين كل الموظفين خصوصا الذين كان لهم اتصال بالشئون المالية أو الاقتصادية، ويبدو أيضا بعض عمد القرى، مثل بعض الموظفين الآخرين، كانوا يورثون مناصبهم لأبنائهم مخالفين بذلك التعليمات، مما حدا بموظف نابه أن يكتب بذلك إلى مكتب وزير المالية. ويؤيد ما ذهبنا إليه حالات مناظرة من وثائق أخرى تخص موظفين آخرين، إذ نتبين من إحدى الوثائق أن وزير المالية كان يصدر أمرا بتعيين موظفين(٤٢) ، وإنه شخصيا أصدر قرار بإعادة تعيين منخيس كاتب قرية كركيوسيريس(٤٣)، ويبدو من بعض الوثائق أن إعادة تعيين منخيس كان نظير قيامه بدفع رشاوى مناسبة عرفت فى لغة الادارة البطلمية باسم الهدايا Stephanoi وقد تمثلت هذه الهدايا فى حالة منخيس فى تقديم ٥٠ أردبا من القمح ومثلها من حبوب غذائية وبقول متنوعة(٤٤) ومن الممكن أن هذه الوثيقة كانت إتفاقا سريا بين منخيس ورؤسائه، تعهد الطرف الأول بمقتضاه بتقديم الكمية السابق ذكرها من المحاصيل مقابل أن يزكوه لدى وزير المالية لأجل إعادة تعيينه(٤٥). بيد أن ذلك الاتفاق الخاص وتقديم الرشاوى لم يحل دون أن تكون هناك شروط للادارة البطلمية تحتم على من يرغب فى تولى الوظيفة الاضطلاع بها تمثلت فى حالة منخيس قيامه بزراعة عشر أرورات من الأرض القفر Ge en hopologow المجاورة لكركيوسيرس وأن يدفع عنها ايجارا Ekphorion مرتفعا قدرة خمسة أرادب عن كل أروره(٤٦) ويتضح من وثائق أخرى أن حورس الكاتب الملكى وماريس كاتب المركز قاما باستزراع أراضى فى نطاق قرية كركيوسيريس، وإن كانت مساحتها أقل من المساحة التى استزرعها منخيس فمن غير المستبعد انهم استصلحوا أراض فى قرى أخرى، ومن الممكن أن ذلك كان مقابل توليهما منصبيهما أو اعاده تعيينهما(٤٧).

ونستدل من قرار العفو الخاص ببطلميوس الثامن يورجيتيس الثانى الصادر فى عام ١١٨ق.م.، الذى قضى باعفاء القواد من الديون التى تحملوها قبل الدولة بسبب توليهم مناصبهم، أن القواد كانوا يدفعون نظير توليهم مناصبهم، وإنه كان هناك اعتراف رسمى بذلك(٤٨).

ويطرح السؤال نفسه، هل كان عمدة القرية يتقاضى راتبا أم لا؟ ورغم صمت الوثائق التام عن البوح بالأجابة، فإنه يتضح من وثائق العصر البطلمى أن البطالمة استخدموا وسيلتين لدفع رواتب جنودهم ورجال الشرطة وجيش الموظفين، أولهما تقديم راتبا نقديا Opswnion كانت تقدمه الخزائن المالية الملكية Basilikai Trapezai، مثل رجال الشرطة حتى عهد بطلميوس الرابع(٤٩). وثانيهما تقديم قطعة أرض يكون دخلها بمثابة راتبا له، ومن ثم فإن جانبا من أرض الهبات Ge en dwreai عرفت باسم الأرض التى كانت تمنح لأصحاب الوظائف وكان دخلها راتبا عينيا لهم Ge en Syntaxei(٥٠). وفيما يتعلق بعمدة القرية فإن نصحى يرى إنه كان موظفا مأجورا يتقاضى راتبا، وحجته فى ذلك أنه لم يكن من دواعى أداء العمل على الوجه الأكمل وبنزاهة أن يسند إلى موظفين غير مأجورين كل تلك الاختصاصات الواسعة التى كانت تمس أخطر شئون الدولة فى نظر البطالمة وهى مواردهم(٥١) وقد استخلصنا من وثيقة سلفت الاشارة إليها أنه كان لوظيفة عمدة القرية شروط منها تقديم عدد معين من أرادب الغلال، على ما يبدو، إنها كانت الإيجار المفروض على الأرض التى استزرعها عمدة القرية ليكون بمثابة راتبا له(٥٢)، شأنه فى ذلك شأن كاتب القرية الذى فرض عليه تقديم عدة أرادب من الغلال كإيجار لأرض استزرعها وكان دخلها بمثابة راتبا له(٥٣). ومما سلف من آراء يتضح أن عمدة القرية ـ كان موظفا مأجورا حتى مع غياب الدليل الوثائقى(٥٤).

وفيما يتعلق بجنسية عمد القرى، يرى أحد الباحثين إنهم كانوا يختارون بصفة عامة من بين المصريين(٥٥). وقد أحصى الباحث نفسه عمد القرى من خلال وثائق القرن الثالث ق.م. ، فبلغ عدد المصريين منهم ثلاثة وعشرين، على حين لم يوجد بينهم اغريقا أو متأغرقين، أما فى القرن الثانى ق.م. بلغ عدد المصريين بينهم تسعة عشر مُقابل أثنا عشرة أغريق، وثلاثة متأغرقين(٥٦) ويتضح من Prospographia Ptolemaica أن وظائف معينة مثل عمد القرى كانت فى الغالب مقصورة على المصريين(٥٧) ويبدو أن علة ذلك أن تلك الوظائف كانت تعود إلى العصر الفرعونى، وأن الاغريق لم يعبأوا بأن يتولوا الوظائف الدنيا فى القرى المصرية. مادام كان بإمكانهم تولى وظائف هامة أخرى. وتزودنا ملاحق Prospographia Ptolemaica Addenda بسبعة من حملة ألقاب عمدة القرية، واحد منهم فقط كان يحمل اسما اغريقيا(٥٨) ولم يستبعد بريمانز أن يكون بعضا من الأجانب تولى وظيفة عمدة القرية أو كاتبها، بيد أنه افترض أن غالبية وظائف القرى كان من نصيب المصريين(٥٩). وأن تبينا تنامى العنصر الأغريقى فى وظائف القرى فى القرنين الثانى والأول ق.م.، فإن مرد ذلك هو التدهور الاقتصادى الذى أصاب اقتصاد مصر وأدى إلى ندرة فرص العمل والكسب أمام الأجانب خصوصا فى الوظائف العليا وصارت الوظائف الصغيرة تدر دخلا لابأس به، لم يجد نفر من الأجانب بدا من مزاحمة المصريين الوظائف الصغرى، ومن غير المستبعد أن أصحاب الأسماء الأغريقية بين الموظفين كانت لأشخاص متأغرقين، ذلك أن عمد القرى كانوا على صلة يومية بالمواطنين المصريين فى القرى مما كان يحتم عليه معرفة لغتهم وطبائعهم، فمن المعقول أن يتولى الوظائف ذات الأحتكاك بالمصريين بعضا من المصريين. وتؤيد هذا الرأى إحدى الدراسات التى قام بها أحد الباحثين وخلص فيها إلى أن بعض الوظائف

مثل الأويكونوموس ومديرى المصارف المالية كان الاغريق يشكلون غالبيتها وأن الأسماء غير الاغريقية كانت تتركز بصفة عامة فى طبقة موظفى القرية وفى بعض وظائف المراكز والمديريات(٦٠).

وفيما يتعلق باللغة والكتابة التى كان يستخدمها عمد القرى، فعلى حين تسود فكرة أن الالمام باللغة الاغريقية، لغة الادارة العليا، كان شرطا أساسيا لمن يتولون حتى أدنى المناصب الحكومية، فإننا لانستبعد أن الحصول على قسط وافر من التعليم الاغريقى كان مؤهلا لتولى أرفع المناصب. وفى الواقع أن اللغة والكتابة المستخدمين فى الادارة البطلمية شكلتا مشكلة عويصة. فمن المعروف أن اللغة المصرية والكتابة الديموتيقية كانت اللغة والكتابة والشعبية والرسمية فى مصر قبل الفتح المقدونى، بيد أنه منذ مطلع الحكم البطلمى صارت اللغة والكتابة الاغريقية لغة وكتابة الادارة الرسمية فى مصر إلا أن ذلك لم يؤد إلى التخلى عن اللغة المصرية وكتابتها الديموتيقية، ذلك أن جمهور المصريين ظل على حاله فلم يغير لسانه ولاقلمه، أى أنه صار هناك ازدواجا فى اللغة والكتابة فى مصر البطلمية(٦١).

ويرى أحد الباحثين إنه بصفة عامة أن فكرة الزام الموظفين بمعرفة اللغتين والكتابتين لم تكن معروفة وأن اللغة والكتابة الاغريقية لم تفرض كلغة رسمية وحيدة، إنما انتشرت بشكل تلقائى بين المصريين، وأن القانون البطلمى اعترف بالعقود والمكاتبات الديموتيقية، وأن بعض المنشورات والوثائق كان يصدر منها نسخا ديموتيقية(٦٢). بيد أنه لأجل تنفيذ المهام الرسمية والادارية بسهولة ويسر بين السلطة الادارية. من جهة وسواد الشعب المصرى من جهة أخرى أقتضى الموظفين استعمال اللغة الاغريقية ، وإن لم يؤد ذلك إلى الاستغناء عن اللغة المصرية فى المعاملات الرسمية أيضا(٦٣).

وبخصوص عمد القرى فإن الوثائق لاتسعفنا فى توضيح الصورة العامة للغة والكتابة التى كانوا يستعملونها. إلا أنه على ضوء ما تقدم من أن غالبية عمد القرى كانوا من المصريين، فإن المصريين منهم بطبيعة الحال كانوا على دراية باللغة المصرية والكتابة الديموتيقية. ويتضح من إحدى الوثائق إن باسيس بن حورس عمدة القرية كان يتحدث اللغة الإغريقية ولايستطيع كتابتها(٦٤). ويمكن إرجاع ذلك إلى احتمالين أولهما إما أنه كان أميا لايعرف من اللغة الأغريقية سوى التحدث بها، وثانيهما أنه صعب عليه كتابة الاغريقية غير المألوفة للمصريين وإن لم يحل هذا دون التحدث بها(٦٥) ورغم ذلك يبدو أن مجرد التحدث باللغة الاغريقية كان مسوغا للتعيين فى الوظيفة. وبناء على ما سيلى بيانه من وثائق اغريقية صادرة عن عمد القرى وواردة إليهم، وعلى ضرورة اتصالهم برؤسائهم من موظفى الادارة الاغريق، فإن ذلك اقتضى أن يكون عددا ليس بالقليل من عمد القرى، أو على الأقل عمد القرى الكبيرة كانوا على معرفة بقراءة وكتابة اللغة الاغريقية إلى جانب إلمامهم بالطبع باللغة المصرية والكتابة الديموتيقية.

ويتبادر إلى الذهن سؤال هام: هل كل كان عمدة القرية موظفا حكوميا أم أهليا؟ وتقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن نأتى على آراء الباحثين فى هذا الصدد، ويرى أحد الباحثين أن عمدة القرية كان رئيس شيوخ القرية (= شيوخ المزارعين Presbuteroi Twn gewrgwn(٦٦). ويؤيد هذا الرأى آخرون رأوا أن عمدة القرية لم يكن سوى رئيس شيوخ القرية، أى إنه لم يكن موظفا حكوميا بل موظفا أهليا، وإنه كان لايتقاضى عن عمله أجرا، كما كانت الحال فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد(٦٧). ويعارض هذا الرأى نفر من الباحثين، يرى أولهم إنه رغم مجيء ذكر عمدة القرية مرتبطا بشيوخ المزارعين وأن سلطته كانت متصلة بحيثيتهم فإن العمدة كان موظفا حكوميا،

على حين كان شيوخ المزارعين وكلاء محليين، وإن كان تأثيرهم على العمدة وتأثرهم به كان واضحا نظرا لارتباطهم معا(٦٨) ويذكر نصحـي أنـه لايوجد ما يؤيد الرأى القائل بأن عمدة القرية كان موظفا أهليا غير مـأجور، ولاسيما أن هذا الرأى يستند إلى وثائق من القرنين الثالث والرابع بعـد الميـلاد، ونحن نعرف أنه قد أدخلت تعديلات على ادارة القرى فى أواخـر القـرن الثـالث بعد الميلاد، وفضلا عن ذلـك فإنـه لـم يكـن مـن دواعـى أداء العمـل علـى الوجـه الأكمل وبنزاهة أن يسند إلى موظفين غير مأجورين كـل تلـك الاختصاصـات الواسـعة التـى كـانت تمـس أخطـر شئون الدولـة فـى نظـر البطالمـة وهـى مواردهم، وكانت دون جدال تستنفد الجانب الأكبر من وقـت ونشـاط القـائمين عليها، ولذلك يبدو من الاسراف فى الرأى اعتبار عمدة القرية على الأقل فـى القرن الثالث ق.م. موظفا أهليـا غـير مـأجور، بـل لعلـه كـان موظفـا حكوميـا مأجورا مثل عمدة المركز Toparches(٦٩) وقد اعتاد كبار الموظفين مخاطبـة صغار الموظفين فى الأمور التى تتعلق بشأن من الشئون الحكومية المختلفة، وفى هذا الصـدد وردت الاشـارة إلـى عمـدة القريـة بيـن أولئـك الذيـن أبلغهـم كلياندروس وزير مالية بطلميوس الثامن بتعييـن ثيـودوروس مهندسـا لصيانـة الجسور والسدود والانشاءات الأخرى فى المدينة(٧٠).

كذلك نستدل من بعض الوثائق أن كتاب المراكز وكتاب القرى وعمدها كانوا يتعاونون فى الأضطلاع بالأعمال الحكومية(٧١). كذلـك ورد فـى وثيقـة الدخل إنه كان يحتم علـى ملـتزمى الحبـوب الزيتيـة تقديـم إيصـال إلـى عمـدة القرية بالكميات التى اشتروها مـن كـل زراع، وبـدون هـذا الايصـال لـم يكـن يسمح لهم العمدة بنقل المحصول من القرية، وإلا خضع العمدة لعقوبة الغرامة

وتعويض الملتزم(٧٢) وعلى ضوء المهام الرسمية الواسعة التى ألقيت على عاتق عمد القرى وانشغالهم بأمور من صميم عمل الموظفين الحكوميين، ألا يوحى ذلك بأن من قام بهذه الأعمال الرسمية كان موظفا حكوميا!.

وبخصوص مجال نفوذ عمدة القرية، كما يبدو من الترجمة الحرفية للقب عمدة القرية Kwmarches أن القرية كانت مجال عمله. بيد أننا نتبين من قوائم Pros. Ptol إنه كان هناك عمدة قرى فى ديوسبوليس ماجنا وأومبوس وهيرمونثيس وكروكوديلوبوليس (فى مصر العليا) وسوينى وأكوريس وهيرموبوليس وإن كانت هذه الأماكن السابقة عواصم مديريات أو مراكز، فإنها كانت تحوى جهاز اداريا قرويا، مما كان يدخلها من جهة فى عداد القرى، ويعلق داك على ذلك بأن موظفى القرى فى هذه الحالة كانوا يمارسون نشاطهم على نطاق أوسع من القرية(٧٣). وفى مصر الوسطى أيضا معروف أن فيلادلفيا كانت عاصمة لقسم وعاصمة لنومارخية وعاصمة أحد المراكز(٧٤)، وكانت قرية فى الوقت ذاته لها كاتب قرية ومشهور هو أنوسيس(٧٥). ونخلص مما سبق إلى أن وجود الجهاز الأدارى القروى ومنهم بالطبع عمد القرى لم يكن وجوده حكرا على القرى وحدها، إنما كان لهم وجود فى مدن وعواصم أقسام ونومارخيات ومراكز أيضا، ولاشك أن مجال عملهم فى هذه المدن كان مرتبطا بجمهور المزارعين المقيمين بها وعلى النطاق الزراعى للمدينة. ونتبين من بعض الوثائق أيضا أن سلطة الحاكم الادارى Epistates كانت تمتد لتشمل أكثر من قرية(٧٦)، وإن كاتب القرية كان يتولى عمله فى أكثر من قرية أيضا(٧٧). ورغم غياب الدليل الوثائقى على أن سلطة عمدة القرية كانت تتسع لتشمل أكثر من قرية قياسا بموظفى القرية الآخرين مثل الأبيستاتيس وكاتب القرية، فإننا لانستبعد حدوث ذلك قياسا بموظفى القرية الآخرين، واللافت للنظر أنه ورد فى إحدى الوثائق،

التى تناولت شكوى من سرقة Kwmarches Tes Saturou Lauros أى "عمدة شارع (حى) ساتوروس"(٧٨). وعلى ضوئها يرى داك إنه من الجائز أن أحياء المدن كان يتولى حكمها عمد قرى(٧٩)، وتزيد على رأى الباحث السابق احتمال أن هذا الحى الذى كان يتولى إدارته عمدة قرية كان حيا ريفيا ملحقا بالمدينة، أو يقع على أطرافها ويسكنه مزارعون، ومن الجائز أيضا إنه كان ضاحية ريفية تقع فى النطاق الزراعى للمدينة، وإن لم يكن مستبعد أن المقصود هو شيخ الحى، الذى يبدو أنه حمل أيضا لقب Kwmarches.

وفيما يتعلق بالقرى التى كانت أرضها ممنوحة Ge en dwria فإن وضعها كان مختلفا عن قرى الأراضى الملكية Ge Basilike التى كانت تخضع للاشراف الحكومى المباشر، ذلك أنه كان يتم إلغاء بعض اختصاصات الجهاز الادارى، خصوصا المدنى منه. وعلى سبيل المثال فيلادلفيا التى كان لأبولونيوس ضيعة كبيرة فيها، وضيعة صغيرة بجوارها، ومن ثم وقعت فيلادلفيا نفسها تحت هيمنة وكلاء أبولونيوس فى ضيعته، فيذكر نصحى أنه إلى جانب المهام التى كان زينون يؤديها بوصفه المدير العام لضيعتى أبولونيوس ألقيت على عاتقه فى فيلادلفيا واجبات كثيرة كانت فى جهات أخرى من اختصاصات الحكم الإدارى Epistates وعمدة القرية Kwmarches(٨٠) . بيد أنه لايتبين من الوثائق أن زينون كان يشغل أى منصب من هذين المنصبين أو يحمل أى لقب آخر عدا وكيل أشغال أوبولونيوس(٨١) ho Para Apolloniou. ومن ثم على الرغم من العدد الضخم لأوراق زينون البردية، فإننا لم نعثر على أية إشارة إلى وجود عمدة قرية لفيلادلفيا فى القرن الثالث ق.م.، وقد ظل الوضع على ما هو عليه طيلة حياة أبولونيوس، إلا أنه عندما صودرت أملاكه قبل العام الخامس من عهد بطلميوس الثالث(٨٢)، وعادت أملاكه وأراضيه ملكية مرة أخرى(٨٣)، عادة

الادارة الملكية إلى فيلادلفيا، وصار لها جهاز اداري شأن القرى الداخلة في نطاق الأرض الملكية.وقد ورد فيإحدى الوثائق التى يعود تاريخها إلى القرن الثانى ق.م(٨٤) Alexandros Kai Ammwnios Kwmarchei Philadelpheias، ويتبين من هذه الوثيقة أن فيلادلفيا قد صار لها عمدة في القرن الثانى ق.م.، إن لم يكن عقب مصادرة ضيعتى أبولونيوس مباشرة وعودة الجهاز الادارى الحكومى مرة أخرى.

ومن الأمور الجديرة بالدراسة، تحديد العلاقة بين عمدة القرية وكبار الموظفين من جهة، وبينه وبين موظفى القرية من جهة أخرى، ونتبين من الوثائق أن علاقات عمدة القرية مع كبار الموظفين قد اقتصرت على موظفى المديرية، اللهم إلا من وثيقة واحدة تضمنت خطابا - نشرة دورية - من أحد وزراء مالية بطلميوس الثامن، ورد بها ذكر عمد القرى(٨٥). وقد تناولت علاقة عمد القرى بالأويكونوموس Oikonomos وثيقتان، أولاهما الوثيقة الهامة التى حملت تعليمات وزير المالية إلى الأويكونوموس التى ورد بها "فى أثناء جولاتك التفتيشيه وتنقلك من مكان إلى آخر، حاول رفع الروح المعنوية لكل فرد واهتم بأمره بنفسك، ولاتفعل ذلك بالكلام فقط، ولكن إذا ما اشتكى أيا منهم من كتاب القرى أو عمدها بخصوص أى شأن يتعلق بالزراعة، يجب أن تجرى تحقيقا، وتتخذ إجراءات حيال مثل هذه الأمور"(٨٦). والوثيقة الثانية يعود تاريخها إلى عام ٢٣٥ق.م. وتمثل شكوى بعض المزارعين إلى الأويكونوموس من أن عمدة القرية قد اعتقلهم وأن وقت العمل قد أزف، ويلتمسون منه إطلاق سراحهم حتى لاتصبح الأرض الزراعية في القرية بورا. ويستحلفونه بشرف الملك أن يعمل على إطلاق سراحهم(٨٧). ويتبدى من هاتين الوثيقتين اهتمام الأويكونوموس بجمهور المزارعين وشئون الزراعة فى هذه الفترة المبكرة من الحكم البطلمى، ولاشك أن ذلك كان يجره

إلى تعامل مباشر مع المزارعين ومشاكلهم وعمد القرى، ونحن هنا بصدد وثيقتين يظهر منهما الأويكونوموس نصيرا للمزارعين من جور عمد القرى ولعل اتجاه المزارعون بشكاواهم إلى الأويكونوموس يجرنا إلى القول بأنه كان له سلطة على عمد القرى.

أما عن علاقة عمدة القرية برئيسيه النومارخ والتوبارخ، فإن لكلارك يرى أن إدارة دومين الملك كانت تقع بدرجة ما على النومارخاى، وإنه كان يندرج تحت إمرتهم فى إدارة الدومين عمد المراكز وعمد القرى، الذين كانوا مسئولين عن تسلم وتسليم الايرادات النوعية وتسليمها إلى مديرى المخازن الملكية Sitologoi(٨٨) ويرى ماسبيرو أن الإدارة والسلطة كانت فى أيدى النومارخاى ومرؤسيهم، عمد المراكز وعمد القرى، بينما كان يتولى الرقابة عليهم جهاز يتكون من الكاتب الملكى وكاتب المركز وكاتب القرية(٨٩). والوثائق المتعلقة بالنومارخاى والتوبارخاى وعمد القرى كثيرة ومتنوعة، خصوصا النشرات الدورية التى نتبين منها التدرج من النومارخ للتوبارخ ثم عمدة القرية(٩٠). ويتضح ما جاء فى إحدى الوثائق أن النومارخ كان الرئيس الأعلى للتوبارخ وعمدة القرية(٩١). ورد(٩٢) فى إحدى الوثائق Nomarchais Kai Tois Toparchois kai Tois Kwmarchais وكذلك يتبدى من اللقب الوظيفى أن مجال عمل النومارخ كانت المديرية وأن المركز كان مجال عمل التوبارخ ومجال الكومارخ (عمدة القرية) هو القرية ، أصغر الوحدات الإدارية، ومن ثم فإنه بطبيعة الحال كان عمدة القرية يقبع فى قاع السلم الوظيفى الإدارى المدنى.

وجاء فى إحدى الوثائق ما يفيد اتصال عمدة القرية بالقائد إذ ورد بها "إلى بطلميوس بن بيرهوس القائد وأحد الأصدقاء الأول، من هاربيخيس بن حورس عمدة قرية أوكسيرونخا وهارسيسيس بن باسيس و.... شيوخ

المزارعين، ومن باقى سكان القرية، نتيجة لـ ... من لدن بعض الناس وبعض الأحداث المماثلة الأخرى، أرسلك الملك والملكة إلى المديرية فى شهر هاتور من عام ... لأجل وضع نهاية الأحداث. وفقا للتعليمات التى زوداك بها، يجب عليك زيارة كل المناطق وتقديم المساعدة للمظلومين، وتعيين ابيستاتاى جديرين بالمنصب، وفى موسم الحصاد ليهتموا بأن لا أحد ..... وألا يمارس الابتزاز....، أرسل أوامر إلى الأبيستاتاى لأجل ألايسمحوا لأحد بابتزاز المزارعين الملكيين"(٩٣) ويتضح من هذه الوثيقة وقوع أحداث مؤسفة واضطرابات فى نطاق مديرية أرسينوى قام الملك على أثرها بتعيين قائدا جديدا وذوده بتعليمات من شأنها وضع الأمور فى نصابها، بيد أنه يبدو أنه تقاعس فى واجبه تجاه قرية أوكسيرونخا التى يبدو أنها تعرضت لعدوان من لدن زمرة خارجه على القانون خصوصا وأن موسم الحصاد، الذى تكثر فيه السرقات، قد حل، وبناء على ذلك أرسل عمدة أوكسيرونخا وسكانها برسالتهم إلى القائد يناشدونه تنفيذ تعليمات الملك والملكة التى زوداه بها، خصوصا فيما يتعلق بتعيين أبيستاتيس مناسب، وعدم السماح بابتزاز المزارعين.

ولما كان المشرف على الدخل O epi Twn Prosodwn فى القرن الثانى ق.م. يعد من كبار المسئولين عن الادارة المالية فى المديرية، فلا غرو أن يرسل إليه عمدة قرية أوكسيرونخا أيضا المدعو بتيوسوخوس بن بيتوس ومزارعو القرية الملكيين التماسا يطلبون فيه أن يسمح بقبول ٢٠٠ أردب من مجمل الكمية الواجبة عليهم من البوص الإغريقى Kalamou Hellenikou ويشتكون من أن أمين المخزن لم يصدع بأمر سابق بهذا الخصوص من المشرف على الدخل(٩٤) ويتضح من هذه الوثيقة مسئولية عمدة القرية التضامنية مع المزارعين فى سداد المدفوعات النوعية، وأنه كان بالامكان تقديم هذه المدفوعات على أقساط شريطة موافقة المشرف على الدخل.

أما فيما يختص بعلاقة عمدة القرية بفعاليات القرية من موظفين وشيوخ مزارعين، فإن كثيرا من الوثائق تلقى ضوءا على هذه العلاقة. ويتبين من إحدى الوثائق إن عمدة القرية ومزارعى الأرض الملكية قدموا شكوى إلى رئيس شرطة archephylakites القرية نفسها يشتكون من أن ماريس كاتب المركز دأب على الاغارة على منازلهم فى غيابهم تصحبه زمرة مسلحة ويقومون بالسلب والنهب وإنه لم يرقب فيهم الحماية والعهد الذى حصلوا عليه من القائد، وترتب على ذلك هروب كثير منهم إلى القرى المجاورة مما أدى إلى التأخر فى دفع الإيجارات ويطالبون رئيس شرطة القرية بالتصدى لماريس وزمرته، وأن يعيد ما ابتزوه وينال العقاب المناسب، حتى لاتتعرض صوالح الملك لأى أذى(٩٥). ويتضح من هذه الوثيقة، إنه لما كان رئيس الشرطة بطبيعة الحال هو المسئول عن الأمن فى القرية، ولكن يبدو أنه قد تقاعس عن أداء واجبه فى حماية سكان القرية من بطش كاتب المركز وزمرته، وبناء على ذلك أرسل إليه عمدة القرية ومواطنوها هذه الرسالة لتذكره بمهامه. واللافت للنظر فى هذه الوثيقة قيام موظفين حكوميين بالسلب والنهب، وأن أمثال هؤلاء الموظفين كانوا لايراعون الحماية أو العهود التى حصل عليها أهل القرية من أحد كبار الموظفين، القائد هنا، وأخيرا يبدو أن هدف عمدة القرية والمواطنيين من ابلاغ رئيس شرطة القرية كان التنصل من مسئولية التأخير فى جمع المدفوعات النوعية.

ويعتبر تحديد العلاقة بين عمدة القرية وكاتبها من الأمور الشائكة نظرا لتداخل مهام واختصاصات الأثنين ويجب التفرقة هنا بين فترتين، الأولى تمثل القرن الثالث ق.م. والثانية تشمل القرنين الثانى والأول ق.م. وبناء على ما ورد فى وثائق القرن الثالث ق.م. يرى أحد الباحثين أن مهمة كاتب القرية فى القرن الثالث ق.م. كانت مساعدة عمدتها، ولايبعد أنه كان يراقب عمله، إذ أن

الادارة الحكومية البطلمية كانت منظمة بأجمعها بحيث تتكاتف عناصرها سويا ويراقب بعضها بعضا، وأن أدى ذلك إلى تعقد العمل وتكراره(٩٦) ويرى أحد الباحثين أن منزلة عمدة القرية كانت أسمى من منزلة كاتبها فى القرن الثالث ق.م.(٩٧) وقد أسس رأيه هذا على القاعدة التى أرساها ناشرو برديات تبتونيس القائلة بأن صاحب الاسم الذى يرد سابقا على غيره فى المراسلات الرسمية بصفة خاصة كان يمثل اسم الشخص الأعلى منزلة، بدليل أنه لم يجروء أحد الموظفين على وضع اسمه قبل اسم وزير المالية فى أية مراسلة(٩٨) ويؤيد ذلك وثيقتان تاريخهما القرن الثالث ق.م. كانتا عبارة عن مراسلتين من وزير المالية أو أحد كبار موظفى المديرية إلى رجال الإدارة المحلية، ورد بهما ذكر عمدة القرية قبل كاتبها(٩٩). ويبدو أن مقام الصدارة الذى تبوأه عمدة القرية فى القرن الثالث ق.م. خوله دون غيره من موظفى القرية تلقى شكاوى من مظلومى أهل قريته(١٠٠) يضاف إلى ماسبق أن عمدة القرية كان المسئول الحكومى الوحيد فى القرية عن الاشراف على نقل الحبوب الزيتية المتحكرة واصدار الترخيص بذلك(١٠١). إلا أن رياح التغيير التى هبت على نظام الادارة البطلمية عند نهاية القرن الثالث ق.م. كان من شأنها أن صارت صوالح الملك المالية بالغة الأهمية، وأدى ذلك إلى علو شأن موظفى الإدارة المالية، الذين ينتمى إليهم كاتب القرية، على حساب موظفى الادارة المدنية ومنهم عمدة القرية. وطبيعى أن يترتب على ذلك أن بز مركز كاتب القرية مقام عمدتها. وعلق باحث على ذلك قائلا أن مركز كاتب القرية قد ارتفع إلى الصف الأول فى القرن الثانى ق.م.(١٠٢) ويرى ثان أن ذلك كان على حساب عمدة القرية الذى هبط إلى المركز الثانى(١٠٣). وأدلى ثالث بدلوه قائلا أن تدهور مركز عمدة القرية فى القرن الثانى ق.م. لايدل على تغيير فى الاحتصاصات بل كان تطورا طبيعيا لأن المهمة الأولى لكاتب

القرية كانت تحرير التقارير، التى يبدو أنه بدأ بتحريرها باسم عمدة القرية ومتابعته فى كل خطواته ثم انتهى به الأمر إلى توجيهها وأصبح العمدة مرؤسا لكاتب القرية لأنه أصبح ينفذ البرنامج الذى كان يضعه كاتب القرية(١٠٤)، الذى عندما زادت أهميته واتسعت مهامه فصار معنيا بشئون الزراعة ودخل الأرض وكل ما يخص موارد الملك، وعلى صعيد موظفى القرية أصبح كاتب القرية ينسق نشاطهم من خلال قيامه بتحرير الأوامر الادارية التى كانت توجه أعمال موظفى القرية الآخرين ومنهم العمدة(١٠٥). بيد أن الباحث نفسه يرى أنه لم يكن هناك حدا فاصلا بين مهام واختصاصات الموظفين المختلفين حيث كانت تتداخل، ذلك أن الهدف النهائى وأكبر مهام موظفى القرية هو ضمان وصول موارد الملك Prosodoi tou Basilikou. إلى ملتزمى الضرائب أو المخازن والخزائن الملكية(١٠٦). ويدل على مقام كاتب القرية منذ القرن الثانى ق.م. أنه تبوأ مقام عمدة القرية الاشراف على الأرض الملكية(١٠٧). كذلك صار ذكر كاتب القرية فى المراسلات الرسمية يرد سابقا على اسم العمدة(١٠٨)، كذلك صار لكاتب القرية دورا بارزا فى تلقى شكاوى أهل قريته المظلومين(١٠٩).

ويبدو أن كل اجراءات القرن الثانى ق.م. لم تؤد إلى إقصاء عمدة القرية عن مجال الأهمية والمسئولية بالقرية ذلك أنه ظل يتلقى شكاوى أهل قريته(١١٠) وأن اسمه كان يرد أحيانا فى المراسلات الرسمية قبل اسم كاتب القرية(١١١)، وإن كان كاتب القرية على رأس فعاليات القرية المستقبلين لأحد كبار الزوار، نجد العمدة فى طليعة المستقبلين(١١٢)، كذلك إن انتقلت مهام الاشراف على نقل محاصيل ـية ومراقبة الاحتكارات إلى كاتب القرية فى القرن الثانى ق.م.(١١٣)، بصفته مندوبا لوزارة المالية فى القرية فإن عمدة القرية ظل يشرف على تسلم حقوق التاج العينية فى قريته حتى نهاية العصر

البطلمى، كما سيلى بيانه تفصيلا. وأخيرا يبدو أن تداخل الاختصاصات بين عمدة القرية وكاتبها كان من جراء عدم تحديد المسئوليات وأنه بحلول القرن الثانى ق.م. تقاسم الموظفان مقام الصدارة والمسئولية فى القرية ولم تعد السلطة مطلقة لأيا منهما(١١٤).

وبخصوص شيوخ المزارعين Presbuteroi Twn gewrgwn (= شيوخ القرية Presbutiroi Tes Kwmes فإن لقبهم اقترن كثيرا من الوثائق بلقب عمدة القرية، وقد اشتركوا معا فى مهام عديدة تخص القرية، وقد شجع ذلك بعض الباحثين على القول بأن عمدة القرية لم يكن سوى رئيس شيوخ المزارعين(١١٥)، وإن كنا قد فندنا هذا الرأى من قبل، فإننا نعتقد فى وجاهة رأى آخر مفاده أن شيوخ المزارعين (ممثلى الأهالى) وعمدة القرية (ممثل الحكومة) كونوا معا نوعا من المجلس القروى قام بتمثيل القرية فى كل الأمور المتعلقة بالتاج، خصوصا فى مجال الزراعة والإيرادات النوعية، وكان عمدة القرية رئيسا لهذا المجلس(١١٦). ويرى البعض أن وظيفة عمدة القرية كانت متصلة تقليديا بمجموعة من شيوخ المزارعين الذين يمكن اعتبارهم معا كيانا واحدا، سواء أكان شيوخ المزارعين مجرد مستشارين للعمدة أو ممثلين للمزارعين لدى عمدة القرية، بيد أنه من الجلى أن مهام القرية كان يتم انجازها على خير وجه بالتعاون مع الشيوخ(١١٧). وقد قطع أحد الباحثين، بعد دراسة عمقية لوضع شيوخ المزارعين، برأى مفاده أن سلطة عمدة القرية كانت تتأثر بنفوذ شيوخ المزارعين، وأن عمدة القرية كان موظفا ملكيا على حين كان شيوخ المزراعين وكلاء محليين للمزارعين ولكنهم كانوا يتبادلون التأثير(١١٨). وقد تعددت الوثائق التى نتبين منها صلة عمدة القرية بشيوخ المزارعين، فنراهم معا يسهرون على زراعة أرض القرية، ويراقبون السدود وضفاف قنوات الرى فى القرية(١١٩). ويلزمون

المزارعين بدفع مستحقاتهم(١٢٠)، ويتعاونون مع عمدة القرية فى جمع المؤن اللازمة للزيارة الملكية(١٢١). ويسلمون معا التبن المفروض على قريتهم(١٢٢) ويتسلمون مع العمدة مستحقات الحكومة النوعية، تلك التى اضطلع شيوخ المزارعين وعمد القرى وكتابها بمسئولية تضامنية لسدادها خصوصا فى أواخر عصر البطالمة(١٢٣). يضاف إلى ذلك أن شيوخ المزاعين كانوا أعضاء فى الوفد الذى ضم عمدة القرية وكتابها وقام باستقبال أحد كبار زوار القرية(١٢٤).

ورغم تنوع أنواع ومسميات الحراس والشرطة فى القرى، مثل حراس الجسور والسدود وحراس الصحراء والشرطة وغيرهم، بيد أن فئة واحدة من الحراس ورد ذكرهم مرتبطا بعلاقات مباشرة مع عمدة القرية وهم حراس المحاصيل Genematophylakes الذين يبدو أنهم مارسوا رقابة مزدوجة على المكلفين بتقديم الموضوعات النوعية من جهة، وعلى الموظفين المسئولين عن تسلم الايرادات الملكية النوعية من جهة أخرى(١٢٥). ونتبين من وثائق عديدة ارتباط اسمهم بمهام اضطلع بها عمدة القرية ، فقد ورد فى إحدى الوثائق شكوى(١٢٦) من مزارع ملكى إلى Kwmomithwtes(١٢٧) من إنه قدم كل انتاجه بعد الحصاد إلى المخزن الملكى من أجل تقديم الايجار ولكن عمدة القرية وكاتبها وأحد حراس المحاصيل Genematophylax استولوا على أكثر مما هو مستحق عليه وأجبروه على التنازل عن حقوقه. وفى هذا المقام نجد حارس المحاصيل يشارك عمدة القرية ـ وكاتبها الاستيلاء قسرا على محصول أحد المزارعين. وتتضمن وثيقة(١٢٨) ثانية رسالة من أحد كبار الموظفين إلى حراس المحاصيل والمزارعين فى قرية أوكسيرونخا، يلفت نظرهم إلى تقصير وقع من لدن عمدة القرية بخصوص سداد مستحقات وقعت عليه، ويرى ناشروا هذه البردية ـ أن مخاطبة حراس المحاصيل فى الوثيقة

كان لأجل وضع أى انتاج قد يمتلكه عمدة القرية تحت حراستهم سداد لما عليه(١٢٩). وورد فى إحدى الوثائق إقرارا من عمدة القرية ـ وحراس المحاصيل بأنهم تسلموا قائمة بمساحة الأرض ولائحة الزراعة(١٣٠) Kata Phullon Geometrian Kai To Kat' andra من كاتب القرية، ويبدو أنه كان يجب على كاتب القرية تسليم صورة من الحصر المساحى ولائحة الزرعة إلى عمدة القرية وحراس المحاصيل بالقرية، ذلك أنهم كانوا يقومون بدور هام فى رقابة الزراعة والمزارعين، وإنهم كانوا أعضاء فى لجنة تسلم مستحقات الملك فى الجرن الملكى، كما سيلى تفصيله، وتمثل وثيقة تقريرا يتعلق بالسمسم غير المغربل ورد بها عمدة القرية وكاتبها وحراس المحاصيل(١٣١)، الذين يبدو أنهم كانوا أعضاء فى لجنة تسلم محصول السمسم (المتحكر) من الجرن الملكى. ومن الوثائق السابقة يتضح أن حراس المحاصيل كانوا يعاونون عمد القرى فى الاشراف على الزراعة والمزروعات وتسلم مستحقات الحكومة النوعية، إلا أنهم كانوا فى الوقت نفسه بتكليف من كبار الموظفين رقباء على موظفى القرية الذين كانوا يرتكبون مخالفات، عمدة القرية هنا، الذى حاول استغلال منصبه فى عدم سداد بعض المدفوعات الواجبة عليه(١٣٢) بيد أن نزاهة حراس المحاصيل وتفانيهم فى خدمة الحكومة البطلمية لم تكن مطلقة، ذلك أن حراس المحاصيل ساعدوا اثنين من مستأجرى إقطاع على اقتطاع جزء من المحصول دون علم صاحب الاقطاع(١٣٣). كما أنهم تواطئوا مع عمدة القرية وكاتبها لأجل اقتطاع ايجار زائد(١٣٤).

وفيما يتعلق بالمهام المتنوعة التى كان يمارسها عمدة القرية، فإنها كانت متعددة كما يتضح من الوثائق، بيد أنه يجب أن نضع فى الاعتبار إنها اقتصرت على الزراعة وجمهور المزارعين، ويتضح من الوثائق أن عمدة

القرية لم يكن يتولى الاشراف على الأرض الملكية Basilike ge فحسب، بل أن سلطاته طالت ماعداها من أنواع الأراضى الأخرى، إذ تتضمن إحدى الوثائق تقريرا يتعلق بتوزيع بذور القرطم لزراعة الأرض الملكية وأرض الاقطاع العسكرى Klerovche ge سواء تلك التى قام بزراعتها أصحابها أو دفعوا بها إلى مزارعين، وقد ورد فى هذه الوثيقة ذكر عدة نومارخاى وعمد قرى، يبدو أنهم كانوا مسئولين عن تقسيم البذور بين المزارعين داخل القرى سواء للأرض الملكية أو من الاقطاع العسكرى(١٣٥). وجاء فى إحدى الوثائق شكوى من العبيد المقدسين للإله سويريس إلى أحد كبار الموظفين:

"إلى سونوفريس تحية، من بيتوسيريس بن بوكوس أونوفريس بن بيتيسيس، العبيد المقدسين للآله الأكبر سويريس وباقى العبيد المقدسين، اعتدنا منذ أمد بعيد على ادراة ايرادات المعبد اعتمادا على رعايتكم، حاليا وسابقا كما شملتنا برعايتكم، ولكن الآن بيتوسيريس عمدة القرية..."(١٣٦). ورغم أن الوثيقة تصمت عند هذا الحد فهى تتضمن شكوى العبيد المقدسين لمعبد سويريس الذين يبدو أنهم كانوا يتولرن إدارة إيرادات المعبد، ويبدو أن عمدة القرية تدخل فى إدارة ايرادات المعبد، ولما كان تاريخ الوثيقة هو ٢٥٠ق.م. أى فى صدر الحكم البطلمى الذى يبدو أنه شهد وضع ايرادات المعابد تحت الاشراف الحكومى المباشر، ولايبعد أن قسما من إيرادات المعبد كانت نتاج أراضى زراعية تلك التى تولى عمدة القرية الاشراف عليها مما أدى إلى ازعاج العبيد المقدسين الذين كانوا يشرفون على موارد المعبد مما أدى بهم إلى أن يجأروا بالشكوى إلى نصيرهم الموظف الكبير. وبقى من إحدى الوثائق أربعة أعمدة تتعلق بقوائم ضرائب وقوائم بأسماء أشخاص قدموا أردبا من العدس عن كل أرورة ورد بها إشارة إلى حورس عمدة القرية وكاتب القرية وكاهن (معبر عن النبوءات) Prophetes ورجل شرطة إلى جوار

المزارعين الملكيين(١٣٧). ومن المحتمل أن وجود الكاهن بين رجالات الإدارة والشرطة ومزارعي القرية،وتعلق الوثيقة بضرائب يوحى بأن قسما من هذه المدفوعات التى تم تقديمها كانت صادرة عن أراضى أحد المعابد.وتعقيبا على ماسبق ترى الآنسة بريو أن عمدة القرية كان بين أولئك النفر الذين اضطلعوا بالاشراف على الأرض المقدسة hiera ge شأنه فى ذلك شأن رجال الادارة المدنية مثل النومارخ والتوبارخ، ورجال الادارة المالية مثل الأويكونوموس وكاتب القرية، الذين كانوا يشرفون إشرافا مباشرا على زراعتها، ويضطلعون بتنفيذ لائحة الزراعة diagraphe Sporou ثم حراسة محاصيلها لحين تسلم الحكومة حقها(١٣٨).

هكذا إن كان إشراف عمدة القرية على الأرض الملكية فى نطاق قريته أمرا محققا، فإننا نتبين مما سبق من وثائق أن مجال عمله امتد أيضا ليشمل أرض الاقطاع المقدسة.

وقد تنوعت اختصاصات عمدة القرية فى مجال زراعة الأرض. فيما يتعلق بمساحة الأرض الزراعية Gewmetria تلك العملية التى كانت معروفة منذ أيام الفراعنة، الذين يعزى إليهم السبق فى هذا المجال(١٣٩). وكان يناظر عملية مسح الأرض السنوية عملية سنوية أخرى، وهى تقدير المحصول Kata Phullon(١٤٠). وكانت تتم قبل الحصاد لأجل تقدير المحصول بغرض فرض ضرائب عادلة وإيجارات مناسبة عليها. ويبدو من الوثائق أن الكاتب الملكى Basilikos grommateus كان الموظف الأول المشرف على عملية مسح الأرض(١٤١). بيد أن الاشراف الحقيقى على كل هذه العمليات كان يقع على عاتق الادارة المحلية فى القرية، حيث كان يقوم بتلك الأعمال لجنة تضم فى عضويتها كاتب القرية وعمدتها وشيوخ المزارعين(١٤٢) ويتضح من بعض الوثائق التى تعود إلى بداية العصر البطلمى الخاصة بإجراء عملية

مسح أرض بعض القرى، أن عمدة القرية كان المشرف الأول على عملية مسح أراضى قريته.(١٤٣)، بيد أنه وإن كانت الوثائق تبين أن الإشراف على هذه العملية فى القرن الثانى ق.م. قد صار من نصيب كاتب القرية.(١٤٤) ولكن ذلك لم يحل أن يكون عمدة القرية عضوا فى لجنة الأشراف على عملية مسح الأرض، فقد جاء فى إحدى الوثائق "فى (   ) من برمهات، أبيون أرجيو، تم إجراء مسح الأرض فى حضور توثيس كاتب القرية وبيتسيسيس عمدة القرية وشيوخ المزارعين وأحد حراس المحاصيل ...."(١٤٥). وجاء فى وثيقة أخرى يعود تاريخها إلى القرن الثانى ق. م. "من هيستياوس عمدة القرية وحراس المحاصيل إلى بيتوسيريس بن حورس كاتب القرية، تحية، تسلمنا منك بيان بحصر مساحة الأرض وتقدير المحاصيل"(١٤٦). وإن كان يبدو من الوثيقة الأولى أن عمدة القرية كان عضوا فى اللجنة التى قامت بإجراء مسح الأرض ، فإنه يبدو من الوثيقة التالية أنه لم يحضر عملية مسح الأرض، ولكن يبدو أنه كان ضروريا إبلاغ عمدة القرية وحراس المحاصيل بعملية مسح الأرض وتقدير المحصول نظراً لأنهم كانوا يقومون على أمر جباية مستحقات الدولة النوعية. ويبدو أن عمدة القرية لم يقتصر إهتمامه فى هذا الصدد على مسح الأرض وتقدير المحاصيل، إنما امتد إلى قياس الأعمال العامة مثل تسلم الترع التى تم إنشائها أو تطهيرها، فقد جاء فى إحدى الوثائق أنه تم قياس وتسلم الأعمال المنفذة فى كاليفانيس الواقعة فى نومارخية نيكون فى مديرية أرسينوى، وقد قام بذلك دوريون وكيل زوبيروس الأويكونوموس، وأبو لونيوس وكيل نيكون (النومارخ) والكتاب فى كل مكان، بيد أنه فى تاميس المجاورة للبحيرة، بالقرب من فيلوتريس قام بقياس الأعمال المنفذة باسيس عمدة القرية وكاتبها(١٤٧).ويبدو أن هذه الأعمال العامة كانت عبارة عن مشروعات زراعية، مثل القنوات والترع والجسور، تلك التىكان يقوم

بتنفيذها مقاولون، أو أهالى على سبيل السخرة leitourgia تحت إشراف مهندسين(١٤٨) ويتضح من الوثيقة السابقة أن رجال الإدارة المالية أحياناً، ورجال المدنية فى أحيان أخرى كانوا يتسلمونها بعد قياسها ومعاينتها .

ولما كان ضمان وصول المياه إلى أبعد مدى ممكن عن النيل أكبر هموم أية حكومة مصرية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحالى، وكان ذلك يستلزم المحافظة على وسائل الرى بما فيها من ترع وقنوات وسدود فى حالة جيدة، وما كان ذلك ليتم إلا فى وجود إدارة قوية واعية ، ومن ثم فإن المحافظة على سلامة وسائل الرى كانت من سمات الحكومة القوية ودمارها كان من مظاهر ضعف الحكومات . وقد أهتم البطالمة لا سيما الأوائل منهم بوسائل الرى أيما أهتمام، واضطلع بالإشراف على وسائل الرى موظفون عدة بداية من وزير المالية حتى أصغر موظف(١٤٩). وبخصوص عمد القرى ، جاء فى إحدى الوثائق المهلهلة تعليمات من موظف كبير إلى الحراس الذى سيتم تعيينهم أنه فى حالة أكتشاف أى أهمال فيما يتعلق بوسائل الرى يجب استدعاء التوبارخاى وعمد القرى(١٥٠) . ومن هذه الوثيقة نتبين إما أن عمد المراكز وعمد القرى كانوا يستدعون لكى يقومون بإزالة الأسباب التى أدت إلى الأهمال، أو أنهم كانوا يتم مؤاخذتهم عن الإهمال، وفى كلتا الحالتين يبدو أنهم كانوا فى مقام صدارة المسئولية عن سلامة وسائل الرى، وتتضمن إحدى الوثائق شكوى مؤرخة بعام ١١٣ق. م. من منخيس كاتب قرية قرقيوسيريس إلى القائد بطليموس من إنه أثناء قيامه فى صحبة حورس عمدة القرية وشيوخ المزارعين بتفقد ضفاف الترع بالقرب من القرية وجدوا بعض الأشخاص الذين كانوا يعملون لدى أحد أصحاب الإقطاعات فى قرية برنيكى زيسموفوريون المدعو فيلوناوتاس، يقومون بحفر ونقل التراب من ضفاف سد الألة سكنبتونيس المجاور للقرية، وقد استطاعوا إلقاء القبض على أحدهم

وسلموه إلى بوليمون الأبيستاتيس، وطـالبوه بإحضـار الجنـاه أمـام القـائد ومطالبتهم بإصلاح الجسور وإعادة الوضع على ما كان عليه، وحتى ينالوا العقاب المناسب(١٥١) . ويتضح من هذه الوثيقة أن تفقد وسائل الرى فى نطاق القرية، كانت تقوم به لجنة من موظفى القرية وشيوخها كان على رأسها، فى القرن الثانى، كاتب القرية وعمدتها مع شيوخ المزارعين(١٥٢) وتتضمن وثيقة شكوى من مزارع ملكى إلى كاتب القرية، يشتكى فيها من أن جاره قد ردم القناة التى تمر بأرضه، تلك التى يسقى منها الشاكى زراعته مما أدى إلى ضياع الموسم المناسب لزراعة الأرض وكان من جراء ذلك أن حاقت به خسارة كبيرة، ويشير الشاكى إلى أن جاره قد أقترف ذلك الفعل من قبل، وأن كاتب القرية ذاته وحورس عمدة القرية وشيوخ المزارعين قد قاموا بمعاينة القناة وقرروا ضرورة إعادتها إلى سابق عهدها ، وفى هذه المرة يطلب الشاكى إعادة القناة إلى سابق عهدها وأن يدفع الجانى مقابل الخسائر التى حاقت به(١٥٣) ومن هذه الوثيقة يتضح أنه كثيراً ما كان ينشب بين المزارعين نزاعاً حول قنوات الرى وكان يتولى الفصل فى مثل هذه المنازعات هيئة من موظفى القرية مثل كاتب القرية وعمدتها وشيوخ المزارعين ، وأن أحكامها كانت أحياناً لا يتم تنفيذها على النحو الأتم من لدن نفر من المزارعين .

ويتضح من وثائق العصر البطلمى أن الدولة كانت تفرض على المزارعين الملكيين وأصحاب الإقطاعات العسكرية وزراع أراضى المعابد، عندما كانت الحكومة تديرها، إقتراض البذورة من الحكومة، بدون فوائد حيناً(١٥٤)، وغالباً بفائدة قدرها ٥٠٪(١٥٥). وتشير الوثائق إلى أن النومارخ كان المسئول الأول عن توزيع البذور فى المديرية كلها(١٥٦) بينما كانت عملية التوزيع نفسها فى القرية من اختصاص عمدة القرية وكاتبها(١٥٧)

وفيما يختص ببذور الحبوب الزيتية كان يقوم بتوززيعها الأوبكونوموس والنومارخ والتوبارخ من خلال عمد القرى وكتابها أيضاً.(١٥٨) وكان الإجراء ذاته يتخذ حيال بذور القمح، الذين كان يقوم بتوزيعها نواب النومارخ ومنهم في القرى العمد بطبيعة الحال، كما يتضح من الوثيقتين(١٥٩) وجاء في وثيقة تخص توزيع بذور القرطم إشارة إلى العديد من النومارخاى وعمد القرى(١٦٠) ومن المحتمل أن أوامر توزيع البذور كانت تصدر عن النوومارخاى وكان يصدع بها ويقوم بتوزيع البذور في نطاق القرية العمدة. ونصت إحدى الوثائق على "من تاوس عمدة القرية وشيوخ المزارعين إلى منخيس (كاتب القرية) تحية: لقد تقابل معك أونخيس في العشرين من شهر باؤنة وتحادث معك بشأن أمور محل نزاع بيننا وتخص الأرض ، وقد توصلتما إلى إتفاق على أغلب النقاط . وبناء على ذلك أرسلنا في الواحد والعشرين من الشهر نفسه في طلب البذور ولكن كوتوس رفض تقديمها وأحال الأمور إلى أحد مفتشي الشرطة وإن كان لا يزال يعرقل تقديم البذور أرسله إلينا مقبوضاً عليه ....."(١٦١).

ويتضح من هذه الوثيقة أن عمدة القرية وشيوخها كانوا يهتمون بأمر تسلم البذور وتوزيعها على نطاق القرية، وأن كاتب القرية، صاحب السجلات، كان يحتكم إليه في المنازعات التي تنشب بين الموظفين في مثل هذه الأمور. ويبدو أن بعض الموظفين ورجال الشرطة كانوا يماطلون في تنفيذ الإتفاق بشأن تسليم البذور ، مما كان يؤدي إلى إثارة حنق عمدة القرية وشيوخها المشرفون على إستلام وتوزيع البذور .

ويتبدى من الوثائق أن عمدة القرية قد أضطلع بدور بارز في جباية مستحقات الدولة النوعية فقد ورد في إحدى الوثائق : "إلى النومارخاى والأويكونوموى والكتاب الملكيين في مديريات أفرود يتوبوليس

وهيراكليوبوليس وأوكسيرونخوس وإلى رؤساء الشرطة والشرطة، تحية: لقد تم إرسال لوسيماخوس (لجمع) المقادير الأضافية المستحقة من محصول القمح فى مناطكم ، ومن ثم عليكم تقديم المساعدة لـه لأجل إتمام هذا الغرض"(١٦٢) وكما هو واضح تم إرسال هذا الخطاب إلى رؤساء القطاعات الإدارية المختلفة، المدنية والمالية والسجلات والشرطة، وبطبيعة الحالة ما كان هؤلاء الرؤساء ليقدموا المساعدة الشخصية لهذا الجابى إنما كانوا يصدرون بذلك أوامر إلى مرؤوسيهم فى نطاق القرى وكان منهم بطبيعة الحال عمد القرى، الذين تبرز عدة وثائق دورهم البارز فى جباية مستحقات الدولة النوعية ، فتحوى إحدى الوثائق(١٦٣) قوائم بأسماء مزراعين ملكيين، وضع أمام كل إسم عدداً من الأرادب، وورد فى الوثيقة ذكر كاتب القرية وعمدتها وحراس المحاصيل وكاتب المزراعينGrammateus twn gewrgwn ويبدو أن هذه الفعاليات كانوا يتواجدون فى الجرن الملكى أثناء تسلم حقوق الدولة من المحاصيل، وتشابهت مع الوثيقة وثيقة ثانية جاء بها أن حورس عمدة القرية وكاتب القرية وكاتب المزارعين شكلوا لجنة لجمع متأخرات الضرائب وضرائب متنوعة(١٦٤) وورد فى وثيقة ثالثة ما يفيد تقديم أهل قرية أريس متأخرات كانت عليهم ، وقد جاء بها para gewrgwn dia petosirios kwmarchou أى أن المزارعين قدموا ما عليهم من خلال عمدة القرية(١٦٥) أى أن عمدة القرية تولى تقديم ما عليهم من متأخرات نيابة عن أهل القرية . ولم يكن عمدة القرية يقوم بتسليم الغلال فحسب بل كان يقوم أيضاً بتسلم حقوق الحكومة من التبن achuron حيث تسلم عمدة القرية وشيوخ المزارعين ما يفيد أنهم سلموا حصة التبن السنوية المفروضة على قريتهم(١٦٦) ومعروف أن التبن يستخدم كغذاء جاف للماشية فى حالة عدم وجود العليقة الخضراء . ويتضح من هذه الوثيقة أنه كانت تفرض حصة

سنوية من التبن لأجل تغذية الماشية الملكية كان العمدة وشيوخ المزارعين هم المسئولون عن تقديمها سنوياً. ويتضمن إحدى الوثائق محاسبة بمدفوعات شعير أداها مزارعون ملكيون ورد بها dia Hwrou Kwnarchou Kai Marreiou genematophulkes وتمثل هذه الوثيقة قائمة بمدفوعات شعير تسلمها أمين مخزن المؤن ergasrerion فى كركيوسيريس وقام بمراجعة قائمة المدفوعات تلك ووقع عليها عمدة القرية وحراس المحاصيل(١٦٧) وتمثل إحدى الوثائق شكوى من عمدة قرية أُوكسيرونخا ومزارعيها الملكيين إلى المشرف على الدخل، يطلبون منه الزام أمين المخزن Sitologos بأن ينفذ أمرا سابقاً منه بأن يقبل من مجمل إلتزاماتهم ٢٠٠ أردباً من بذور البوص اليونانى(١٦٨) eis ta opheilemota kalamou hollenikou ومن هذه الوثيقة يتضح أن عمدة القرية كان مسئولاً أيضاً عن تقديم مستحقات الحكومة من البذور غير التقليدية إلى المخازن المكلية، وإنه كان بالإمكان تقديمها على أقساط بناء على تعليمات من موظف كبير مثل المشرف على الدخل، بيد أن أوامره يبدو أنها كانت لا تجد طريقها إلى حيز التنفيذ أحياناً فى وجود موظف بيروقراطى.

تمثل إحدى الوثائق(١٦٩) ايصالاً قدمه الأسكندر وامونيوس إلى عمدة فلادلفيا بأنهما تسلما ٣ تالنت و ٢٦٦٠ دراخمة من حساب المحاصيل . ونتبين من هذه الوثيقة عدة أمور أولها إنه كان بالإمكان تقديم مدفوعات نقدية بدلاً من المدفوعات النوعية وفى هذه الحالة قام عمدة القرية المسئول عن جباية المدفوعات النوعية بتوريد هذه النقود إلى لاخزانة المالية الملكية Basilike Trapeza ومن ثم يبدو أن الأسكندر وأمونيوس كانا مديرى الخزانة المالكية الى تسلما منه النقود. وبقى من إحدى البرديات جذاذه بردية تتناول إيداع محاصيل فى المخزن الملكى كان عمدة القرية من بين المودعين(١٧٠).

ويبدو من إحدى الوثائق أن اللجنة المشكة من عمدة القرية وشيوخ المزارعين التى كانت تقوم بجباية مستحقات الدولة النوعية كانت تتعرض أحياناً لإعتداءات فى الجرن الملكى من لدن أولئك الذين كانوا لا يرغبون فى دفع مستحقات الدولة لديهم(١٧١) .

وكان الأشراف على نقل الغلال من الأجران على وجه السرعة Epispoudasmos tou sitou إلى المخازن الملكية يقع على عاتق مجموعة من المسئولين مثل الأويكونوموى والكتاب الملكيين وأمناء المخازن وعمد القرى وكتابها(١٧٢). وقد ورد فى احدى الوثائق تقرير يتعلق بمراكب تسلم عمدة إحدى القرى أربعة منها بناء على تعليمات النومارخ(١٧٣) ومن المحتمل أن هذه المراكب قد استخدمها عمدة القرية فى نقل غلال لتسليمها إلى المخزن الملكى المحلى، الذى يبدو أن الوصول إليه كان يتم عن طريق النهر، ولا يمكن أن يكون قصد هـذه المراكب هو المخزن الرئيسى فى المديرية ولا حتى الأسكندرية ، تلك التى كان شحن الغلال إليها خارج اختصاص عمد القرى .

وعلى الرغم من أن عمدة القرية لم يكن أحد موظفى الإدارة المالية، فإن الوثائق تنسب اليه دوراً فى مجال الإحتكارات المالية، ولعل ذلك راجع إلى حيثيته فى القرية ، فقد نصت إحد فقرات وثيقة الدخل على "يجب ألا يسمح للمزارعين ببيع محصول السمسم أو القرطم لأى شخص عدا الملتزمين، ويجب على الملتزمين أن يقدموا إلى عمدة القرية إيصالاً مختوماً بأية كمية يتسمه مس . ـزارع، وإذا لم يقدموا الإيصالات فمن الواجب على عمدة القرية ألا يسمح بأن يغادر الإنتاج القرية، وإذا خالف هذا القانون عليه أن يدفع ١٠٠٠ ·· خمة إلى الخزانة الملكية ، وقدر خمس مرات من

الكمية التى ضاعت على المتلزمين "(١٧٤) وقد وردت الإشارة إلى عمدة القرية فيما يتعلق بتسلم محصول السمسم الذى كان محل احتكار أيضاً(١٧٥) .

ويبدو من الوثيقتين السابقتين إنه كان لعمدة القرية دوراً هاماً فى الإشراف على نقل السمسم والقرطم من القرية ، وفى الوثقة الثانية نجده يتسلم سمسماً، مما يوحى بإنه لم يكن يشرف على نقل الحبوب الزيتية المحتكرة فقط، إنما كان يتولى تسلمها أيضا، وإن كان تاريخ الوثيقة الأولى يعود إلى القرن الثالث ق. م. فإن تاريخ الوثيقة الثانية هو القرن الثانى ق. م.، ومعنىذلك أن دور عمدة القرية فى مجال إحتكار الحبوب الزيتية لم يكن حكراً على القرن الثالث ق. م. فقط، بل استمر طوال عمر البطالمة ، وإن كانت مسئوليته منفردة فى نقل الحبوب فى القرن الثالث ، كما يبدو من الوثيقة الأولى، نجد كاتب القرية يشاركه المسئولية فى الوثيقة الثانية، مما يوحى بأن سلطته فى هذا المجال لم تعد مطلقة فى القرن الثانى ، ولم يقتصر دور عمدة القرية على الحبوب الزيتية فى مجال الإحتكارات ، إذا ورد فى رسالة من مراقب إحتكار ورق بردى يعود تاريخها إلى عام ١٥٩ق. م.(١٧٦) إلى الأبيستاتيس ورجال الشرطة خفراء الصحراء والعمدة وكاتب القرية فى تالى يبلغهم بأن شخصاً يدعى بيتوس قد تعاقد معه على بيع ورق البردى ويطلب منهم إلزام المحررين فى القرية بإستخدام الورق المباع من حوانيت ملكية فقط دون المهرّب، ويطلب منهم مساعدته، وإلقاء القبض على كل من يحاول بيع ورقاً مهرّباً لينال العقاب المناسب ، ويتضح من هذه الوثيقة أنه كان لعمدة القرية دوراً فى تنظيم عملية بيع الورق الملكى المحتكر فى القرية مما يوحى بأنه كان له دور هام فى بقية الإحتكارات الحكومية وإن كان ينقصنا الدليل .

ولم يكن إهتمام ومسئولية عمدة القرية منصرفة إلى الأهتمام بشئون الزراعة دون التطرق إلى أحوال جمهور المرزارعين فى قريته، فقد جاء فى

أحدى الوثائق الخاصة بزيتون(١٧٧)، رسالة من شخص يدعى كلوتيوس (كاتب قرية أمونياس)(١٧٨) أنه بعد رحيل زينون هرب مزارعو الأرض التى تم توزيعها على الجنود إلى معبد ايزيس فى مديرية منف، ويطلب من زينون مناشدة ميماخوس النومارخ اخراجهم من المعبد. وإن كنا لا نعلم شيئاً عن وسيلة إخراجهم من المعبد سوى أن يكون ذلك عن طريق الوعود البراقة، فقد وردفى الوثيقة ذاتها en tei Kwmei Psenomous gegrapha oun hina eideis وقد رأى ناشرو البردية أن بسينوموس الوارد اسمه فى هذه الفقرة هو عمدة القرية الذى قام بالتفاوض مع المزارعين اللاجيئن إلى المعبد لأجل إخراجهم نيابة عن النومارخ .

ويجرنا الحديث إلى تناول دور عمدة القرية فى إرساء العدالة فى قريته، وهادبنا فى هذا الصدد مجموعة من الوثائق تتضمن التماسات وشكاوى قدمها جمهور القرية إلى العمدة .

وتحوى أولى(١٧٩) هذه الوثائق التماسا من مزارع ملكى يدعى بيتوسيرابيس إلى عمدة يوهميريا، يشتكى إليه من أن شخصاً يدعى بولكليس اشترى إنتاج $\frac{1}{4}$ أرورة من كلأ الأرض الملكية التى يزرعها ولكن لم يدفع ثمنها ، وإنه اقتحم الأرض مرة أخرى واستولى على إنتاج $\frac{1}{2}$ أرورة والوثيقة ممزقة بعد ذلك، ولا نعرف شيئاً منها عن طبيعة العلاقة بين أطراف النزاع، ولا عن نوعية الأجراء الذى كان يود الشاكى من العمدة اتخاذه، ومن المحتمل أنه كان يود من عمدة القرية إجبار الباغى على سداد ثمن ما حصل عليه من عشب، خصوصاً إنه من إنتاج الأرض المكية التى كان يتأهب لدفع إيجارها، وجاء فى وثقة ثانية(١٨٠) شكوى من شخص يدعى سوكومينيس إلى بيتيسيس عمدة قرية لوسيماخيس، يشتكى إليه من أن بيتوسوخوس عمدة القرية السابق استولى على ٣٨٥ حزمة من كلأ الأرض الملكية التى كان

يزرعها ، ويطالب العمدة الحالى أن يلزم العمدة السابق بأن يدفع شيئاً مقابل ما استولى عليه، والوثيقة محطمة عند هذا الحد، ويبدو أن عمدة القرية الحالى كان باستطاعته الزام العمدة السابق بدفع ما عليه إما ود أو رسمياً بصفته المسئول عن القرية وورد فى وثيقة ثالثة(١٨١) شكوة من بطلميوس المزارع إلى بيتوسوخوس عمدة أوكسبرونخا بأنه قد قام بتأجير مساحة ٣ ٣/٨ أرورة من الأرض الملكية الشخص يدعى بيتوسوخوس نظير إيجار قدره ٥ تالنت من النحاس شريطة أنه إذا زرعها بصلا يقوم بدفع الايجار قبل الثلاثين من شهر برمهات من العام الرابع إلى المخزن الملكى نظير الإيجار، ورغم غموض الوثيقة، ذلك أنه لا يتضح منها طبيعة الجرم المقترف ولا الإجراء المطلوب اتخاذه ، يبدو محتملاً أن المستأجر لم يسدد الإيجار ويطلب المشتكى من عمدة القرية إرغامه على دفعة أو إحالة الأمر إلى الجهات المختصة حتى يبرأ من تهمة عدم سداد إيجار الأرض الملكية، وتتضمن وثيقة(١٨٢) شكوى إلى رئيس شرطة archephulakites من مجموعة من الناس قام أحد الأشقياء بمهاجمة منازلهم والأستيلاء منها على بعض الأمتعة قدرت بـــ ١١٨٠ دراخمة، ويفيدون بأنهم قدموا بلاغاً بالحادث وبقيمة المسروقات فى يوم السرقة نفسه إلى حورس عمدة حى - شارع - ساتوروس، ويناشدون رئيس الشرطة أن يكتب إلى الموظفين المعنيين ، وأن يدفع نسخة من تقريره لهم حتى يتسنى لحورس (العمدة؟) استخدامها فى التحقيق الذى يجريه من ورغم أن الشكوى موجهة إلى رئيس الشرطة، فإن المشتكين يفيدون أنهم قدموا بلاغاً فى نفس يوم الحادث إلى عمدة حى ساتوروس الذى يبدو أنه قام بإجراء تحقيق فى الحادث ولكنه لم يتوصل فيه إلى نتيجة حاسمة مما حدا بالمضارين إل تقديم بلاغ آخر إلى رئيس الشرطة بيد أنهم طالبوا بالإبقاء على نسخة من التقرير الذى سيعده ليستفيد به حورس فى التحقيق الذى يبدو أنه كان لايزال

مستمرا. وجاء فى وثيقة(١٨٣) أن أمرأة قدمت شكوى إلى عمدة القرية بعد الاعتداء الذى وقع عليها فى الحمام، ولكن العمدة بدلا من أن يعيد الحق إلى نصابه أودعها السجن مسببا لها أضرارا بالغة. وبغض النظر عن تهمة عدم الانصاف التى كالتها المرأة للعمدة، يتضح من الوثيقة إنه كان من حق العمدة إيداع من يراه معتديا السجن.

وبناء على الوثائق سالفة الذكر نتبين أنه كان لعمدة القرية دورا هاما فى مجال إرسال العدالة فى قريته، ويتضح من الوثائق التى تعود إلى القرن الثالث ق.م. أنه كان لعمدة القرية سلطة القاء القبض على المتهمين والفصل فى قضايا الاعتداءات، وإنه كان بإمكانه اجراء تحقيقا فى أمور تتعلق بسرقات تلك التى كانت بلاغاتها تقدم إليه، ويبدو أن ذلك ظل معمولا به على الأقل فى القسم المبكر من القرن الثانى ق.م. ويتصح من وثائق أخرى أنه كان معنيا بأمور تخص الايرادات النوعية وخصوصا إيجارات الأرض الملكية. ومن غير الممكن القطع برأى فى أى عصر كانت سلطة عمدة القرية تؤدى إلى ارساء العدالة أو كانت تؤدى إلى حل مثل هذه الخلافات. بيد أن ذلك كان يؤدى إلى حل كثير من المشاكل، ذلك أن عرض المشاكل وتبسيطها كان يؤدى إلى حل بعضها وإن كان يؤدى إلى اقحام عمدة القرية فيها(١٨٤).

وأخيرا يطرح السؤال نفسه هل نهض عمد القرى بالمهام اليهم كما يجب وفقا لشروط وظيفتهم أم أن بعضهم قد ارتكب مخالفات؟ وللاجابة على هذا السؤال يلزم استظهار عددا من الوثائق، أولها وأقدمها وثيقة(١٨٥) ورد بها شكوى إلى سونوفريس (أحد كبار الموظفين) من العبيد المقدسين للاله سويريس يشكون من تدخل عمدة القرية فى شئون ايرادات المعبد ـ وإن كان تدخل عمدة القرية فى شئون إيرادات الأرض المقدسة فى نظر العبيد المقدسين شيئا يستدعى تقديم شكوى، فإنه يبدو وجيها على ضوء معرفتنا أن

الأرض المقدسة قد خضعت للإدارة الحكومية فى مطلع عصر البطالمة(١٨٦). وموضوع الوثيقة الثانية خطاب من راعى أوز إلى زينون الذى كلفه بتسمين خنازير لأجل مهرجان أرسينوى، وعند قرية معينة فقد خنزيرين ، ولم يعثر على جواب شاف لفقدهما ويطلب الراعى من زينون أن يكتب إلى النومارخ والمزارعين ألايسمحوا بحدوث مثل هذه الأمور وألا يمنعوه من الرعى، وقد ورد على ظهر الوثيقة ثلاث أسماء اتهم الراعى أصحابها بسرقة الخنزيرين ورد بينهم(١٨٧) Psenpeswtos K..{.}Pis Kwmarchos أى أن عمدة القرية كان من بين اللصوص ورغم أن هذا الاتهام كان لايرقى إلى مرتبة اليقين، فإن مجرد توجيه الاتهام إلى عمدة القرية يعد ماسا بالشرف. وبناء على هذه الواقعة رأت إحدى الباحثات أن حياة الموظفين المصريين فى القرن الثالث ق.م. كانت شاقة مثل حياة باقى جمهور المصريين . وأن الفاقة هى التى دفعت عمدة القرية إلى المشاركة فى سرقة الخنزيرين(١٨٨) وقد ورد فى سجل هام لأعمال مالية التماسا من "سكان منطقة البحيرة الصغرى إلى النومارخاى، تحية، لقد حان الوقت الآن... شهور، ونحن نزرح تحت ضغوط (؟) ولم يعد بإمكاننا الحصول على حقوقنا من عمد القرى الذين أهملوا قريتنا فصارت قفرا. ونستحلفكم بالملك أن تعملوا على إعادة القرية إلى سابق عهدها، ونحن نرغب فى أن يعاملونا بشكل صريح، وإذ لم تعود قريتنا إلى سابق عهدها قد يحدث نقصا بدخل الملك"(١٨٩). ويتبدى من هذه الوثيقة مدى إهمال عمد القرى حتى تحولت قرية إلى قفر، ويبدو أن هذا الإهمال قد حاق بوسائل الرى مما أدى إلى تصحر الأرض الزراعية، ويبدو أن اعادة الوضع إلى ما كان عليه لم يكن فى استطاعة المواطنين ومن ثم خاطبوا النومارخاى، ويلفت النظر أن الشكوى كانت موجهة إلى نومارخاى من إهمال عمد قرى، وبطبيعة الحال يجب ألا

يتطرق إلى الذهن أن قرية واحدة كان يتولى حكمها عدة عمد، ويحسم القضية أنـه ورد فـى الوثيقـة ذاتهـا(١٩٠) Sunedreuontwn Twn nomarchwn أى مجالس النومارخاى، ويبدو أن أحد هذه المجالس كـان يضـم نومارخـاى قسم هيراقلايديس التابع له اقليم البحيرة فـى مديريـة أرسـينوى، ولايبعد أن عمد قرى كل نومارخية أو مركز قـد كونـوا لهـم مجلسـا ممـاثلا، وبالتـالى وجهت تهمة الاهمال إلى مجلس عمد القرى فى منطقة معينة. ولايفوتنا هنا أن نذكر وثيقة هامة(١٩١) سلفت ترجمـة لهـا(١٩٢)، نتبيـن منهـا أن عمـدة القريـة فـى أوكسبرونخا قد حـاقت بـه متـأخرات بشـأن كميـات الغـلال المتفـق معـه على تقديمها بحكم وظيفته ممـا اسـتدعى الأمـر مخاطبـة الحـراس والمواطنيـن فـى القرية بأمور لم تصل إلينا من جراء تمزيق الوثيقـة ، ويبـدو أن بعـض العمد كانوا يفشلون فى سداد ما عليهم من مستحقات للحكومة. وتمثل إحدى الوثـائق تقريـرا عـن محـاصيل الأرض الزراعيـة الملكيـة عـن العـام ٥٣ مـن عهـد بطلميوس الثامن فى نطاق قرية كركيوسيريس قام بعمله منخيس كاتب القريـة نفسها ـ وقد اختتم منخيس التقرير قائلا "هذا علاوة على مـا كـان يمكـن جنيـه من ايجار الأرض المروية التى تركـت بـدون زرع، ويعـود ذلـك إلـى إهمـال المزارعين وعمدة القرية"(١٩٣). فعلى الرغم من أن المياه قد غمرت الأرض فإنها تركت بدون زرع، ويعود السبب فى ذلك إلى إهمال عمدة القرية وبعض المزارعين، ويلقى اللوم على عمدة القرية لأنه أهمل واجب مـن أهـم واجباتـه وهو الاشراف على زراعة الأرض الملكية. وتجدر الاشارة إلى وثيقـة سبقت الاشارة إليها(١٩٤)، نتبين منها أن عمد القرى كانوا ضمن أولئك الذين اتهمهم أحد الموظفين بعدة اتهامـات تضمنتهـا الوثيقـة التـى رفعهـا إلـى مكتـب وزيـر المالية، ورد بها أنهم تم تعيينهم بدون علم وزير الماليـة، وإنهـم احتـالوا للزج بأنفسـهم فـى وظـائفهم، وإنهـم أسـندوا وظفـائهم إلـى أبنـائهم الصغـار أو إلـى

آخرين. وأخيرا تتضمن إحدى الوثائق(١٩٥) شكوى من مزارع ملكى إلى شخص المسئول عن تقديم إيجارات الأرض الملكية Kwmomiswtes بأن عمدة القرية وحارس محاصيل وكاتب القرية قد استولوا على أكثر مما كان مطلوبا منه كإيجار للأرض الملكية وأحبروه على التنازل عن حقه، وعلى ضوء قيام الثلاثة السابق ذكرهم بجباية مستحقات الدولة النوعية يبدو الاتهام وجيها.

. . . .

الهوامش

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الطبعة الثالثة ١٩٧٩، ص٧٣.

(2) Tigger B.G. Kemp. B., Ancient Egypt, A Social History, Camb. Un. Pres. 1985, P.214.

(3) Ball. J., Egypt in the Classical geographers, Cairo 1942, p.6.

(4) Bevan E., A History of Egypt Under the Ptolemaic dynasty, London 1914, P.139.

(5) Ball. Op. Cit., 139.

(6) نصحى ، حـ٣، ص٣٩٣ E. Van't Dack, La Toparche dans L'Egypte Plotemaique, "Chr. d' Eg., (1952) PP. 148-54", Recherches Sur les Institutions de village en Egypte Ptolemaique, "Stud., Hell., 7 (1951) PP.10,13".

(7) P. Rev. Laws, Col. 24; B.G.U. 1227-1230; P. Pet III 40 (a) Col. 4, 1.4.

(8) Dack, Notes sur les circonscriptions d'Origine Grecque en Eg. Ptol., "Stud. Hell. 7, P.46".

(9) P. Tebt., 701, 11. 322-332; Rostovtzeff, Large Estate, P. 154.

(10) Crawford, kerkeosiris, p.40; Dack "Stud. Hell., 7, PP.7-8.

(11) S.B., 4309, 1,3; P. Ent., 87, P.2; P.Tebt., 837, 11, 2-5.

(١٢) تجدر الاشارة إلى أن بعض القرى كانت عواصم أقسام إداريةكبرى، وكانت فى الوقت ذاته قرى، فعلى سبيل المثال كانت فيلادلفيا عاصمة لقسم هيراكلايديس وأيضا عاصمة لاحدى النومارخيات وفى الوقت ذاته عاصمة أحد مراكز تلك النومارخية ومع ذلك كانت قرية .Cf. P. Col. Zen., 214, 11.28, 9; Dack, "stud. Hell., 7, PP.25-26"

(13) Cf. Herod., II 177.

(14) Viereck M.P., Philadelphia, "Klio 16 (1928) P.5"; Crawford, Kerkeosiris, p.46; Rostovtzeff, Large Estate, pp. 9-10.

(15) P. Tebt., II Appendix II.

(16) Heichelheim, "Klio, XVII, PP. 67 F".

(17) C.A.H., p. 218.

(18) Jouguet, Vie Muncipal, p.5.

(19) Jouguet, Macc. Imp., p. 30.

(20) Cf. P. Tebt. 61 (B), 791, 802; P.Amh. II 35; U.P.Z., 162, I, II. 2-3, 117, I, II. 10-13.

(21) Martin, Les Epistrateges, Geneve 1911, pp.5 ff, نصحى، جـ٢، ص٣٨٦

(22) Siut Archiv 1091, Recto, P. 30; P. Lond., 610; U.P.Z., 160, 1. 30, 161, II. 20-21.

(23) Siut Archiv, IV Verso, 1.4.

(٢٤) راجع نصحى ، حـ٣ ص١٤٧-١٤٩ .Bevan, OP. Cit, P. 142

(25) P. Pet., III 42 F; Rostovtzeff, Large Estate, P. 153.

(26) P.S.I., 490, 502, 536; P. Lond., 2096; Edgar, Selected Papyri, 39, 40.

(27) P. Ent., 22, I. II; 71, 1.7.

(28) P. Tebt., 66, P. 60.

(29) P. Pet., III 37 (a) Col. I, 1.4; Dack, "stud. Hell. 7, P.8"; "Chr. d'Eg., 1948, PP.155-156".

(30) Dack, Stud. Hell., 7, P. 12.

(31) Jouguet, Vie, p.54.

(32) Tigger - Kemp., OP. Cit., P. 214.

(33) Cf. Breasted, Ancient records, P. 675.

(34) Breasted, OP. Cit., P. 698.

(35) Ibid., P. 699.

(36) Leonard C., Life Under the Pharaos, London 1955, P.39.

(37) Tigger - Kemp., OP. Cit., P. 209.

(38) Preaux, Eco. Roy., PP.559 - 70; welles, The Ptolemaic administration in Egypt, "j.j P., 3 (1949) P. 25".

(39) P. Tebt., 711.

(٤٠) يؤيد ذلك ناشروا الوثيقة .Cf. P. Tebt., 711, introd., P. 114

(41) P. Tebt., 24, II. 60-64.

(42) P. Tebt., 24.

(٤٣) .P. Tebt., 9-11 وقد اختلف الباحثون بشأن تعيين منخيس، فرأى بعضهم أن مبدأ الوراثة كان قائما بالنسبة لكاتب القرية، وأن بيتوسوخوس الذى خلف منخيس فى وظيفته كان أبنا له أو على الأكثر ابن احد اخوته: Harper C.M., Menches Kwmogrammateus of Kerkeosiris, Aegyptus 14 (1934) P.15، نصحى جـ٤ ص١٦٨.

ويرى آخر أن وزير المالية كان يعين كاتب القرية بناء على ترشيح بعض أهالى القرية أو موظفيها .Jouguet Mac. Imp., P. 351

(44) P. Tebt., 9, PP. 70-71.

(٤٥) نصحى، جـ٣ ص١٥٥؛ Cf. P. Tebt., 70 ، ولمزيد من التفاصيل راجع: عودة عبد الواحد جوده، كاتب القرية فى مصر إبان عصر البطالمة، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٧، ص٥٥-٦٠.

(46) Cf. P. Tebt., 10, PP. 72-73.
(47) P. Tebt., 75, II. 32-33; Harper, "Aegyptus, XIV (1934) P. 17".
(48) P. Tebt., 5, II. 119-121.
(49) Lesquier, Institutions Militairs PP. 263-4 .
(50) Rostovtzeff, Large Estate, P. 43.

(٥١) نصحى ، جـ٣ ص١٥٠ .

(52) P. Tebt., 711; راجع ص ص٥ - ٦

(53) P. Tebt., 9, 10,11.

(٥٤) يؤيد ذلك ما درجت عليه العادة فى مصر الحديثة، حيث كان محمد على وخلفاؤه يقطعون العمدة خمسة أفدنة تسمى "مسموح المصطبة" وما يتقاضاه العمدة من مخصصات فى العصر الحالى كمقابل للمصروفات التى تفرضها عليه ظروف وظيفته.

(55) Peremans W., Egyptiens et etrangers dans L'administration Civile et Financiere de L'Egypte Ptolemaique, "Anc. Soc., 2 (1971) PP. 33, 44".
(56) Ibid., P. 44.
(57) Cf. Prospographia Ptolemaica, Nos 728-780.
(58) Mooren L., Pros. Ptol. Addenda (Stud. Hell. 21), VIII, PP. 70-73.
(59) Peremans, "Ancient Society, 2 (1971) PP. 34-35".
(60) Cf. Remondon, Problemes du billinguesme dans L'Eg. Ptol., UPZ. I 148, "chr. d'Eg., 39 (1964) PP. 128-146;" Samuel A., Greek elements in the Ptolemaic buraucracy, "Proc. of 12th int. Cong. Pap. Toronto 1971, P.450".

(٦١) يرى بيريمانز أنه لتسهيل التفاهم بين أصحاب اللغتين وتوصيل لغة الادارة - الاغريقية - إلى عامة الشعب المصريين - استخدام مترجمين hermeneis دائمين أو مؤقتين.

Cf. Peremans, Les hermeneis das L'Eg. greco. Remaine "Rom. Byz. Aeg., PP. 11-17".

وكذلك استخدم كتبة عموميون كانوا يقدمون خدماتهم للأفراد خصوصا فيما يتعلق بالأمور الرسمية، ويبدو أن غالبيتهم كانوا من المصريين وإن لم يكن هناك دليل على قوميتهم، وإن كانت لغتهم اليونانية بسيطة مما يبين مصريتهم، ومثال ذلك شكوى صانعى القراميد التى ترجمها إلى الأغريقية مترجم مصرى .Cf. P. C.Z., 59291

(62) Cf. P. Hamb., II 87, N. Reich, The Greek Deposit-Notes of the record office on the demotic Contracts of the papyrus Archive, in the University Museum, "Mizraim 9 (1938) PP. 19-32" (S.B. VI 8965-8970) (264-233 B.C.).; Pierce R.H., Three Demotic Papyri in Broklyn Museum, A contribution to the study of contracts and thier instruments in Ptolemaic Egypt, "Symbolae osloenses, fasc. supple. 24 (1974), PP. 179-188"; P. Grenf. II 14 (d).

(63) Peremans, le bilinguisme dans les Egypt Creco- Egyptienes, sous les ptol., "stud. Hell., 27 (1982) P. 272".

(64) P. Grad . 7.

(٦٥) لم يكن وضعا مثل هذا مستهجنا فى نطاق الادارة البطلمية، إذ يتضح من بعض وثائق أحد مصارف طيبة المالية، أن أحد مديريها وكان يدعى ديودوتوس كان يوقع على الوثائق بوضع من ٢ - ٥ صلبان (O. Stras., 7; O. Wilck., 329, 331 ويبدو من الوثائق أنه كان يعمل فى خدمته ثلاثة كتاب Cf. Bogaert R.; Liste Chronologique des banquiers royaux thebains 225-84 J.C., "Z.P.E. 75(1988) P.118".

(66) Jouguet, vie, P.63.

(67) P. Magd, Mel. Nico., PP. 282 ff; Engers, Kwmwn, PP. 68-70.

(68) Tomsin A., Etudes sur les Presbuteroi "Acadamie Royale de Belgique, 38, (1958) P. 122; cf. P. Tebt, 712, 713, 907.

(٦٩) نصحى ، جـ٣ ص١٥٠ .

(70) P. Petrie II 42 (a).

(71) B.G.U., VI, 1218, II. 5-6; Dack, chr. d' Eg., 23 (1948) P.60.

(72) P. Rev. Laws, Col. 39, L.19, Col. 40, I. 8.

(73) Dack, Chr. d' Eg., 23 (1948) P. 158.

(74) Dack, stud. Hell., 7 (1951) PP. 25-26.

(75) P.C.Z., 59300.

(76) P. Tebt., 133 Verso.

(77) P. Tebt., 714, I, 880; II. 1-3, 958, II, 1-3".

(78) P. Tebt., 796, II. 14-15.

(79) Dack, stud. Hell., 7 (1951) P. 18.

(٨٠) نصحى ، جـ٣ ص١٣٣ .

(81) Edgar, Zenon Michig. Coll. Pap., P. 38. نصحى ، جـ ٣ نفسه،

(82) Edgar, OP. Cit., P. 6.

(83) Cf. P.C.Z. 59366, 59352.

(84) P. Tebt., 993.

(85) P. Petrie II, 42 (a).

(86) P. Tebt., 703, II. 40-49 (Late 3rd Cent. B.C.).

(87) P. Tebt., 701, II. 337-341.

(88) Bouche - Leclercq, III, P. 389.

(89) Maspero, Finances, PP. 201-214.

(90) P. Petrie 42 (a), 75; P. Hib., 198, II. 28-29; S.B. 7203; P. Tebt., 335, 701,

(91) Crenfell, Com. on P. Rev. Laws, Col. 37, P.117; Samuel A., The internal organization of the Nomarch's Bureau in the third cent. B.C., "B.A.S.P.I., (1966) P. 214".

(92) P. Hib., 198, II. 28-29.

(93) P. Tebt., 788.
(94) P. Tebt., 792, About 113 B.C.
(95) P. Tebt., 41.
(96) Bouche - Leclercq, III, B. 393.
(97) Engers, Kwmwn, P. 17.
(98) Grenfell & Hant and Smyly, Pap. Tebt., I, p.92.
(99) P. Petrie II 42 (a), III, 89.
(100) P. Gurob 5, p. Enteux., 83.
(101) P. Rev. Laws, Col. 39, L.9, Col. 40, L.8.
(١٠٢) نصحى ، جـ٣ ص١٤٩ .
(103) Engers, Kwmwv, PP. 16-18, 58-63.
(104) Jouguet, Vie, P. 63.
(105) Ibid.
(106) Ibid., PP. 64-65.
(107) Bouche - Leclereq, III p. 392,
(108) Cf. P. Grenfell II32,

يجب أن نضع فى الاعتبار أن ترتيب الأسماء فى الرسائل الرسمية، لايعد دليلا أكيدا على تحديد رتبة الأشخاص، ذلك أن عملية المراسلة تأثرت بصلات القرابة بين المتراسلين وتداخل الاختصاصات، وعلى الرغم من تسلمينا بتدهور مركز عمدة القرية فى القرن الثانى ق.م. لصالح كاتب القرية، فإن لقبه يرد سابقا على لقب كاتب القرية فى وثيقة يعود تاريخها إلى عام ١١٢ ق.م . P. Tebt., 22

(109) I - P.Tebt., 39, 44,51,53, 125-129, 793,798, P. Petr. II 34 (a), P. Gourob 8,
(110) Gourob5; p. tebt., 796, 805; P. Ent., 83.
(111) P. Tebt., 22.
(112) P. Tebt., 43.
(113) P. Tebt., 44-51, 714-715.
(114) American Studies in Papyrology, II, PP.161.
(115) Engers, KwMwv, PP. 58-59.
(116) Cf. American Studies in Papyrology, P. 161.
(117) Amer. Stud. in Pap. II, P.61.
(118) Tomsin, Acad. Roy. de Belg., 38 (1958) P. 122.
(119) P. Tebt., 13,50.
(120) P. Tebt., 40.
(121) P. Tebt., 13,50.
(122) P. Tebt., 842.
(123) Cf. P. Tebt., 128, 788; B.G.U., 1843; P. Lond. inV., 2090.
(124) P. Tebt., 43.
(125) Cuvigng H., La Survillance de recoltes, Genematophylakia, Chr. d'Eg., 59, (1984) P.131.

(126) P. Tebt., 183.

(١٢٧) أى الشخص الذى كان مسئولا عن تقديم P. Tebt., I, P.526, Misthwseis أى ايجارات الأرض الملكية فى القرية . Leiddle - Scott, Lexicon, P. 448.

(128) P. Tebt., 711.
(129) Pap. Tebt., I, P. 114.
(130) P. Tebt., 922.
(131) P. Tebt., 1057.
(132) P. Tebt., 711.
(133) P. Lille P. Lille II, L. I.
(134) Cf. Tebt., 183,

ويتضح مـن إحدى الوثـائق P. Tebt., 5. أن مخالفات حراس المحاصيل كانت شائعة.

(135) P. Petrie II 39 (a).
(136) P. Hib., 35.
(137) P. Tebt., 412.
(138) Preaux , Eco. Roy., P. 119.
(139) Cf. Heron, Geometrica 2; Herod.,II 109, Diod, 177, 6; Strabo., XVII, 13,

اقتفى البطالمة أثر الفراعنة فى وضع نظام دقيق يقتضى مسح الأرض وعمل سجل دقيق يتم تجديده كل عام يبين مساحة كل قطعة ونوع حيازتها واسم حائزها وحالتها الزراعية Rostortzeft, Sec. and Eco., P. 175 وكانت أرض القرية تنقسم إلى أحواض Perichwmata لغرض المساحة السنوية P. Lill., 127; P. Tebt., 62 introd; P. Merton, 5. P.23 وكان يتصل بعملية مسح الأرض عمليتان أخريان أحدهما إعداد اللائحة السنوية للزراعة P. Rev. Laws, Col. 43, 11. 3-8, P. Tebt., 808, II. 8-15.

وعملية توزيع البذور التى كانت تقدمها الحكومة كسلف نوعية سنوية للمزارعين .P.Mich. zen., 119,

(140) Cf. P. Rev. Laws, Col. 42, 1.2, 42, I. 2,43 I. 20, P.S.I., 502, I.27.
(141) P.S.I., 502; P. C.Z., 59387; P. Tebt., 81, Col. I., I.3.
(142) Bengin j., Les stratege de nom , 1969, p. 112.
(143) p. petrie III 94, 95; s. B. 4369 a, Engers, op. Cit., p. 34, Crawford, Kerkeosiris p. 92, N. 7.
(144) p. Amh., 31; p. Tebt. 12, 66-70, 831.
(145) p. Tebt., 831, 11. 1 - 6 .
(146) p. Tebt. 922 .
(147) p. petrie37, p. 78 .

(148) p. petrie 42 (a), III 43; p. Lond. inv. 2089, Bevan, op. cit. pp. 117 - 118 .

(١٤٩) نصحى ، جـ٣ ص ص ٤ - ١٠ .

(150) p. Tebt ., 706 .

(151) p. Tebt., 13 .

(152) Cf. Bengin, op. Cit., p. 112.

(153) p. Tebt., 50 .

(154) p. Mich . zen ., 19 .

(155) p. Tebt., 70, 11. 1 - 6 .

(156) p. Rev. Laws, Col . 41, 11. 14 - 19; B. G. U. 1225, 1. 31; p. petrie III. 88 - 92 .

(157) Cf. p. petrie III 89. preaux, Eco. Roy., pp. 119 - 120, nn. 1 - 2 .

(158) p. Hib., 48; p. Rev. Law, Col. 42.

(159) Cf. p. C. Z., 59113 - 59114 .

(160) p. petrie 39 (a) .

(161) p. Tebt,. 22.

(162) p. Tebt., 708 .

(163) p. Tebt., 848 .

(164) p. Tebt ., 852 .

(165) p. Tebt., 735 .

(166) p. Tebt., 842 ..

(167) p. Tebt., 159.

(168) p. Tebt., 792.

(169) p. Tebt., 993.

(170) p. Tebt., 1023 .

(171) p. Tebt ., 128 .

(172) p. Tebt., 704, 11. 12 - 25, 748 - 50 , 753; preaux, Eco. Roy., pp. 143 - 144.

(173) S.B. 7203 .

(174) p. Rev. Laws col . 39, 1. 9 , col. 40. I. 8.

(175) p. Tebt., 1057 .

(176) p. Tebt., 709 .

(177) P. C. Z. 59245 .

(178) Cf. B. M. P. inv. n. 2363 .

(179) P. Yale inv., 913 .

(180) P. Gourob, 5.

(181) p. Tebt., 805.

(182) p. Tebt., 796 (115 B. C.) .

(183) p. Ent., 83 .

(١٨٤) يبدو أن سلطة عمدة القرية فى إرساء العدالة كانت مرتبطة بتلك التى كانت لكاتب القرية، وفى الواقع أننا لدينا مجموعة كبيرة من الوثائق الخاصة بكتاب القرى من بينهما التماسات وشكاوى قدمت إليهم، وأغلب هذه الألتماسات جاء من مجموعة تبتونيس

البردية، أرسل بعضها إلى منخيس كاتب قرية كركيوسيريس,53 ,51 ,44 ,39 ,.p. Tebt
p. Tebt., 793, 798; p. pet. وأرسل بعضها الآخر إلى كتاب قرى آخرين 125 - 129.
.III34 (a); B. G. U. 1254, 56 ويبدو أن مهام عمدة القرية فى إرساء العدالة كانت تتأثر
بتلك التى لكاتب القرية ، بيد أننا يجب أن نضع فى الإعتبار أنه لما كان عمدة القرية
وكاتبها من صغار الموظفين فلم يكن من سلطتهم توقيع العقاب .Cf. Am. Stud. in pap
p. 158, n. 2 ويبدو من الالتماسات المقدمة إلى عمد القرى أنها لم تكن لها علاقات
بإيرادات الملك النقدية ، بل كانت تقتصر على الموارد النوعية، ويتضح من الوثائق أن
الالتماسات المقدمة إلى كتاب القرى تعود كلها إلى القرنين الثانى الأول ق.م. ويبدو منها
إنه كان مهتماً بنفس النوعية من الشكاوى التى كان يتلقاها عمدة القرية ، ويبدو أن مرد
ذلك هو بروز كاتب القرية إلى مقام الصدارة فى القرية بعد أن أصبح مسئولاً عن
الإيرادات الملكية ومن ثم صار على اتصال مباشر بكبار الموظفين فازدادات مكانته مما
جعل الأهالى يلجأون إليه بشكواهم حتى إن عمدة القرية وشيوخها اشتكو إليه من عدوان
وقع عليهم فى الجرن . .cf. P. Tebt ., 128. – cf. p. Yale , p. 158

(185) p. Hib., 35 (250B. C.).

(186) CF. Bouche Leclercq, III pp. 191 - 92; preaux, op. cit.; p. 488; Rostovtzeff, S. and E. p. 280 .

(187) P. C. Z. , 59379 verso .

(188) Swidereck A., Le societe indigen en Egypt au III Siecle a. v. notre era d'apres les archeves de zenon," j. j. p. VIII - VIII (1953 - 54) p. 250".

(189) P. Tebt ., 701, 11. 331 - 347 .

(190) Ibid., L, 274 .

(191) p. Tebt., 711 .

(١٩٢) راجع ص ٦ .

(193) p. Tebt., 67, II. 70 - 75.

(194) p. Tebt., 24, II. 50 - 70

(195) p. Tebt.,183.

عرض الكتب

رد على مقال

الجديد فى وثائق الجنيزة الجديدة

للأستاذ الدكتور/ عطية أحمد القوصى

السيد الأستاذ الدكتور / سيد أحمد على الناصرى
رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب
ورئيس تحرير دورية المؤرخ المصرى

تحية طيبة وبعد ،

نشر فى دورية "المؤرخ المصرى" فى عددها العاشر (يناير ١٩٩٣، صفحات ١٧٩ - ١٨٥) مقال تحت عنوان "الجديد فى وثائق الجنيزة" للأستاذ الدكتور عطية أحمد القوصى .

ينقسم المقال فى صفحاته الست إلى قسمين أساسيين يتناول كاتبه فى **القسم الأول :** (صفحات ١٧٩ - ١٨٣) عرضاً موجزاً لمحتوى وثائق الجنيزا معتمداً على ما ذكره جويتاين (دون توثيق للمرجع) ومعالجة هذه الوثائق للجوانب التاريخية والإقتصادية والإجتماعية والسياسية . كما عرض سيادته فى مقاله تجربته فى التعامل مع وثائق الجنيزا أثناء إعداده لكتابيه "تجارة مصر فى البحر الأحمر" و "اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية" ومدى استفادته من الوثائق فى استخلاص مادة طيبة لموضوعات كتبه، ومدى ترقبه للكشف عن وثائق تحمل معلومات جديدة عن تاريخ مصر الإسلامية . **وفى القسم الثانى :** من المقال (صفحات ١٨٣ - ١٨٥) يتطرق فيه الأستاذ الدكتور عطية القوصى إلى الحديث عن "دليل وثائق وأوراق الجنيزا الجديدة"

الذى أصدرته لجنة الجنيزا بمركز الدراسات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة عن وثائق الجنيزا التى قامت هيئة الآثار المصرية (قطاع الآثار الإسلامية والقبطية) بإستخراجها من مدفنها فى حوش موصيرى بالبساتين. ثم عرض الأستاذ الدكتور عطية القوصى محتوى دليل وثائق الجنيزا التى صنفت فى وثائق خاصة بالتعليم، ووثائق الشئون الدينية، ووثائق خاصة بالحياة الإجتماعية ، ووثائق النظم الإقتصادية ثم أعرب سيادته عن أحاسيسه عند تصفحه "لدليل وثائق الجنيزة الجديدة" لأنه لم يجد فيه ضالته، ولاحتوائه على أوراق لا تصل قيمتها إلى قيمة وثائق الجنيزا القديمة، ولا تستحق المجهود الذى بذل من أجل إبرازها وإخراجها - على حد قوله - لأنها لا تحتوى على مادة جديدة تضيف الجديد للبحث التاريخى، ولكنها تضمنت "مجموعة أوراق وجد مثلها وكثر منها فى الجنيزة القديمة لم يهتم الدارسون الأجانب بدراستها لقلة قيمتها" (انظر ص ١٨٣) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مقال أ. د. عطية القوصى يحتسب مقالاً غير بحثى وكان الأجدر به أن ينشر تحت عنوان "خطاب إلى رئيس التحرير" حيث أنه يفتقر إلى مقومات البحث المعروفة والمتمثلة فى المنهج العلمى والتوثيق، من حيث المصادر والمراجع التى استقى منها سيادته المادة العلمية لمقاله . كما أنه يتضمن هنات تقوم لجنة الجنيزا بمركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة بتصويب بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - ورد فى صفحة ١٧٩ وفى جميع صفحات المقال كلمة "جنيزة" وكتابة الكلمة بهذه الصورة لا تتفق مع القواعد الصوتية للغة العبرية وصحيحها جنيزا .

٢ - ورد فى المقال صفحة ١٧٩ "أن الكلمة تعنى حجرة الدفن التى تتخذ كمخزن ملحق بالمعبد اليهودى" وصحيح ذلك أن الاسم يشير إلى

مجموعة من الوثائق المحفوظة الخاصة بجماعات اليهود الذين عاشوا فى مصر وغيرها فى العصر الوسيط، كما يدل على المكان الذى اكتشفت فيه سواء كان معبداً أو مقبرة يهودية ويدل مفهوم الجنيزا على الحفظ والإقتناء.

٣ - ذكر سيادته فى صفحة ١٧٩ سطر ٣ ، ٤ "يعتقد يهود العصور الوسطى بأن الأوراق التى كتبت عليها بالعبرية تكتسب القداسة من هذه اللغة....." ومن المعروف أن اليهود اعتقدوا فى قداسة اللغة منذ أيام التوراة.

٤ - ورد فى نفس الصفحة : سطر ١٤ ، ١٥ "فقاموا بالبحث عن هذه الجنيزات" والصحيح أنهم لم يبحثوا عنها، بل عثرت سيدتان أستكتلنديتان بالصدفة عند أحد تجار العاديات على ورقتين فأخذتاها إلى شلوموه شيختر الذى اكتشف بدوره أنهما من مخطوطة كتاب الحكمة لابن سيرا. وورد أيضاً فى نفس الصفحة (جنيزات ، جنائز) والصحيح أن الجنيزا لا تجمع بالجنيزات لأنها هى نفسها اسم جمع، ولا تجمع بالجنائز لأن الجنائز جمع جنازة (وما بين الجنازة والجنيزا هو جناس فقط) .

٥ - وردفى صفحة ١٨٠ سطر ١٥، ١٦ من المقال أن وثائق "الجنيزة" تعد بحق المصدر الرئيسى للتاريخ الإجتماعى لمصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى.

وتستشف اللجنة هنا اعتماد الأستاذ الدكتور عطية القوصى على مرجع جويتاين حيث أنه لم يذكر العصور المتأخرة، وكم كان أحرى بالأستاذ الدكتور عطية القوصى أن يرجع إلى وثائق أصلية من مجموعة الجنيزا بدلاً من اعتماده فى بحوثه ودراساته كلها على ترجمات جويتاين لهذه الوثائق، وما يحيط هذه الترجمات من أهواء وغايات .

وتود لجنة الجنيزا بمركز الدراسات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة أن تنوه إلى خطورة الإعتقاد بأن الأوراق التى يعثر عليها الآن فى الجنيزا هى أوراق غير قيمة، فقد كان هذا هو نفس السبب فى تسرب وثائق الجنيزا للخارج، حيث أعتقد الناس آنذالك بعدم أهميتها وجدواها فتم الإستغناء عنها. ولو أن جيل القرن التاسع عشر أولى إهتماماً بما أعتبرها آنذاك نفايات وأوراق بالية، لما آل الأمر إلى أنها تقبع الآن منذ مائة عام فى مكتبات أوروبا وأمريكا .

وتنوه اللجنة أيضاً إلى أن مصطلح "دليل" يعنى إرشاد القارئ والأخذ بيده للكشف عن رقم ومكان ومحتوى الوثيقة فقط، ولا يشترط فيه قراءة الوثائق ، فالقراءة تندرج تحت مسمى بحثى آخر، ولا تندرج مطلقاً تحت مسمى "الدليل" .

ولجنة الجنيزا بمركز الدراسات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة إذ تعرب عن أملها فى تقنين المزيد من المكنوزات المدفونة فى جزء ثانى للدليل، لإرشاد القراء والأخذ بأيديهم للكشف عن رقم ومكان وفحوى الوثائق فقط، تدعو الباحثين مستقبلاً للإهتمام بقراءة الوثائق الأصلية وبخاصة وثائق القرنين التاسع عشر والعشرين لإستخلاص مزيد من المعلومات ولاستشفاف أحوال اليهود فى هذين القرنين .

ولا يخفى على الأستاذ الدكتور عطية القوصى أن كل ما يتعلق بوثائق الجنيزا من حيث العثور على الوثائق وفهرستها وتصنيفها وتحقيقها ونشرها لها أهداف قومية، وبخاصة إذا قام بها الأساتذة المصريون بهدف إلقاء الضوء على الأحوال الإقتصادية والحياة الإجتماعية والثقافية الخاصة باليهود ومن أتصل بهم فى مصر وغيرها ، وإن كل جهد مبذول فى هذا الإتجاه جهد مشكور، لابد وأن يكون موضع تقدير الباحثين المتخصصين ، ولا ترجع

أهمية هذه الوثائق إلى أنها من المصــادر التاريخيـة فقط ، بـل هـى فـى غايـة الأهميـة للمشـتغلين باللغويـات وعلـم قـراءة الخطـوط والوثــائق والمجــالات العلمية المختلفة.

نرجو سيادتكم التكرم بنشر هذا الـرد فـى دوريـة (المـؤرخ المصـرى). وفقنا اللـه جيمعـاً لمـا فيـه خدمـة تاريخنـا القومـى، وتعريـف الأجيـال القادمـة بالمصادر التاريخية الأصلية ، لتنمية شعور الإنتماء والوعى التاريخى .

وتفضلوا بقبول وافر الإحترام.

عن لجنة الجنيزا بمركز الدراسات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة

أ. د. بحر عبد المجيد   أ. د. حسنين محمد ربيع   أ. د. نازك إبراهيم عبد الفتاح

د. شادية توفيق حافظ   د. ليلى أبو المجد

Alan . E. Samule :

From Athens to Alexandria : Hellenism and Soical Goals in Ptolemaic Egytpt (Studia Hellenistica No. 26) Leuvain, Belgium : Katholieke Universiteit Leuven 1983, ppxl, 130 .

"من أثينا إلى الأسكندرية": الهللينية والأهداف الاجتماعية فى مصر البطلمية، تأليف الان ب صمويل .

عرض وتلخيص أ.د. **سيد أحمد على الناصرى**

أستاذ ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب - جامعة القاهرة

وهذا عمل آخر يتجه به مؤلفه نحو الحقل الاجتماعى فى ميدان التاريخ، فمن المعروف أن مصر الهللينستية بثرائها فى المصادر البردية والنقوش تمثل منجماً غنياً لدراسة الحقل الاجتماعى يندر أن تجده فى أى قطر آخر من أقطار العالم القديم، ومن المعروف أيضاً أن العصر الهللينستى هو عصر امتزاج الحضارات الشرقية مع الحضارة الأغريقية، غير أن الأستاذ الآن صمويل يرى غير ذلك، **فهو** يراه عصر المواجهة **بين الحضارتين: المصرية العريقة،والأغريقيةالوافده** فكلتاهما كانتا تتحدى الأخرى ونتج عن هذا التحدى تفجر الابتكار والمنافسة خلال القرون الثلاثة التى تلت موت الأسكندر.

والشطر الأول من هذا الكتاب يناقش النظرية الاقتصادية اليونانية فى العصر الكلاسيكى. ففى القرن الرابع ق. م. كان هناك فئة من المفكرين الاقتصاديين الأغريق الذين كانوا معروفين فى مدنهم ومعروفين لدى القصر المقدونى كانوا مدركين لضرورة تحديد الأسعار، ولفكرة العلاقة بين الدخل وتغيره، وبين التغير فى مستويات المهنة . فالمفكرون الاقتصاديون القدماء كانوا يرون أن توصيف النشاط الاقتصادى عملياً ونظرياً كان جزءاً لا يتجزأ من هيكل الفكر السياسى والاقتصادى والأخلاقى الذى كان من أهم أهدافه الاكتفاء الذاتى والرخاء والاستقرار الاقتصادى. إذا لم يكن هناك أدنى اهتمام

لفكرة التطوير أو التخطيط الاقتصادى بهدف التنمية لأن مجال الكسب كان مفتوحاً بلا نهاية ولاحدود، ولا تخطيط وهذا كان على حساب حماية الفرد من الاستغلال بل كان يؤدى أحياناً إلى عدم الاستقرار الاقتصادى .

من المعروف أنه من سمات المجتمع الأغريقى أنه يتمثل فى مجموعة من النشاطات الاقتصادية تسعى لتحقيق أهداف محددة ليست بينها أى هدف لتنمية الموارد أو التنمية الاقتصادية، بينما يستخرج الباحث من الوثائق المتاحة لديه قبل القرن الرابع ق. م. اهتماماً طويل المدى يتماشى ويتناسق مع هذه الأهداف وهذا يدل على وجود نظرية بناءة فى الاقتصاد عند الأغريق .

أما باقى أجزاء الكتاب فيؤكد الباحث فيه أن وثائق البردى والنقوش فى مصر الهللينيستية تدعم من الرأى القائم بأن النماذج والخيارات الاقتصادية الكلاسيكية استمرت مطبقة طوال الثلاث قرون فى مصر، والباحث عالم ضليع فى الأوراق البردية ويستعرض قدرته وإمكانياته فى الوثائق (بعضها حديث النشر) ليؤكد هذه النظرية. وأنه لم يلحظ أى تغيير طرأ عليها، وأن النشاط الإنسانى لم يتغيرعما كان عليه فى القرن الرابع ق. م. ليس فى المجال الاقتصادى الزراعى حيث كانت مصر مزرعة العالم الهللنيستى فحسب، بل أيضاً فى مجال الاقتصاد الصناعى مثل التعدين، وسبك المعادن، وصناعة الفخار والسيراميك والهندسة والعمارة والأدب والفن وحتى الدين .

ويفتح صمويل النار على نظرية روستوفتزف القديمة والقائلة بنظرية المجتمع المزدوج فى مصر البطليمية. الذى يتكون من : (أ) الأغريق والمصريين المتأغرقين وهم الشريحة التى يأتى منها الحكام وأصحاب الوظائف ، (ب) المصريون والوطنين ذوى النفوذ فى الإدارة البطليمية وكيف حاول بعض الأغريق مقاومة هذا التيار الهادر للحضارة والإدارة المصرية، وفى النهاية خارت مقاومتهم وغرقوا فى بحرها العميق ومن الأدلة على ذلك

أن حجم الوثائق الديموطيقية من العصر البطلمى يفوق بكثير حجم الوثائق المكتوبة باليونانية (المصرية) بينما ظل الذوق العام للأغريق فى الأدب يغلب عليه طابع الأعمال الكلاسيكية من الالياذة والأودسا ومسرحيات يوربيديس وملاهى ميناندر، دون أن يعكس أى اهتمام بالآداب المعاصرة بالرغم من اعترافه بحالة ازدهار الآداب فى الأسكندرية. ومن هنا تقوقعت الثقافة الأغريقية حول الكلاسيكيات والتمسك بالعتيق منها رافضة لأن تسمح بدخول تيارات وأفكار جديدة إليها حتى أصبحت جزيرة منغلقة على نفسها من أجل البقاء فى بحر الحضارة المصرية، وظلت هذه الجزيرة تتأكل حتى إختفت كما اختفى المماليك والعثمانيون فيما بعد .

لقد قدم صمويل نظريته وهى جديرة بالدراسة والعرض والنقاش بالرغم من التجاوزات والمآخذ عليه، فمثلاً لا يقدم لنا دراسة واضحة الفرق بين نظام دويلة المدينة Polis الكلاسيكى وبين نظام المملكة الدولة فى العصر الهللينستى خاصة عندما يناقش نظريته حول الاقتصاد فى دويلة المدينة فى القرنين الخامس والرابع ق. م. .

كما أنه يعزف عن الخوض فى الربط بين ظاهرة الانفجار السكانى فى مصر الهللينستية وبين عامل الخلخلة الاقتصادية ، كذلك لم يعط المؤلف بعض الجوانب الأخرى حقها مثل الفصل الخاص بالفن الهللينيستى، ولا يربط بين هذه النشاطات الثقافية والفنية ، وبين الاقتصاد. ومهما يؤخذ على آراء صمويل، إلا أنها اتجاه محمود لتحطيم النظريات الكلاسيكية القديمة التى وضعها المؤرخون السابقون أو الرواد الأول لتاريخ مصر البطلمية والعصر الهللينستى، ويقدم دليلاً يختلف عن نظرياتهم التى كانت تروج لقوة اندفاع وحيوية الحضارة الأغريقية فى الشرق الأوسط فى العصر الهللينستى وتحديها للحضارة المصرية فى عقر دارها .

دراسة وعرض لكتاب دفاع عن حياة النبى محمد

للدكتور عبد الرحمن بدوى

أ. د. عطية القوصى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

أصدر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى، أستاذ الفلسفة والعلوم الإنسانية مجموعة إسلامية باللغة الفرنسية من باريس، تتألف من ثلاث كتب تدافع عن الإسلام والقرآن ونبى الإسلام ، وقد جاءت هذه الكتب تحت **العناوين التالية :**

١ - دفاع عن القرآن ضد منتقديه، صدر سنة ١٩٨٩.
"Defense du Coran contre ses critiques".
٢ - دفاع عن حياة النبى محمد ضد المنتقصين لقدره، صدر سنة ١٩٩٠ .
"Defense de la Vie du Prophete Muhammad contre ses detracteurs".
٣ - الإسلام كما إرتآه فولتير، وهيردر، وجيبون، وهيجل، وهو تحت الطبع.
"Islam vu par Voltaire, Herder, Gibbon, Hegel" .

وتأتى أهمية صدور هذه الكتب هذه الأيام لكونها صدرت عن عالم وفيلسوف عالمى كبير له مكانته وشهرته العلمية فى كل العالم وبخاصة بين وسط المستشرقين الأوربيين. وكذلك تأتى هجوما على المستشرقين من رجل ظل حياته العلمية معجبا بالمستشرقين والإستشراق ومترجما لعدد كبير من كتب المستشرقين ودارسا لها.

وأيضا تأتى هذه الكتب غاية فى الأهمية لأنها جاءت فى وقت أشتد فيه الهجوم على الإسلام والمسلمين فى الشرق والغرب، وكثرت الأتهامات

المغرضة والضربات الحاقدة ضد الإسلام، فصار الإسلام والمسلمون فى أمس الحاجة لمن يدافع عن قضيتهم ورسالتهم فى هذه الحياة، خاصةً وأن هذه الكتب صدرت من باريس أكبر عواصم الغرب وأكثر مدنها هجوما على الإسلام، وجاءت مكتوبة بلغتهم الفرنسية وهى لغة يعرفونها وتنتشر على مستوى العالم إنتشارا كبيرا.

والدكتور بدوى فى كتبه هذه لا يكتب من منطلق العصبية للإسلام لكونه مسلما، ولكنه يكتب من منطلق مدى الصدمة التى أحس بها حين درس ما كتبه المستشرقون الغربيون عن الإسلام والقرآن ونبى الإسلام ومدى الجهل والضلال الذى وقعوا فيه والكم الهائل من الأساطير والخرافات التى نسجت حول هذا الأمر فى العصور الوسطى وسار عليها المستشرقون المحدثون دون هدى ودون بذل آية محاولة لتصحيح هذه الأخطاء وتلك الأساطير التى نسج عليها كتاب أوربا المسيحيين فى العصور الوسطى رواياتهم حول الإسلام ونبى الإسلام.

يقول د. بدوى فى مقدمة كتابه هذا أنه يقدم هذا الكتاب ليصحح فيه ما كتبه كتاب البيزنطيين والأوربيين خلال قرابة إثنتى عشر قرنا فى موضوع النبى محمد.

ويضيف قوله "بأن الإسلام أصبح مرة" أخرى الغريم المستهدف من الأمبراطورية الرومانية وأوربا من وجهة النظر الأيدلوجية. ولقد قام هؤلاء بتوجيه هذه الدعاية السيئة ضد الإسلام بمساعدة عدد من رجال الدين المسيحيين الذين كانت بلادهم خاضعة فى الماضى لدولة الإسلام، من أمثال: (يوحنا الدمشقى، وثيودور أبى قرة، وإيليا مطران نصيبين، وعبد المسيح الكندى وغيرهم). وقد تبعهم فى نشر هذه الدعاية المضادة للإسلام رهبان أوروبا منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى وسار عليها كتاب الغرب حتى

يومنا هذا. ولقد وضعت هذه الدعاية المضادة فى روايات كاذبة واجبة التصحيح ، فإضافة إلى كونها ملفقة فإنها تمتلئ بالجهل التام بالحقائق التاريخية وذلك نبعا من الأعتقاد السئ الخادع.

وكان من ثمار هذه الدعاية المغرضة التى استمرت خلال القرون من التاسع إلى الرابع عشر التالية أن ظهر فى أوروبا كتاب "أسطورة محمد فى الشرق" "Legende de Mahomet en Occident" لمؤلفه البطريرك الأسكندر الأنكونى (Alexandre d' Ancona))

ومن دراستنا لما ورد فى هذا الكتاب وما ورد بعد ذلك من كتابات عن النبى محمد حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى كتاب قرننا العشرين هذا، نستطيع القول أنه رددت نفس الأباطيل التى وردت فى هذا الكتاب وأعتبرته المصدر الأصلى لمعلوماتها التى أخذتها عنه. وينطبق هذا الأمر على ما كتبه كل من "موير" "ولامانس"، أو ما كتبه أصحاب الأيدلوجية الماركسية من أمثال: (بارثولد وفاسيليف، وبرتلز Bertels) أو ما كتبه بعض المتهوسين الموتورين (من أمثال الأب الدومينيكانى وليم الصورى، الذى كتب كتاباته تحت إسم مستعار هو حنا زكريا).

ولهذا رأينا، بفحصنا لهذه المؤلفات، بعد دراسة الطبيعة العلمية لهؤلاء المؤلفين، برغم ما يتظاهرون به من التشدد العلمى، أنهم متعصبون كل التعصب لدينهم ولأوطانهم. ومسئولية هؤلاء الكتاب المحدثين عن التضليل التاريخى أثقل ألف مرة من مسئولية من سبقهم من الكتاب الأوربيين فى القرون السابقة، لأنه، وللأسف، لايوجد فى نصوص كتبهم ما أخذ حتى من مصدر واحد صحيح وثقة. بينما توافرت لهم كل المصادر المتاحة للتنوير. حقا أن هنالك بعض الكتابات عن الإسلام وعن نبى الإسلام جاءت صادقة ومعقولة (فيما كتبه من أمثال: وستنفيلد, وفلهوزن، وشيخو، وغيرهم). ولكن

هذه الكتابات ضاعت وسط الكم الهائل من الكتابات المضللة التى كتبها مستشرقو الغرب على مر العصور، حتى بدت هذه الكتابات للناظر أنها مجرد سراب.

ويختتم د. بدوى مقدمته بقوله: "ولهذا السبب أضطررنا ها هنا أن نفضح أخطاءهم وأن نفند ونرد على تجازواتهم، وأن نعدل أحكامهم المبنية فى غالبها، على وقائع خاطئة أو ناقصة مبتورة ـ كل هذا من خلال هدف قصدنا به القارئ غير المسلم نقدم له الإسلام وشخص نبى الإسلام من خلال تصور صحيح ومنصف".

ويقع كتاب د. بدوى فى ٢٤٦ صفحة من القطع المتوسط، جاءت المقدمة فى صفحتين، ويتبع د. بدوى المقدمة بتمهيد فى خمسين صفحة، جعله تحت عنوان: "أسطورة محمد فى أوروبا، عشرة قرون من الكذب الباطل والافتراء". وعرض فى هذا التمهيد لتصور كتاب أوربا فى العصور الوسطى عن الإسلام وعن نبى الإسلام وعن ظهور كتاب أسطورة محمد، ومدى تأثير هذا الكتاب على من كتب من الأوربيين عن الإسلام وعن سيرة محمد حتى القرن العشرين .

ولقد بدأ د. بدوى هذا التمهيد بقوله بما نصه :

"حين أردت أن أخوض فى فكر الأوربيين عبر العصور حول نبى الإسلام محمد، ذهلت تماماً لشدة جهل كتابهم وسوء طويتهم الواضح، وإغراقهم فى الوهم العتيق والغباء المحموم والأصرار التام على الجهل المطبق بأمور خصمهم .

ولا ينطبق هذا الأمر على العاديين من الناس منهم الجهلة والسذج، ولكنه ينطبق أيضا على كبار علمائهم وفلاسفتهم ومفكريهم ورجال دينهم ومؤرخيهم.وأمتد هذا الحال وشمل فترة انطلاق الفكر الأوربى فى الفترة

الواقعة بين القرون الثالث عشرة والسابع عشرة. ولم يكن خلال هذه القرون لدى مفكر واحد من مفكريهم الشجاعة فى أن تكون لديه المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام وعن نبى الإسلام. وينطبق هذا الأمر على كل من: البرت الكبير، وتوماس الأكوينى وروجر بيكون، وفرانسيس بيكون، وباسكال، وسبينوزا. لم يبذل أيٍ من هؤلاء العلماء أى جهد لفهم الإسلام رغما عن الأعمال الجيدة التى قدموها عن الفلاسفة والعلماء العرب.

وفى هذا الخصوص كتب الكاتب المنصف أدريان ريلان يقول :

"... إنه لتاريخ غريب ذلك الذى كتبه الكتاب المسيحون عن محمد... إنه تاريخ كله غموض وكراهية وحقد على شخص محمد : فلقد أتهموه ، فى كتاباتهم، فى أحد المرات بأنه ساحر، ومرة أخرى أتهموه بأنه فاسق زنديق، وقاطع طريق ولص يسرق الإبل، كذلك أتهموه بأنه كاردينال كاثوليكى فشل فى الوصول إلى كرسى البابا وية فى روما فأخترع دينا جديدا حتى ينتقم به من الكنيسة الكاثوليكية. لقد لصقوا بحياته كل التهم الوضيعة والجرائم المزعومة".

ويعرض د. بدوى فى هذا التمهيد إلى ظروف ظهور كتاب "أسطورة محمد" فى القرن الرابع عشر، وكيف أن مؤلفه البطريرك الأسكندر الأنكونى قد إستقى مادته من الخرافات التى ألفها المؤرخ البيزنطى ثيوفان (٧٥١ - ٨١٨م) فى **كتابه**: التاريخ (كرونوجرافيا Chronogrphia)، كذلك ما كتبه الكتاب بعد ثيوفان من **أمثال : سدرينو (ت ١٠٥٧) وزونارا (ت١١٣م) وجاك دى فترى (ت١٢٤٤م) ، وفانسان دى بوفيه (١١٩٠ - ١٢٤٦م)، وبيير باسكاسيو (١٢٢٨ - ١٣٠٠م)، ويعقوب الأكوينى (ت ١٣٣٧م)** وغيرهم.

ويكفى أن نعرض لخرافة من خرافات كتاب ثيوفان عن محمد حين يقول: أنه عندما توفى بطريرك الأسكندرية أراد راهب يدعى "ماثوموس" (ويقصد بها إسم محمد) أن يخلفه على كرسى البطريركية، ولكنه رفض بإجماع القسس وطرد، وحتي ينتقم ماثوموس لنفسه من الكنيسة روج عن نفسه أنه المسيح ودبر الزواج من أرملة غنية تدعى خديجة إدعى أمامها بأنه نبى، ودعى لنفسه بين العامة الذين التفوا حوله. ولقد قام ماثوموس (محمد) بتدريب بقرة بوضع كتاب صغير بين قرنيها. وفى أحد الأيام أخرج البقرة من مخبئها ليراها الناس وليقرءوا كتابه المقدس الذى وضعه بين قرنيها وكان هو الأساس الذى وضع فيه تعاليمه .

ويحلل د. بدوى هذه الرواية المختلقة من أن مؤلفيها وضعوها على أساس أمرين، الأمر **الأول**: هو قصة الراهب بحيرى التى وردت فى سيرة ابن هشام، **والثانى**: من اسم سورة البقرة الواردة فى القرآن. وقد قام خيال هؤلاء الكتاب المسيحيين بالمزج بين الأمرين واختلاق هذه الرواية الساذجة المزيفة.

وبزعم دور بحيرى الراهب مع محمد، توصل كتاب المسيحيين فى العصور الوسطى إلى أن محمداً كان مسيحيا مذنبا إنشق عن أحضان المسيحية وأدعى دينا جديدا. ومن أجل تأكيد وإشاعة هذا الزعم قال بييردى كلونى. Pierre du cluny، محمدا أخذ كل إدعاءاته من بحيرى الذى يسمى حقيقة باسم "سرجيوس"، وهو من جماعة الهراطقة النساطرة، وأنه حين طرد من الكنيسة إرتحل إلى جزيرة العرب. ولقد زود سيرجيوس، فى زعمه، محمدا بكل ما كان ينقصه من معرفة بتعاليم العهدين القديم والجديد، كذلك زوده بشرح مفسر لتعاليم المذهب النسطورى، الذى لا يعترف بألوهية

المسيح، مع ما أضافه له مـن بعـض الروايـات المقتبسـة مـن بعـض الأنـاجيل المزيفة.

وقد سـار جـاك دى فيترى (ت١٢٤٤) علـى نفس الـدرب، وقـال بـأن محمدا كان قسيسا يدعى سوسيو Sosio وقد أدانـه بابـا رومـا بالهرطقـة ونفـاه إلـى الجزيـرة العربيـة. وهنـالك أنتقـم مـن أعدائـه بـادعائه النبـوة، واستخرج تعاليمه من كتابه العهد إضافة إلي ما وسوس الشيطان به إليه.

ولقد وصـف مـارتين بولونكـو M. Polonco محمـدا بأنـه مجوسـى، ووسمه بالكذب وبأنه رئيس لقطاع الطرق ولصوص القوافل، وأنه تعلم علـى يد راهب مارق كافر يدعى سيرجيوس، وأن تشريعه الذى حرمته الكنيسة هـو تشريع من وحى الشيطان.

وأدعى مؤلف كتاب نيقولا Liber Nycolay أن محمدا هـو نقـولا وأنـه كان واحداً من سبعة كاردينالات الكنيسة الرومانية، غضب عليه البابا لورنزو فأرتحل إلي جزيرة العرب وأقام له دينا جديدا بقصد تخريب الديانة المسيحية. وأن نيقولا هذا قتل على يد رجل يدعى مرزوق دس له السم بعـد أن أكتشـف خيانته مع زوجته كاروفا التى كانت عشيقة لنيقولا.

ولقد نسج صاحب هذه الرواية روايته على خبر صغير ورد فـى سيرة ابن هشام مضمونـه أن يهوديـة تدعـى زينـب بنـت الحـارث زوجـة سـلام بـن مشكم، زعيم يهود بنى قريظة، قد سمت محمدا بوضع السم له فى ضلـع شـاة وأنه مات، بسبب هذا السم، بعد أربع سنوات من وقوع الحادثة. ولقـد تحولت زينب عند كتاب الغرب إلى كاروفا وتحول زوجها سلام إلـى مـرزوق ونسـج خيـال المستشرقين المريـض هـذه الروايـة التـى تبيـن مـدى ضحالـة وتفاهـة تفكيرهم .

ويؤكد يعقـوب الأكوينـى (ت١٣٣٧م) فـى كتابـه: صـورة العـالمImago mundi ، أن كل ما جاء به محمد قد أخذه عن المسيحية. وأن ذلك قد تـم بعد أن طردت كنيسة روما الشماس نيقولا، فأرتحل وركب البحر ووصل إلي بلاد فارس ومنها إلى الجزيرة العربية حيث التقى هنـالك بمحمد التـاجر وراعـى الغنم، وهنا لك أجتمع إليهما قسيس آخر يدعى سيرجيوس، وأتفق الثلاثة علـى أختراع دين جديد يعادى المسيحية. وقد أخذ الثلاثـة تعـاليم دينهم الجديـد مـن تعاليم المسيحية واليهودية. ولقد أنهـى يعقوب الأكوينـى روايتـه بكيفيـة مـوت محمد مسموما على يد إمرأة يهودية.

ويذكر د. بدوى أن هذه الأفكار عن حيـاة محمـد وعقيدتـه ظلـت سـائدة على ضلالها وافترائها فى أوروبا حتى القرن الحالى. وطوال هذه القـرون لـم ينصف محمدا وديانته كاتب من كتابهم سوى المـؤرخ أدريـان ريـلانAdrien Reland الذى ولد فى ١٧ مايو ١٦٧٦ بشمال هولنـدة وتوفـى فـى ٥ فبراير ١٧١٨ عن عمر يناهز الثانية والأربعين. وقد كان ريلان ضليعـا فـى دراسـة اللغات العربيـة والعبريـة والفارسية واليونانيـة واللاتينيـة. ألـف كتابا عنوانـه "العقيدة المحمدية" "de Reglione Mouhamedia" ترجـم إلـى الألمانيـة سـنة ١٧٢١، ثم إلى الإنجليزية.

وينقسم الكتاب إلى جزئين : **الجزء الأول** عبارة عن تحقيق لمخطـوط كتاب عن العقيدة الإسلامية لمؤلف مسلم، حققه وصحبه بترجمة لاتينية للنـص أورد عليها ملاحظات كثيرة واضحة. **والجزء الثـانى** عـالج فيـه ريـلان آراء المستشـرقين الأوربييـن المزيفـة المنتشـرة فـى أوروبـا عـن الإسـلام والقـرآن والسنة، معتمداً فى معالجته على القرآن والسنة وآراء عدد وافـر مـن علمـاء المسلمين.

ولقد ذكر ريلان فى مقدمة كتابه أنه قصد من تقديمه أن يواجه المعارك الضارية الموجهة ضد الإسلام وأن يدحض الأساطير الموضوعة على يد الكتاب الأوربيين والمسيحين لتشويه صورة محمد وصورة الرسالة التى جاء بها. ولقد وصف ريلان أولئك الكتاب بالكذب والحماقة والسعى لتخريب الإسلام ووقوفهم خصوما فى وجه هذه الديانة الحقة.

ثم يقسم د. بدوى كتابه إلى ستة فصول، جاءت عناوينها كالتالى:

الفصل الأول : صدق محمد فيما نزل عليه من وحى **(فى ٢٠ صفحة).**

الفصل الثانى : نزوات محمد المزعومة **(فى ٢٠ صفحة).**

الفصل الثالث : سياسة محمد تجاه خصومه **(فى ٧٠ صفحة) .**

الفصل الرابع : التزام محمد بما عقده من معاهدات **(فى١٠صفحات).**

الفصل الخامس : الفرائض الإسلامية وأصولها التى أقرها النبى **(فى ٢٥ صفحة).**

الفصل السادس : نقد التنديد بصحة رسائل وخطب وأحاديث النبى **(فى ١٥ صفحة).**

فى الفصل الأول يعرض الدكتور بدوى لرأى المستشرقين فى أمر الوحى الذى كان ينزل على الرسول، ومن إتهام بعضهم للرسول من أنه كان يصاب بالصرع والتشنج العصبى والحمى وقت نزول الوحى عليه ، وكان المستشرق سبرنجر A. Sprenger من أكبر المشيعين لذلك وفقاً لما أورده فى هذا الخصوص فى كتابه "حياة وعقيدة محمد" نقلا عن ثيوفان:

(Das Leben und Lehre des Mohmmad, I, Berlin 1861)

كذلك وافقه فى هذا الرأى المستشرق الفرنسى تور أندرية Tor Andrae فى كتابه : **"محمد حياته وعالمه"** .

(Mohammed, sein leben und Glaube, Gottingen 1932).

وبعد أن استعرض د. بدوى ما ورد فى المصادر الإسلامية بصدد هذا الأمر مما ينفى إدعاء هذين المستشرقين، مستشهدا فى ذلك أيضا بآراء بعض المستشرقين التى تنفى حدوث الصرع والتشنج العصبى عند الرسول وقت نزول الوحى عليه، مثل فرانتز بهل وجودفروا دى مومبين فى كتابيهما عن النبى الذى جاء بعنوان "محمد" .

ويقرر د. بدوى أن كتاب سبرنجر من أكثر الكتب المتعصبة ضد سيرة نبى الإسلام. ولقد دافع دى مومبين عن محمد ضد هذا الأتهام بقوله: "كيف يتهم محمد بالصرع وهو يتلو ما ينزل عليه من كلام واضح عظيم هو القرآن!!" .

حقيقة ليس هنا لك سخفا أكثر من اتهام محمد بالهياج والصرع. وإن حياة محمد وسلوكه قبل الوحى وبعده حتى وفاته لم تشهد إشارة واحدة أو عارض صرع أو هستيريا على الإطلاق. والمرضى بالصرع عادة ما يلازمهم المرض وتظهر عليهم أعراضه طوال حياتهم، وكتب السيرة جميعها أثبتت سلامة صحة محمد طوال حياته. والمصاب بالصرع عادة ما يتصف بالضعف فى شخصيته وعدم التماسك وعدم القدرة على مواجهة الشدائد واتخاذ القرار. وقد كان محمد قوى الشخصية نبيل الصفات، صلباً أمام التحديات، صائب الرأى والقرار. كذلك فإن المصابين بالهياج العصبى دائما ما يعيشون فى الأوهام وينسجون الروايات الكاذبة على عكس ما وصف به محمد، طيلة حياته، من أنه الصادق الأمين الذى لم يجرب عليه كذب أبداً بشهادة أعدائه قبل أصدقائه.

ومن العجيب أن يواصل كتاب أوربا حتى القرن ١٩، هذه المزاعم، بما جاء فى كتابات جين مارتان شاركوت (١٨٢٥ - ١٨٩٣) وبيير جانت (١٨٥٩ - ١٩٤٧).

الفصل الثانى من الكتاب يورد ما صدر عن المستشرقين بصدد ما زعموه عن نزوات محمد الجنسية وحبه للنساء، ودليلهم الوحيد الذى يقدمونه على ذلك هو كثرة أزواجه. ولقد خصص سبرنجر فصلاً فى كتابه عن زوجات النبى، ذكر فيه "أن تعدد الزوجات بين العرب قبل محمد كان شائعا، إلا أن الأفراط فيه كان يعد عندهم فحشا لكن الرسول أورد بأن الله سمح له وأحل له دون غيره من المؤمنين بالزواج بأى عدد من النسوة، وذلك وفقما ورد فى الآية ٤٩ من سورة الأحزاب التى تقول: "يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك وإمرأة مؤمنه إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين" وأضاف سبرنجر القول بأنه قد نسب للرسول حديث مفاده :

"حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة"، ولقد قال المفسرون أن الدعوة التى أنيط النبى بحملها ثقيلة الوطأة عليه لذلك فإن الله منحه تعويضا عن ذلك بأنه أعطى قوة ثلاثين رجل مجتمعين فى الجماع. وقد كانت هذه الخاصية لبعض الأنبياءأمثال إبراهيم وداود وسليمان".

ومن خلال ما أورده سبرنجر فى هذا الخصوص، **أورد د. بدوى الملاحظات الأتية :**

(أ) كان تعدد الزوجات بغير حدود شائعا بين العرب قبل الإسلام، ولم يحدث أن أستنكر أحد من العرب هذا الأمر أو أنتقد شخص لزواجه من نساء كثيرات ولم يكن ذلك فحشا أبداً عندهم كما إدعى سبرنجر والإسلام لم يمنع تعدد الزوجات ولكن قصره بعدم تجاوز الجمع بين أكثر من أربعة حرائر فى وقت واحد وأطلق العدد إلى جانبهن من الجوارى. ونحن نعلم، على سبيل المثال، أن المغيرة بن شعبة تزوج ثمانين إمرأة خلال حياته.

(ب) إن الآيــة ٤٩ مــن ســورة الأحــزاب تحــل للرســول، دون بقيــة المؤمنيـن، الـزواج مـن زينـب بنـت خزيمـة، المعروفـة بـأم المسـاكين، والتـى وهبت نفسها زوجة للنبى إن أراد أن يـتزوج منهـا دون غـيره مـن المؤمنيـن. فعبارة (من دون المؤمنين) الواردة فـى القـرآن تعنـى هـذه المـرأة بـالذات ولا تعنى إطلاق العدد بدون حدود فـى الـزواج للنبـى عمومـا كمـا فهـم سـبرنجر. وبذلك يتضح لنا بجلاء، من خلال هذا المثـل، عـدم فهـم المستشـرقين للقـرآن وتفسيرهم له تفسيرا خاطئا أوصلهم إلى نتائج ومفاهيم خاطئة.

(جـ) وقع المستشرق فرانتز بُهل فى نفس الخطأ وزاد من قوله الفـاحش فى شخص الرسول بصدد هذا الأمر، وروى نفس الهراء الذى رواه مـن قبلـه سبرنجر عن حادثة أم المساكين.

(د) ويخـوض المستشـرق تـور أندريــه فــى كتابــه: "محمــد، حياتــه وعقيدته" (Mohomet, sa vie et sa doctrine, pp. 187-190) فى نفس الأمـر "بقوله بأن محمدا كان يحب النساء ويشتهيهن لدرجة عدم قدرته على السيطرة على نفسه فى هذا الأمـر حتـى أن يهـود المدينـة قـالوا عنـه: "يـا لـه مـن نبـى غريب أمره لا يستطيع أن يتذكر عدد زوجاتــه!" وإنـه لمـن المسـتنكر حقـا أن يعلن نبى أن النسـاء والبنيـن زينـة الحيـاة الدنيـا، ويـتزوج مـن تسـع زوجـات بخلاف عدد من الجوارى ويتظاهر بعد ذلك بالسمو الأخلاقى!.. إن محمدا لـم يعمل على تحسين صورته، وبخاصة بعد موت خديجة، وهو فـى الخمسـينات من العمر، فلم يعد قانعا بزوجـة واحـدة، بـل أعطـى لنفسـه، وفـى سـنى كـثرة مشاغله وكهولته فسحة حرة من الوقت يشبع فيها شهواته ويرضى نزواته.

ونحن مع ذلك سوف لا نحكـم علـى سـلوك النبـى هـذا إلا بعـد عـرض الأعتبارات الأخلاقية فى المجتمع الذى نشأ فيه وبعـد معرفـة مـا أخـذه منهـا. ولكى نفهم سـلوك محمـد تجـاه موضـوع تعـدد الزوجـات هـذا يجـب علينـا أن

نعرف حالة الأخلاق والعادات فى الجزيرة العربية والظروف والأحوال التى كانت سائدة هناك وإذا ما كان هنا لك تناقض بينها وبين ما زعم عن نزوات محمد.

ولا يجب والحالة هذه أن ندهش إذا ما علمنا أن الأخلاق فى الجزيرة العربية كانت آنذاك فى أدنى مستواها. وتعدد الزوجات كان شائعا، وعدد النساء متاح وبلا حدود وحسب رغبة الرجل، والطلاق يقع بكل يسر. وحين يتمعن المرء فى معرفة مدى إدراك العرب للآداب المتصلة بالزواج عندهم يستطيع حينئذ أن يحكم على سلوك محمد تجاه هذا الأمر. والآية ٥٢ من سورة الأحزاب تضع حدا لزوجات الرسول اللائى تزوجهن بالفعل وتمنعه من أن يبدلهن بأزواج غيرهن أو يزيد عليهن.

ويجب القول أيضا، قولا فى حق محمد، بأنه طبق بحزم الحدود التى وضعها التشريع لكبح جماح التسيب فى موضوع الجنس فى المجتمع الإسلامى. وحاول وضع قوانين عدة لتقديم فهم أخلاقى عال للغاية بصدد الزواج ووضع المرأة فى المجتمع، وبخاصة حين أعطى المرأة الحق فى الميراث، وهو حق لم تعرفه من قبل وكانت قد حرمت منه، كذلك فقد أمر بأن تَعامل الزوجة بالعدل والمودة والرحمة".

ويناقش د. بدوى رأى تور أندريه هذا بقوله :

لقد أظهر أندريه فهما عادلا لرأى وسلوك محمد بصدد موضوع الجنس والزواج والمرأة فى **الآتى** :

(أ) أكد أندريه أمر شيوع تعدد الزوجات فى جزيرة العرب قبل الإسلام، وأنه لم يكن فحشا، وأن عدد النسوة للرجل كان مطلقا ودون حدود بل حسب قدرته وإمكاناته، ورغم ذلك أورد أن محمدا قلص العدد وجعله أربع نسوة حرائر مجتمعات، وبذلك قام بكبح جماح الجنس.

(ب) أشار أندريه إلى ما فعله محمد من رفع قدر المرأة وإعطائها حق الميراث لأول مرة فى حياتها وتاريخها.

(جـ) أنكر أندريه أن تكون لمحمد نزوات جنسية وإستشهد فى ذلك بحياته النظيفة طوال حياته وسلوكه القويم.

(د) صحح أندريه ما أغلق على فهم سبرنجر وغيره من المستشرقين ما ورد فى سورة النساء.

(هـ) أما بخصوص ما أورده أندريه بصدد إستغراب يهود المدينة لأمر تعدد زوجات النبى، فانه لم يشر إلى أى المصادر التى إستقى منها هذه المادة.

ونحن نستنكر أن يستغرب اليهود لهذا الأمر لأن التشريع الموسوى سمح بتعدد الزوجات . وكان للنبى **إبراهيم** زوجتان : سارة وهاجر (العهد القديم،١٦)، وقد تزوج النبى **يعقوب** من أختين معا فى وقت واحد (العهد القديم ٢٩: ٢٣-٣٠)، وكان له عدد آخر من الزوجات من الجوارى (العهد القديم٣٠ : ٤ - ٩) ، كما كان للنبى **داود** محظيات وزوجات كثيرات ، وكان للنبى سليمان سبعمائة زوجة جميلة وثلثمائة محظية (سفر الملوك ١١ : ١ -٣).

ثم يستعرض د.بدوى فى هذا الفصل زوجات النبى وظروف زواجه منهن ليدفع عنه إتهام المستشرقين له بالإغراق فى الجنس وحب النساء فيقول الآتى :

١ - كانت **زوجته الأولى هى خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو فى الرابعة والعشرين من العمر ولم يتزوج غيرها حتى وفاتها فى السنة العاشرة من البعثة (٦١٩م) وهى فى سن الخامسة والستين. وكانت تبلغ من العمر ٣٩ عاما حين تزوج النبى منها وأنجب منها ستة أبناء.**

إذا كانت لدى الرسول نزوات شهوانية وجموح فى الجنس فكيف صبر على كبته فى نفسه طوال هذه السنين الكثيرة ؟ إن ذلك برهان قاطع على تكذيب ادعاءات المدعين، خصوصا إذا ما وضعنا فى الإعتبار بأن خديجة كانت تكبره بخمس عشرة عاما، ولم يكن قد تبقى لها من شباب أو حسن فيما يبن سن الخمسين والخامسة والستين.

٢ - كانت **زوجته الثانية** هى "**سودة بنت زمعة**"، وكانت زوجة للسكران بن عمرو، مات عنها السكران وتركها أرملة ولم يكن لها عائل، فتزوجها رسول الله ليعولها ويسترها وكانت طاعنة فى السن قد تعدت الخمسين ، تزوجها الرسول بعد موت خديجة بشهرين .

٣ - كانت **عائشة** هى **الزوجة الثالثة** للرسول، وهى ابنة صديقه أبى بكر، تزوجها لتقوية روابط صداقته مع أبيها، وكانت الزوجة الوحيدة العذراء التى تزوجها رسول الله وهو ما بين الخمسين والثلاثة وخمسين، وقد أجتازت عائشة آنذاك سن البلوغ.

٤ - أما **الرابعة** فهى "**زينب بنت خزيمة**" من قبيلة بنى هلال من هوازن. وكانت قبل زواجها من النبى قد تزوجت من الطفيل بن الحارث ثم من أخيه عبيدة بن الحارث الذى أستشهد فى معركة بدر تزوجها الرسول تكريما لزوجها الذى استشهد فى بدر وتقريباً لقبيلتها هوازن له. وكان عمر زينب حين تزوجت من الرسول ثمانية وعشرين عاما، ولم تمكث معه أكثر من ثمانية عشر شهراً لوفاتها وهى عند رسول الله. وليس فى زواج النبى من زينب أى دافع جنسى لأن ذلك الزواج قد وقع ولم يكن قد مضى على زواجه من عائشة آنذاك سوى عامين وكانت عائشة آنذاك بنت السابعة عشرة.

٥ - **الخامسة** هى **حفصة** بنت صديقه عمر بن الخطاب، وكان قصد زواجه بها نفس قصد زواجه من عائشة وهو تقوية روابط الصداقة مع

صديقه عمر بن الخطاب وكان تكريما لها بعد أن عرضها أبوها على أبى بكر وعلىّ. وكانت حفصة أرملة لخنيس بن حذافة الذى أستشهد فى معركة بدر أو أحد، وكانت تبلغ من العمر عند زواجها ثنتان وعشرين عاما ولم تكن جميلة.

٦ - **الزوجة السادسة** هى **"أم سلمة"** من بنى مخزوم، تزوجها الرسول بعد أن ترملت بوفاة زوجها أبى سلمة ولإعالة أبنائها الأيتام .

٧ - **الزوجة السابعة** هى **(جويرية بنت الحارث)** من بنى المصطلق، تزوجها الرسول إكراما لقبيلتها التى دخلت جميعها الإسلام بعد إطلاق النبى لسراح أسراهم من النساء بعد موقعة المريسيع.

٨ - **الزوجة الثامنة** للرسول وهى التى أثار موضوع زواجها منه خيال كتاب الغرب الأوربيين بداية من القرن السابع عشر فصاعدا، وهى "زينب بنت جحش"، من قبيلة أسد، وكان إسمها الأصلى "برة" والرسول هو الذى سماها زينب. وهى إبنة عمته أميمة بنت عبد المطلب. ولقد نفذ أهلها أمر الرسول حين طلب تزويجها لمولاه زيد بن حارثة، وكان ذلك تنفيذاً لقوله تعالى فى سورة الأحزاب، آية ٣٥ : ... "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا". ولقد تزوجت زينب زيداً رغماً عنها، ولم تكن فى وفاق معه وكانت دائمة الحزن دائمة الشكوى. فلما جاء أمر الله بالتطليق بعد إستحالة الحياة بين الزوجين أمر الرسول زيداً بأن يطلق زينب، ويتزوجها هو أمتثالا لأمر الله وتطبيقا لتشريع إسلامى خاص بأمر التبنى.

ولقد نسج خيال الكتاب الأوربيين المريض والمختل حول هذا الزواج رواية غرامية وفى مقدمة هؤلاء سبرنجر وبهل وجودفروا دي مومبين وغيرهم، وقد لخص دى مومبين هذه الرواية الغرامية المزعومة بقوله: "إن الحادثة تؤكد أن محمداً لم يكن قد تعرف على إبنة عمته، ولم تكن لديه فرصة

لرؤيتها حين تزوجت من زيد. وبعد أن تزوجها زيد، ذهب محمد فى أحد أيام الصيف لزيارة زيد فلم يجد زيداً فى المنزل، ولكنه حين دخل المنزل وجد زينب ممدة على فراشها وقد تلاعب الهواء بأطراف ثوبها فبدى جمالا فى عينيه مذهلاً ومغرياً، فانسحب محمد بعد أن اكتشف جمال إبنة عمته وأسر فى نفسه أن تكون له. وقد أرتاب زيد فيما حدث ، فذهب يعلن لوالده بالتبنى أنه يرغب على الفور فى تطليق زينب، وخطط محمد جيداً فى إخفاء عاطفته تجاه زينب. وأمر زيداً أن يمسك عليه زوجه. ولقد قام النبى بتدبير أمر إشاعة نبأ الخلاف بين زيد وزينب وأمر الوحى لهما بالتطليق ، وأمره له بالزواج منه بدلا من إبنه وقد أثار الأمر بلبلة بين المسلمين واليهود، لأن العرف آنذاك كان يعطى الأبن بالتبنى الحق الشرعى فى البنوة وعدم حق الأب بالتبنى الزواج من زوجة إبنه، وكان من الضرورى أن يتدخل الوحى لينتهى الأمر لصالح النبى بإلغاء التبنى ليقر تطليق زينب لتلقى بنفسها فى احضان محمد" .

ويرد د. بدوى على هذه الرواية الواهية الكاذبة بالآتى :

(أ) من المستحيل القول بأن محمداً لم يسبق له رؤية إبنة عمته قبل زوجها من زيد وقد كانت من أسرته وقبيلته ، وكان أهلها من أوائل التابعين للنبى والمعتنقين للإسلام .

(ب) إذا لم يكن محمد قد سبق له رؤية إبنة عمته فكيف يعرض على زيد الزواج منها وكيف يجبرها على هذا الزواج ويقنعها بأنه تنفيذ لأمر الله؟.

(جـ) ولو فرضنا جدلاً أن النبى لم يكن قد رأى زينب قبل زواجها من زيد، فمن المؤكد أنه رآها وعرفها بعد زواجها من زيد لأن زيداً كان يعيش فى كنف الرسول ورعايته ويعامله معاملة الأب للابن، وبذلك لم تكن رؤية النبى، التى يتحدث عنها دى مومبين وغيره، لزينب مفاجئة، ولم يفاجأ بجمالها وحسنها، كما أدعوا، وقرر فى نفسه تطليقها من زوجها.

(د) وتفاصيل رواية "تعرية زينب" واغرائها للرسول قصة من ابتداع مؤلفين مراهقين يعانون من داخلهم من كبت جنسى خطير.

وبخصوص **النقطة الثانية** المتصلة بزواج محمد من زينب زوجة إبنه **بالتبنى نقول :**

أولا : أن نظام التبنى الشرعى لم يكن معروفا على الاطلاق فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد أكد هذا الأمر المستشرق "بوكس" G. H. Box فى مقال له عن التبنى أورده فى دائرة المعارف الدينية (جـ١، ص ١١٥). كما أكد أن تعدد الزوجات فى هذا المجتمع كان كافيا لإبطال أمر التبنى داخله.

كذلك يجب أن نلاحظ أنه لم يمارس التبنى الشرعى على الاطلاق فى الشريعة اليهودية، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يجرؤ اليهود بالقول أو الأعتراض على زواج محمد من زينب؟ فى نفس الوقت فإن قريشاً التى عارضت محمد فى كل شئ، لم تتحدث بشئ عن موضوع التبنى ولم يعارض العرب عموماً على زواج الرجل من زوجة إبنه بالتبنى لو طلقها الإبن.

ولقد حرم الإسلام التبنى، منعا لإختلاط الأنساب وحفاظا على نقاوة الدم، وجاء ذلك فى عدة آيات فى القرآن من سورة الأحزاب (الآيات ٤، ٥، ٣٧).

"ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل".

"ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم..."

"وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه. فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا".

وبهذه الآيات القاطعات الواضحات حرم الإسلام على المسلمين التبنى، وحرم أن يكون للإبن بالتبنى حق الإبن الشرعى من الصلب فى إلارث أوفى غيره وبالأختصار فقد ألغى الإسلام نظام التبنى وحرمه، وكان ذلك فى مناسبة زواج النبى من زينب بنت جحش.

٩ - **الزوجة التاسعة** للنبى هى اليهودية **ريحانة القرظية**، من يهود بنى قريظة، وكانت قد وقعت فى أسر المسلمين مع بعض القرظيات فى معركة الخندق، وأعتقت الإسلام وتزوجها النبى تكريما لها .

١٠ - **الزوجة العاشرة** للنبى هى **"أم حبيبة"** إبنة أبى سفيان وأخت معاوية كانت زوجة لعبيد الله بن جحش الذى كان قد دخل فى الإسلام وهاجر مع زوجته وعدد من المسلمين فى الهجرة الثانية إلى الحبشة، ولكن عبيد الله أرتد عن الإسلام ومات على المسيحية وظلت زوجته فى الحبشة على الإسلام، فأرسل النبى إلى نجاشى الحبشة رسوله عمرو بن أمية الضمرى يطلب منه يد أم حبيبة، فوافق النجاشى وزوجه أياها وأرسلها إلى المدينة.

وزواج الرسول منها كان لصيانتها وحفظها ولحمايتها من انتقام أبيها أبى سفيان، وكان آنذاك قائد المعارضة الأكبر ضد المسلمين.

١١ - **الزوجة الحادية عشرة هى صفية بنت حيى بن أخطب اليهودية** من بنى النضير، وكانت زوجة لسلام بن مشكم وتزوجت من بعده من شاعر يهودى يدعى"كنانة" وقعت فى الأسرفى معركةخبير وقتل زوجها فى المعركة، إعتنقت الإسلام وأعتقها الرسول وتزوجها إكراما لها وتعويضاً عما أصابها.

١٢ - **الزوجة الثانية عشرة هى ميمونة بنت الحارث**، من بنىهلال، تزوجها الرسول فى السنة السابعة من الهجرة ، لتوطيد علاقته بقبيلتها بنى هلال الكبرى.

وهناك إمرأتان خطبهما الرسول ولكنه لم يتزوج منهما **وهما**: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان، وهى من قبيلة كلاب ويقال أن الرسول تركها بسبب برص أصابها، وأسماء بنت النعمان الجونية التى أستعاذت منه فأعاذها. وتزوج الرسول من مارية القبطية، وكانت جارية أهداها له المقوقس.

بإستعراضنا لهذه الزيجات نرى أنها كانت بأمر الهى إما لتوطيد أواصر الصداقة والأخوة مع أقرب الناس إليه، أو لتوطيد العلاقة مع القبائل العربية، أو لرفع شأن اليهوديات اللائى إخترن الإسلام ديناً لهن. أو لتطبيق تشريع يصحح وضعاً إجتماعياً خاطئاً كان سائدا عند العرب قبل الإسلام.

وبذلك نرى أنه ليس وراء هذا الزواج أى دافع شهوانى أو جنسى، وكان كله إمتثالا لأمر ربانى ، لذا لم يكن له أن يطلق زوجاته بعد إن تزوج منهن أو يبدلهن بغيرهن وليس لهن أن يتزوجن من بعده لأنهن صرن أمهات للمؤمنين.

فى **الفصل الثالث** الذى جعله د. بدوى تحت عنوان: "سياسة محمد تجاه خصومه" تحدث عن علاقة محمد مع اليهود ومع النصارى ومع القبائل

العربية، ورأى المستشرقين الأوربيين بصدد هذه العلاقة. وناقش د. بدوى إتفاق "الصحيفة" الذى أبرمه النبى فى المدينة بين المهاجرين والأنصار وحلفائهما، وأثبت ما لحظه المستشرق "فلهوزن" من أن الصحيفة لم تكن تشكل معاهدة مع اليهود، ولكن ذكر اليهود ورد فيها على أنهم أحلاف للأنصار، ولم يكن فى المعاهدة تعهدات مباشرة بينه وبين اليهود ولكنها كانت من خلال الأنصار، ولذلك لم يرد اسم قبائل يهود المدينة (بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة) فى الاتفاق, وقد دخلت هذه القبائل الثلاثة ضمن أحلاف الأنصار من بنى عوف و بنى النجار وبنى الحارث وبنى صاعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة. ولقد كان يهود بنى قينقاع حلفاء للخزرج، أما يهود بنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا حلفاء الأوس.

ولقد أورد د. بدوى نصوصا تدين بنى قينقاع بحسدهم لرسول الله ونقض العهد وشنهم الحملة ضد النبى ودين الإسلام منذ الأيام الأولى لنزول النبى يثرب، وعدم توقفهم لا بالقول ولا بالعمل فىالكيد للمهاجرين وللأنصار. وبعد ذلك كله كان لابد لرسول الله أن يرد عليهم، وكانت لديه آلاف الأسباب للخلاص منهم بعد أن صاروا خطرا يهدد دولته الوليدة فى المدينة. فأنتهز فرصة ما حدث منهم فى سوقهم وحاربهم بعد أن لم يلتزموا بأتفاق الصحيفة. وبذلك تكون دموع التماسيح التى زرفها بعض المستشرقين عليهم دموعاً زائفة تشكل خزياً وهزءاً لهم وإثباتاً لجور أحكامهم وعمى بصيرتهم.

وإذا كان المستشرق كايتانى (Leon Caetani) قد ألقى اللوم على رسول الله (فى كتابه:Annali dell' Islam, I, Roma - Milano) على حربه بنى قينقاع وأتهمه بالظلم فى هذه الحرب فإنه لم يستطع أن يجد شيئا يدين به النبى بخصوص ما فعله مع بنى النضير، وهو بذلك يقر حرب الرسول لهم وموقفه

العادل منهم بعد أن نقضوا العهد معه وتآمروا على قتلـه، وكـانوا علـى وشـك الأتفاق مع أبى سفيان على مهاجمة الرسول فى المدينة.

وكان صراع النبى مع بنى قريظة، أشد عنفاً من صراعه مع القبيلتين اليهوديتين السابقتين، وكان مصير هذه القبيلة أسوأ من مصير سابقتيها بسبب عظم الجرم الذى إرتكبته وخيانتها للنبى وتهديد دولة الإسلام تهديداً خطيراً خلال غزوة الأحزاب ومعركة الخندق . ولم يكن هذا التهديد لدولة النبى فى المدينة ناجما عن قوة جيش بنى قريظة المرابط خلف ظهر قوات النبـى، كما يدعى المستشرق كأيتانى والمستشرق وات (W. M. Watt) بل بسبب تخطيط الأحزاب أن يهاجم جيشهم المدينة من جهة بنى قريظة وبمساعدتهم لهم وأن يطعنوا جيش النبى من الظهر وبذلك يفسدوا خطة النبـى بصدد حفر الخندق حول المدينة.

ويورد د. بدوى تباكى المستشرقين، وعلى رأسهم كايتـانى وفرانسسكو جابريللى على مقتل تسعمائة رجل يهودى من يهود بنى قريظة على يد النبى بعد غزوة الأحزاب، ويرد على هذا التباكى **بالتالى** :

(أ) أن حكم القتل الذى صدر على بنى قريظة، كان حكم حليفهم سعد إبن معاذ الذى إرتضى اليهود بحكمه، فلم يكن بذلك حكم النبى.

(ب) أن تهمة الخيانة فى الحرب واقعة على يهود بنى قريظة فى معركة الخندق، فكيف يقولون أن النبى ذبح تسعمائة بريئاً ؟ وتهمة الخيانة فى الحرب تجابه عموماً بالقتل فى كل التشاريع وعلى طول التاريخ.

(جـ) لقد عرض يهود بنى قريظة المسلمين ودولة الإسلام فى المدينة للخطر المحقق، فكيف يدعى بعض المستشرقين أن ما وقع باليهود كان "مذبحة غير إنسانية" ونسوا أن الجزاء من جنس العمل! وأن بنى قريظة كانوا آنذاك أعداءً محاربين مشاركين فى الحرب مع الأحزاب مشاركة فعلية كاملة.

وذكر د. بدوى أن حكم ماكسيم رودنسون ((Maxim Rodinson فى كتابه "محمد" فى هذا الخصوص جاء حكما معتدلاً، وأن القتل كان جزاء عادلا ليهود بنى قريظة من وجهة النظر السياسية الخالصة، لأن بنى قريظة كانوا يمثلون خطراً دائماً لدولة الرسول بالمدينة وتركهم على تلك الحال كان مصدر قوة لمحور مكائد اليهود فى خيبر. فإذا ما نفذ القتل فى يهود قريظة فإن ذلك سيساهم دون شك فى زيادة رعب يهود خيبر وإدخال اليأس على قلوبهم، ومنعهم من التفكير فى مهاجمة المدينة مع من ينضاف إليهم من القبائل التى لم تكن قد أعتنقت الإسلام آنذاك.

ولقد تبع الرسول غزوة الخندق بالهجوم على حصون اليهود فى خيبر وفتح هذه الحصون وعقد الصلح مع أهلها على دفع الخراج على أن يبقوا فى أرضهم يزرعونها ودفع نصف ما تغله قل أم كثر. ولما علم يهود فدك أن الدور صار عليهم طلبوا من النبى الصلح على أن يقاسمهم محصول أرضهم فوافقهم على ذلك، كذلك أقر نفس الشئ مع يهود وادى القرى.

ويخلص د. بدوى فى حديثه عن علاقة محمد مع اليهود بالقول ما نصه: "بإختصار، فإنه بكل المقاييس، الجماعية والفردية، حول علاقة النبى باليهود، يجب أن يوضع فى الإعتبار عند الكتابة عنها الإعتبارت العسكرية. فيهود المدينة، منذ الأيام الأولى لحلول النبى فى المدينة، أعلنوا الحرب عليه: حرب التخريب، والحرب الدينية والأيدلوجية، وحرب التعصب، وأخيرا الحرب الشاملة، وحاول اليهود تعبئة القبائل مجتمعة للدخول فى حرب ضد محمد والإسلام فى المدينة.

ولإنجاح هذا المخطط جمعوا الأموال والسلاح ووضعوهما ضد الدولة الوليدة فعرضوها بسبب ذلك لخطر دائم. ولإنجاح دعوته وإنقاذ دولته، لم يقف محمد مكتوف اليدين أمام هذا الخطر اليهودى الذى كان سوف يظل

شوكة دائمة في جنب المجتمع الإسلامي إن هو لم يسارع بشتى الطرق التخلص منه. وفي الحقيقة فإن المستشرقين وما يزرفونه من دموع زائفة حول قدر اليهود ومصيرهم خلال هذه الوقائع تدل على نفاقهم الكامل، فلو وقع مثل هذا الأمر في بلادهم وعلى شعوبهم فإن أياً منهم لن يزرف دمعة واحدة على أعداء بلاده المتآمرين عليها.

ولا يستطيع أي من هؤلاء المستشرقين أن يتهم عمل محمد هذا ضد اليهود بأنه عمل ديني أو عنصري، وليس هو كذلك عملاً ذا دافع أقتصادي، كما يحلو لبعضهم مثل هذا التصور الخاطئ. والدليل على ذلك أن ما غنمه الرسول من اليهود كانت غنيمة زهيدة أو تكاد تكون معدومة: وإن ما كانت تحتويه قافلة واحدة من قوافل مكة التي أستولى عليها المسلمون كان يعادل عشرة أمثال ما حصلوا عليه من غنائم اليهود".

وفي ختام هذا الفصل تحدث د. بدوي عن الجدل الذي دار بين محمد واليهود، والذي أقتنع منه محمد تماما أنه جدل غير مفيد، لأن اليهود لم يكونوا، بأي حال من الأحوال، راغبين في التخلي عن أحكام شريعتهم، ومن ناحية أخرى فإن محمدا لم يضع أبدا في اعتباره تحول اليهود للإسلام ولم يكن في حاجة إلى هذا التحول بسبب قلة عددهم في جزيرة العرب وضعف قوتهم الحربية كمقاتلين وبسبب مشكالهم ومطالبهم ونزعاتهم التي لانهاية لها.

ويسخر د. بدوي من رأي المستشرق الأسكتلندي "وات" حين تصور أن محمدا بعدائه لليهود أضاع على نفسه فرصة كسبهم إلى جانبه وإقامته دولة عربية يهودية يتحول فيها الإسلام إلى مذهب يهودي، ويتساءل عن الحالة الذهنية التي كان عليها مونتجمري وات حين كتب هذا القول! ويقول: "ومن المؤكد أنه لو كان قد شرب وقتها عشر زجاجات ويسكي أسكتلندي (صنع بلاده) دفعة واحدة لما إستطاع أن يكتب مثل هذا الكلام! يا سيد وات ... إن

الإسلام لا يمكن له أن يكون مذهبا يهوديا، وإذا حدث ذلك فمعناه أن محمداً قد أعتنق اليهودية! وليس هنا لك عاقل واحد أو إنسان لديه ذرة من العقل يقول مثل هذا الهراء أو يفترض مثل هذا الأفتراض. ولو تساءلنا عن السبب الذى يدعو محمداً إلى ذلك؟ هل يفعله ليضم إلى دولته هذا الكم المهمل العديم القيمة من فلول اليهود؟ يا له من تخريف! لقد كان من الأولى له إذن والأحسن الآف المرات لو أتبع ملة آبائه وملة شعب الجزيرة العربية ووفر على نفسه كل هذا العناء والعنت الذى لاقاه طوال بعثته.

إذا كان مونتجمرى وات قد مات وفارق الحياة، وكتابه: "محمد فى المدينة" يعاد طبعه اليوم (سنة ١٩٨٩) بعد ثلاثة وثلاثين عاما من طبعته الأولى فى أكسفورد (سنة ١٩٥٦)، فإنا نستطيع أن نتصور مدى الشر وقذارة الدور الذى لعبه هذا الكاتب فى الأنحدار بالناس تحت تأثير مثل هذه العبارة الكاذبة المضللة وإذا كانت هنا لك فرصة طيبة ضائعة، كما يدعى وات، فإنها كانت دون شك فرصة ضائعة فقط على يهود المدينة وخيبر. وهم الذين ضيعوها، وكانوا سوف يغتنموها بالقطع لوهم وقفوا مع محمد على الحياد، أو، وذلك الأحسن لهم، لو كانوا قد أعتنقوا دين الإسلام".

وفى **الفصل الرابع** من الكتاب يتعرض د. بدوى لموضوع محاولة بعض المستشرقين التشكيك فى صدق النبى محمد حيال ما أبرمه وعقده من معاهدات وصلح وعلى الأخص "صلح الحديبية" (ذو العقدة سنة ٦هـ/ أبريل ٦٢٨م). وكان فرانتز بهل من أكبر المشككين فى ذلك ومن القائلين بنقض النبى لعهد الحديبية مع قريش والقيام بفتح مكة. ويرد د. بدوى على قول بهل وأمثاله من أنهم لا يملكون الدليل على صدق مثل هذا القول لكن "مرد ذلك حتماً هو عمى البصيرة والصمم. ومن المدهش أن أمثال بهل لا يتركون

مناسبة واحدة فى سيرة النبى إلا ويدخلون التزييف عليها وينقصهم فى ذلك الدليل والبرهان واقل القليل من النقد التاريخى والصدق مع النفس".

وتحدث د. بدوى عن عفو محمد عن أهل مكة عند فتحها، وقال فى ذلك: "لم يحدث فى كل تاريخ الإنسانية أن قام أحد بمثل ما قام به محمد. لقد عفى عن أعدائه الذين ظلوا فى حرب معه طوال عشرين عاما، وكانوا يترصدون له ويرتكبون معه كل منكر وقبيح. ولقد عفى عن أبى سفيان قائد قريش فى معظم معاركها ضده، وعن زوجته "هند" التى أغتالت عمه حمزة يوم أحد ومثلت بجثته، وعفى عن عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وغيرهما. ومع ذلك، فإن غالبية المستشرقين لم يقدروا هذه الرحمة الزائدة القدر. فبماذا نفسر ذلك؟ وهم يفتشون فى نفس الوقت على أقل القليل من الشهامة فى ذكرى حساب الآخرين.

ولقد أدعى رودنسون أن العفو عن أبى سفيان وزوجته كان بهدف رغبة النبى فى استمالتهم وكسبهم إلى صفه، كذلك روج لفكره الماركسى بالتلويح إلى أن محمدا إستفاد من هذا العفو ليقترض المال من أغنياء قريش الزائدى الثراء.

كذلك قال بهل أن محمداً فعل ذلك ليدخل الكفار فى ملته رغم عدم اقتناعهم بهذا الدين.

ولقد قارن د. بدوى بين سلوك محمد مع أعدائه بعد فتحه العظيم وسلوك ما رواه المستشرقون عن الفاتحين الأوربيين فى كل تاريخ أوروبا حتى يومنا هذا. وخص بالذكر فى المقارنة ما قام به الحلفاء مع الألمان بعد أنتصارهم عليهم فى الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه محاكمات نورمبرج الشهيرة من أحكام بالأعدام شنقاً والسجن لعدد كبير من شعب الألمان وقوادهم.

ويعلق د. بدوى على هذا الأمر فى ختام ذلك الفصل بالقول:

"... لكن لا أحد يستطيع لَوم الأوربيين ـ رغم تجاوزاتهم الكبيرة ـ بصدد "حقوق الإنسان" والعدالة، والسلام العالمى ... إلى آخر هذه الشعارات لا أحد يستطيع أن يرفع صوته ضد هذه التجاوزات على العدالة، حتى أولئك الذين يدعون منهم بأنهم أنصار العدالة **أمثال**: برتراند راسل وجان بول سارتر ومن على شاكلتهم . ولو كان لدى هؤلاء (المستشرقين) البائسين أقل القليل من الحياء لتوقفوا عن إعطائنا دروساً عن أخلاق محمد وعن الإسلام والمسلمين. ولكن نستطيع أن نقول أنه ينطبق عليهم فى هذا الخصوص قول النبى: إن لم تستح فأصنع ما شئت. وعلى الإجمال فإنه إذا كان هنالك أى مستشرق من المستشرقين الذين كتبوا عن محمد لم يشهدبعظمته بعد فتح مكة، نستطيع أن نقول عنه بأنه غير عادلٍ وغير منصف وغير منزه عن الهوى".

وفى **الفصل الخامس** يعرض د. بدوى للفرائض الإسلامية من صلاة وزكاة وصوم وحج ويرد على رأى بعض المستشرقين فيها من أنها فرائض ذات أصول مسيحية ويهودية، ويدحض بالدليل والحجة هذه الآراء ويثبت أنها فرائض إسلامية بحتة برغم وجود تشابهات منها فى الديانتين المسيحية واليهودية. وقد أورد د. بدوى ما روجه فرانتزبهل من هراء حول صلاة المسلمين وما ردده من جاء بعده على لسانه من قوله بأن محمدا استعار من اليهود الصلاة اليومية وعدد أوقاتها، ولكى يخالف اليهود جعلها خمس صلوات فى اليوم والليلة بدلا من ثلاثة عندهم فى اليوم والليلة .

ورد د. بدوى على المروجين لهذا الأمر من أن اليهود لم تكن لديهم صلوات يومية وأنه ليس فى كتاب العهد القديم أى فرض لثلاثة صلوات يومية على مجتمع اليهود. وأنه حتى فى لأيام الأخيرة للهيكل الأول لم يكن هنالك فرض للصلاة على اليهود ولا حتى فرض صلاة واحدة. ولقد أدى اليهود

الصلاة فى وقت متأخر للغاية فى المعبد كل سبت وأيام الأعياد وأيام السوق (الأثنين والثلاثاء)، ولم يكن هنا لك فرض لأى ثلاثة صلوات فى اليوم عندهم. وكانت هذه الصلوات المتفرقة عندهم مقررة ومعلومة. فكيف يدعى المستشرقون أن محمدا أخذ الصلوات اليومية عن اليهود مع أنهم لم يعرفوا طوال تاريخهم مثل هذه الصلوات ؟.

والصلاة فى الإسلام تختلف عنها عند المسيحين، فهى عند المسيحين مجرد دعاء وتوسل وإبتهال، لكنها فى الإسلام هى ذات طقوس من قراءة قرآن وركوع وسجود وليس هنا لك صلة بما يروجه المستشرقون من أن فاتحة الكتاب التى تقرأ فى صلاة المسلمين تتشابه مع دعاء الجبنيوت (ابانا الذى فى السماء) عند المسيحين. وبرغم وضوح هذا التجاوز بين الأثنين فإن من الغباء أن يذكر المستشرقون وجود أى تطابق بينهما .

ولقد بذل المستشرقون جهودا مذهلة لاثبات وجود الصلوات اليومية المحددة قبل الإسلام عند العرب فى الجاهلية أو عند اليهود أو رهبان النصارى، لكنهم لم يجدوا أثرا لذلك فى الديانات الأخرى، وبذلك ضاعت جهودهم سدى وصارت هباء منثورا .

وبصدد الصوم حاول سبرنجر وكايتانى وعدد آخر من المستشرقين إثبات أن محمدا اقتبسه عن اليهود والنصارى وأنه تقليد لهما مع وجود الاختلاف الكبير بين الاثنين. فالصوم عند اليهود قد حدد بخمسة أيام فى السنة متباعد ما بينها، **وهى** :

١ - يوم الغفران(يوم كيبور) فى العاشر من شهر تشرين أول(أكتوبر) .

٢ - يوم البكاء على هدم الهيكلين الأول والثانى فى التاسع من شهر آب (تشعابآب) (أغسطس) .

٣ - يوم ذكرى هدم أسوار اورشليم وشتات اليهود على يد الامبراطور الرومانى تيتوس، فى يوم السابع عشرة من تموز (يوليو) .

٤ - يوم ذكرى حصار نبو خذنصر ملك بابل لأورشليم ، فى العاشر من شباط (فبراير) .

٥ - اليوم السابق ليوم الخروج من مصر أيام فرعون، فى الثالث عشرة من شهر آزار (مارس) وذلك يخالف صوم المسلمين لشهر كامل محدد كل عام هو شهر رمضان .

وخلال أيام الصوم يقوم اليهود بتمزيق ثيابهم ولبس ثياب من الخيش، ويضعون الرماد أو الوحل على رؤوسهم ويحرم عليهم لبس الأحذية والنعال ويقضون جل وقت الصوم فى الجبانات وبين المقابر، ولا شئ من هذا يحدث فى صوم الملسمين .

كذلك يحرم على اليهودى العمل على الإطلاق أثناء الصوم؛ وعلى العكس من ذلك فى صوم المسلمين فالعمل أمر محبب ومشدد على القيام به أثناء الصوم. أما الصوم عند النصارى فهو يترواح بين ستة وثلاثين يوما وسبعة أسابيع فى العام، يتناول الصائم أثناء صومه وجبة واحدة فى اليوم إما فى الساعة الحادية عشرة صباحا أو فى الثالثة من بعد الظهر. ويمنع فى الصوم عندهم أكل كل ما به روح من لحوم وبيض ولبن وخلافه مع السماح بأكل جميع أنواع السمك أثناء الصوم. ويسمح للحامل أو المرضع تتناول وجبتين فى يوم الصوم صباحاً ومساءً.

ومن الواضح اختلاف الصوم عند المسلمين عنه عند النصارى، ومن السخف قول كل من جريم Grimme وسبرنجر بتأثر صوم المسلمين بالصوم عند النصارى .

وبصدد فريضة الحج يقول د. بدوى أن المستشرقين قدموا لنا آراء سخيفة مستوحاة من خيالهم المختل، وذكر أن هؤلاء المستشرقين ينقسمون بصدد هذا الموضوع إلى حزبين، الحزب الأول ويأتى على رأسه كل من "دوزى" (Reinhardt Dozy) فى كتابه الذى نشره بالألمانية تحت عنوان "الأسرائيليات فى مكة" ، وقد أرجع الحج الإسلامى إلى أصول يهودية. وقد جاء فريق من بعده وعلى رأسه "هوتسما" M. Th .Houtsma وقال بأن الحج العربى هو نفس الحج اليهودى. وقارن، على سبيل المثال، بين الوقوف بعرفة ووقوف بنى اسرائيل على جبل سيناء. وجعل وقوف الإسرائيلين وهم متخذرن من الملابس ومانعين للمعاشرة الجنسية مقابل الاحرام عندالمسلمين.

ويرى أصل رمى الجمرات عند المسلين هو رجم ابليس السنوى عند اليهود.

ولقد اتفق فنسنك A. J. Wensink فى الرأى مع هذا الفريق، وقال أن هنا لك ما يقابل "يوم التروية" عند المسلمين عند اليهود، وأن إنارة المعبد عند اليهود فى عيد الخروج تماثل تماما إنارة المسلمين للمساجد فى عرفات ومزدلفة.

ولقد رفض المستشرق "سنوك هورجرونج" Snouck Hurgroinje هذه الآراء تماما فى مقال له عن أعياد مكة .

ويرى الحزب الثانى من المستشرقين الذين رجعوا إلى المصادر الإسلامية فى أمر الحج أنه له أصولا فى الجاهلية، لكن الإسلام أدخل عليه تغييرات أساسية ذكرها ابن هشام .

وفى آخر هذا الفصل تحدث د. بدوى عن الزكاة، ووضع عنوانا شغل أذهان المستشرقين زمناً طويلاً، وهو: هل كان محمد إشتراكيا ؟ وهو نفس السؤال الذى وضعه المستشرق سنوك فى دراسة قام بها لكتاب المستشرق

جريم عن حياة محمد، ولقد نفى سنوك ما أورده جريم بصدد اشتراكية محمد. وأوجد د. بدوى أوجه الإختلاف بين الإسلام والإشتراكية وبعد الشقة بين الأثنين ومناقضة مبادئ الإسلام لمبادئ الإشتراكية .

وفى **الفصل السادس** والأخير ناقش د. بدوى تشكيك المستشرقين فيما ورد عن صحة رسائل وخطب وأحاديث النبى فى كتب السيرة ومصادر التاريخ الإسلامى. وقد رد د. بدوى على المستشرق بهل الذى شكك فى صحة وحقيقة الكتب التى ارسلها النبى لملوك وحكام العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام مدعيا فى زعمه أن محمدا لم يكن قد خطط لنفسه أن تكون ديانته ديانة عالمية، وقد تغافل بهل عما ورد فى القرآن من أن محمدا أرسل للناس كافة وعامة، وأن على محمد أن ينشر دعوته ويبلغ رسالته إلى كل خلق العالم وأنه وضع ذلك موضوع التنفيذ بعد فتح مكة. وكذلك أكد عالمية تبليغ الدعوة بقيامه بغزوة تبوك وبإعداده حملة أسامه بن زيد قبل وفاته .

ويقول د. بدوى عن رأى بهل هذا أنه "رأى سخيف ينم عن غباء صاحبه وبذلك يكون قوله الذى ينكر رسائل النبى إلى ملوك وحكام العالم وقتذاك وقوله عنها أنها ملفقة قول لا يساوى فى قيمته قيمة بصلة وقول يشير إلى غباء بهل النادر" .

ويورد د. بدوى رأى جاستون فييت (G. Wiet) بصدد إنكاره الخطابين المتبادلين بين النبى والمقوقس حاكم مصر وقوله أنها ملفقة وأن المراسلة بينهما لم تتم على الإطلاق. مؤيدا رأيه بحجتين، **الأولى :** هى أن بطريرك الإسكندرية لم يكن مخولاً بإرسال مبعوثين إلى أجانب من طرفه، **والثانية :** وهى أن المقوقس لم يكن مفوضا من قبل الإمبراطور البيزنطى بإستقبال مبعوثين أجانب. هذه الحجج حجج واهية، لأن المصادر العربية ذكرت المقوقس على أنه "ملك الإسكندرية" بمعنى أنه كانت له سلطة الملك فى

مملكته، أو كيف يكون المقوقس ملكا وهو لا يملك ارسال مبعوثين من طرفه أو استقبال مبعوثين من خارج مملكته ؟ أى نوع من الملوك يكون هذا ! ؟

كذلك فإن خطاب الرسول إلى المقوقس كان فى وقت إرسال خطابه إلى امبراطور بيزنطة ونجاشى الحبشة، وجاء الخطاب على نفس أسلوب الخطابات المرسلة إليهم، فأين إذن التلفيق الذى يشير إليه فييت ؟ إن محمد حميد الله صاحب كتاب وثائق عصر النبوة يؤكد توجيه الثلاثة خطابات إلى امبراطور بيزنطة ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر فى وقت واحد وبأسلوب واحد وكيف ينكر فييت رسالة النبى إلى المقوقس وينكر ما أكدته المصادر الإسلامية والمسيحية فى وقت واحد عن الهدايا التى أرسلها المقوقس للنبى ومن ضمنها الجارية مارية القبطية ، أم ولده إبراهيم .

ويردد دى مومبين نفس الهراء الذى أورده المستشرقون بصدد إنكار رسائل النبى للمقوقس والإصرار على أنها رسائل ملفقة، ويؤكد ذلك، على الدوام، كيف يفكر هؤلاء المستشرقون ونهجهم الذى إنتهجوه فى دراساتهم التى وضعوها عن محمد وعن القرآن والإسلام .

أما بصدد خطب النبى فهى خطب قليلة، وأهم ما ورد فيها خطبتان، **الأولى** : وهى الخطبة التى ألقاها يوم فتح مكة . **والثانية** : خطبة حجة الوداع (١٠ ذو الحجة سنة ١٠هـ) ولقد وردت هاتان الخطبتان فى كل المصادر الخاصة بالسيرة النبوية، كذلك عند كبار المؤرخين المسلمين من أمثال الطبرى وابن الأثير وغيرهما. ولم يختلف أى مؤرخ مسلم فى صحة هاتين الخطبتين، ولم يتعرض أحد من المستشرقين لهذه الخطب بالدراسة سوى"ماسينون" الذى بحث فيها دون أن يتعرض لأمر صحتها وعدم صحتها.

وبخصوص أحاديث الرسول، المعروفة بالسنة النبوية، وهى التى تعد، بعد وفاة الرسول، الركن الأساسى للمسلمين مع القرآن . فلقد أهتم علماء

المسلمين بأمر الحديث منذ بداية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى، وعملوا على جمع الأحاديث وتدوينها وتنقيتها من غير الصحيح الذى دخل عليها. وظهرت كتب الصحاح وكتب السنن التى صارت المصدر الثانى للتشريع عند علماء السنة بعد القرآن .

ولقد وجه المستشرق اليهودى "جولدزيهر" بعض النقد لكتب الصحاح فى كتابه : "Mahmmdanische" Studien*"، كذلك فعل جوزيف شاخت (J. Schacht) فى مقال له فى المجلة الملكية الأسيوية (JRAS) عدد عام ١٩٤٩. وحاول جولد زيهر أن يشير فى مقالاته إلى تشابه عبارات بعض الأحاديث مع عبارات وردت فى أناجيل النصارى، وقد قصد بذلك الإيحاء بأن النبى اقتبس أقواله من كتب النصارى .

ويختتم د. بدوى قوله فى كتابه بالسخرية من قول جولدزيهر، ووعده بالرد الكافى والجواب الملجم فى كتاب له سوف يخصصه لدراسة وافية للسنة النبوية ولأحاديث رسول الله إذا ما أمد الله له فى العمر. ونسأل الله تعالى أن يمد فى عمر هذا العالم الكبير وينفع الإسلام والمسلمين بكتاباته القيمة وبدفاعاته القاصمة بعد أن هداه الله ليكون داعيةً "للإسلام ولنبى الإسلام وهو يعيش ما تبقى له من العمر وسط جو الغرب المعادى للإسلام ولنبى الإسلام .

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

ABIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 12 (JANUARY 1994)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 12 (JANUARY 1994)

محتوى العدد

٢ - عرض الكتب :